مركز دراسات الوحدة العربية

مدينة الأرامل

المرأة العراقية في مسيرة التحرير

هيفاء زنكنة

مركز دراسات الوحدة العربية

مدينة الأرامل

المرأة العراقية في مسيرة التحرير

هيفاء زنكنة

ترجمة: مركز دراسات الوحدة العربية

مدينة الأرامل

المرأة العراقية في مسيرة التحرير

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد مركز دراسات الوحدة العربية

زنكنة، هيفاء

مدينة الأرامل: المرأة العراقية في مسيرة التحرير / هيفاء زنكنة؛ ترجمة مركز دراسات الوحدة العربية.

١٧٦ ص.

ببليوغرافية: ص ١٦٧ ـ ١٧٦.

ISBN 978-9953-82-201-3

١. المرأة العراقية. ٢. الحرب الأمريكية ـ البريطانية على العراق (٢٠٠٣). ٣. المقاومة العراقية. أ. العنوان. ب. مركز دراسات الوحدة العربية (مترجم).

956.704430922

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية»

العنوان الأصلي بالإنكليزية

City of Widows:
An Iraqi Woman's Account of War and Resistance
by Haifa Zangana
(New York, Seven Stories Press, 2007)

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣
الحمراء ـ بيروت ٢٤٠٧ ٢٠٣٤ ـ لبنان
تلفون: ٧٥٠٠٨٤ ـ ٧٥٠٠٨٥ ـ ٧٥٠٠٨٦ ـ ٧٥٠٠٨٧ (٩٦١١+)
برقياً: «مرعربي» ـ بيروت
فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (٩٦١١+)
e-mail: info@caus.org.lb
Web Site: http://www.caus.org.lb

حقوق الطبع والنشر والتوزيع للطبعة العربية محفوظة للمركز

الطبعة الأولى

بيروت، أيار/ مايو ٢٠٠٨

الإهـداء

إلى ذكرى عبير قاسم حمزة الجنابي، فتاة الرابعة عشرة التي اغتصبها جنود أمريكيون وأشعلوا النار فيها في المحمودية، الواقعة على مسافة عشرين ميلاً إلى الجنوب من بغداد، وذلك في ١٢آذار/مارس ٢٠٠٦.

كلمـــة شكـــر

إن هذا الكتاب، وخصوصاً الجزء التاريخي منه، هو حصيلة مناقشاتي اليومية تقريباً مع منذر الأعظمي، الذي كان، كما هو دائماً، سخياً بوقته ودعمه وأفكاره. وقد جعلني تسامحه وبصيرته أرى بعضاً من أحداثنا السياسية المعاصرة على نحو مغاير.

وإني أوجه شكراً خاصاً إلى محررة كتابي آيمي شولدر، التي اضطرت إلى استبيان طريقها عبر أسماء غير مألوفة، ومواقع قديمة، وأحداث تتبدل بسرعة، فأظهرت تفهماً واحتراماً عميقين للنضال المتواصل الذي يخوضه الشعب العراقي.

شكراً لصباح زنكنة لما قدمه من دعم وافر، ولأوراس فاروق لتجشمه عناء إرسال الكتب المطلوبة إليّ رغم ما كان ذلك من مخاطر.

شكراً لأصدقائي ندى خوري وديفيد ولسون وكامل مهدي وشهرزاد قاسم حسن ومحمد كامل عارف وون ـ تشين أويانغ وجودي كمبرباتش وبيتر فيليبس وسناء الخياط، لقراءتهم المخطوط وتقديمهم مقترحات بشأن تغييرات ومراجع جديدة. شكراً لسفيرة جميل حافظ ولاهي الدامي على الكتب والنصوص النادرة التي أرسلتاها إليّ والتي تتعلق بالنساء العراقيات، وشكراً لأنيسة عبد الهادي (أم ليث) لما زودتني به من معلومات عن المدارس الأولى في العراق.

إني مدينة للراحل البروفسور عبد الإله أحمد، ناقدنا الأدبي المرموق، الذي كان رغم مرضه على استعداد للإجابة عن أسئلتي حول الروائيين العراقيين ودور المفكرين تحت الاحتلال.

المحتويـــــــات

خلاصة تنفيذية ١١

مقدمــة ٢١

الفصل الأول : الانتقال إلى الحداثة ٢٥

الفصل الثاني : غزو العراق ٨٥

الفصل الثالث : الحياة تحت الاحتلال ١١٥

الفصل الرابع : المقاومة ١٣٩

خاتمــة ١٦٥

المراجــع ١٦٧

خلاصـــة تنفيذيـــة

أبدأ هذا الكتاب في نهاية القرن التاسع عشر لأُبرز نشأة الحركة النسائية العراقية كجزء لا يتجزأ من نهوض الهوية العراقية الحديثة. ففي ذلك الوقت أخذت تتشكّل عملية تحديث بطيئة فيما لايزال البلد تحت الحكم العثماني، ثم استمرت في أثناء القتال ضد الاستعمار البريطاني.

تُبرز عشرينيات القرن العشرين والعقود الثلاثة التي تلتها نهوض دولة العراق الحديثة. وهنا أود التأكيد بأن العراق، خلافاً للرأي الليبرالي المحدث، ليس بلداً مخترعاً، بل هو موجود منذ زمن سحيق. وقد جرت، قبل الاحتلال وبعده على وجه الخصوص، محاولات من وسائل إعلام وأوساط أكاديمية غربية لإعادة كتابة التاريخ العراقي دعماً لتفكيك الدولة العراقية. وثمة تعليل شائع بأن العراق كيان مصطنع اختلقه الاستعمار البريطاني، وأن مكوّناته تتناحر بعضها مع بعض ولا بد من إعادة تشكيله. وذلك غير صحيح البتة. فالعراق بلد قائم منذ الأزمنة الغابرة على ضفاف نهري دجلة والفرات. وعلى مر القرون، تبدلت حدود المناطق النائية في مد وجزر غير منتظمين، وكذا المراكز والمقاطعات الإدارية. غير أن حكماً مركزياً نهض مراراً وتكراراً في المنطقة المحيطة ببغداد الحاضرة، لتوكيد سلطته في أعالي النهرين وأسافلهما وفي روافدهما، بسبب الحاجة إلى أنظمة ري منسقة وتبادل السلع عن طريق النقل النهري. والجدير بالملاحظة أن جميع العواصم القديمة سومر وبابل وأشور تقع في الأرض العراقية، وأن العراق يمتدّ على نحو ثلاثة أرباع وادي دجلة ـ الفرات. وقد سميت الأرض التي تشكل البلد الحالي عراقاً بلغات الثقافات القديمة في المنطقة[1]. وتقع

(١) استخدم عرب الجزيرة كلمة «العراق» للإشارة إلى الأراضي المجاورة للمياه، بما فيها الأنهر الكبيرة. وعلى عكس ذلك، استخدم الفرس كلمة مماثلة للإشارة إلى الأراضي المنخفضة أو الأراضي =

بابل والمدائن، عاصمتا العراق القديم ضمن محيط قدره خمسون ميلاً من بغداد الحالية. وتوجد ضمن البلد نفسه أيضاً الكوفة والأنبار وسامراء، وكلها عواصم دول عربية ـ إسلامية سيطرت على إمبراطوريات مترامية في العصور الوسطى. وتأتي بغداد نفسها منذ تأسيسها في سنة ٧٦٢ في مقدم هذه العواصم، وقد غدت في الحقبة العثمانية مركزاً لولايات العراق الإسمية الثلاث، بما فيها الموصل على دجلة إلى الشمال والبصرة عند ملتقى النهرين إلى الجنوب. وكانت ولاية الموصل العثمانية السابقة تضمّ معظم كردستان العراق.

تشكل هذه الحقائق الجيوسياسية الخلفية لمجموعة راسخة ومشتركة من العادات والقيم بين السكان كما تشكل مدونات القانون المدني الضمنية للمجتمع العراقي، بصرف النظر عن مقدار ما تعرض له ذلك المجتمع من ضعف بسبب الحروب والكوارث. ويجب أن تؤخذ هذه الحقائق في الاعتبار في ضوء التطورات الأخيرة للدولة العراقية ـ اقتصادها وصناعة النفط فيها وخدمات التعليم والصحة، والشؤون السياسية الشرق الأوسطية الأوسع التي تتوضح ضمنها الأحداث الجارية.

في هذا النص عن العراق، أقدم نفسي أيضاً. كنت في المدرسة الابتدائية عند قيام ثورة ١٩٥٨، فتاة عراقية لأب كردي من مدينة كركوك الشمالية وأم عربية ورثت لقب العلوية من والدها «السيد»[٢] (نشأت أمي في كربلاء، إحدى مدن العراق المقدسة). وقد تربيت بين بغداد وكركوك وإربيل. وكان بيت عائلتي في بغداد مزدحماً دائماً بالأقارب القادمين من المدن الشمالية. وكان أبي، خليل،

= الساحلية. ويوضح علماء آثار معروفون الأصل اللغوي السومري لـ «Uruk» التي تعني «مستوطنة». وكانت Uruk أيضاً اسم واحدة من أكبر مدن العصور القديمة (٣٠ كلم عن مدينة السماوة الجنوبية في العراق الحديث). وفي كتابات مشهود بصحتها، كان أول ذكر للاسم في القرن الثاني عشر ق. م.، في وثيقة من وثائق كيش أطلقت الاسم إراقا على المنطقة التي حكمتها بابل، وبات ذلك الاسم متداولاً في القرنين الرابع والخامس إبان حكم الأسرة الساسانية (الفارسية) وفي شعر ما قبل الإسلام. هذه كلها متميزة عن استخدام الإغريق لكلمة «ميسوبوتيميا» (ما بين النهرين)، وهي عبارة غامضة نظراً إلى إمكانية إطلاقها على أي نهرين في المنطقة. انظر: طه باقر، **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: الوجيز في تأريخ حضارة وادي الرافدين**، ٢ ج، ط ٢ (بغداد: وزارة الثقافة والإعلام، دائرة الشؤون الثقافية، ١٩٨٥)، ص ١٠.

(٢) لقب خُلع على النساء اللواتي ينحدر آباؤهن من نسب النبي محمد. والأصل اللغوي للقب يرقى إلى علي، ابن عم النبي الذي تزوج من فاطمة الزهراء، ابنة النبي الوحيدة التي كان لها أولاد، إذ أنجبت الحسن سنة ٦٢٥ والحسين سنة ٦٢٦. ولما لم يكن للنبي أبناء ذكور، كان الحسن والحسين أثيرين إلى قلبه فعاملهما كأنهما ولداه. لذلك، يحمل الذكور المنحدرون منهما اللقب الديني الشريف: «السيد» وتحمل الإناث اللقب الشريف: «علوية».

طليق اللسان باللغات الكردية والفارسية والتركية، لكن العربية بقيت كتاباً مغلقاً بالنسبة إليه، ولعل ذلك هو السبب الذي جعله فخوراً بي، وهو الرجل العلماني، وهو يراني أميل إلى اللغة العربية، لغة القرآن، وأكتبها باعتبارها لغتي الأم.

في الأيام الأولى لثورة ١٩٥٨ قمت وأنا في السابعة من العمر بأول زيارة لقصر النهاية، القصر الذي بني في الأساس لولي العهد الامير عبد الإله باسم قصر الرحاب، وقد فُتح أمام الجمهور بعد الإطاحة بالملكية. في ذلك اليوم، ذهبت مع أمي واثنتين من خالاتي وجدتي وأخويّ. ارتدينا أفضل ملابسنا، مثلما نفعل عادة في أيام الأعياد. أذكر الحدائق المنسّقة بشكل جميل. وكان في الباحة الأمامية إسطبلات. شكوت من صندلي الجديد غير المريح، لكن لم يعرني أحد اهتماماً. كانوا كلهم منهمكين في التفرّج والتأشير والهمس. ولم أكن أفقه سبب اضطرارنا إلى الهمس، إذ كان القصر خاوياً. أخيراً انتبهت جدتي إلى دموعي وعنفتني: «اصمتي، اصمتي! يجب أن لا نزعج الموتى.» وفي وقت لاحق، في الستينيات، تم تحويل الغرف إلى زنزانات، حيث عُذب وقُتل مئات العراقيين الذين عارضوا نظام البعث، بصرف النظر عن خلفياتهم الدينية أو الإثنية. وكنت واحدة ممن سُجنوا هناك وأنا في الحادية والعشرين من العمر.

في أعقاب ثورة ١٩٥٨، أصبح الشارع، لأول مرة، ملكاً للمواطنين العاديين وعمت البهجة، خصوصاً بين النساء، إذ أقرّ دستور الثورة الحقوق القانونية للنساء، واحتفل بالثامن من آذار/مارس، يوم المرأة العالمي، وبالأول من أيار/مايو، عيد العمال العالمي، مع سائر المجتمعات الحرة في أنحاء العالم. وشاهدنا، تحت أشعة شمس العراق الساطعة، كيف تبخرت الطبقة الهزيلة من الأمراء القبليين والإقطاعيين وبطانات الوزارات الملكية التي فرضها البريطانيون (١٩٣٢ ـ ١٩٥٨). أصبحنا المالكين الفخورين لمواردنا النفطية بموجب القانون رقم ٨٠، الذي نجلّه الآن في ذاكرتنا الجماعية كرمز للاستقلال. واتسعت تطلعاتنا في حياة جديدة لتصبح بحجم أحلامنا.

في أوائل الستينيات، انضممت إلى الآلاف من النساء للمطالبة بإطلاق سراح جميلة بوحريد، المقاتلة الشابّة في صفوف المقاومة الجزائرية التي اعتقلها الفرنسيون وسجنوها وعذبوها مع آخرين، من بينهم البطل الأسطورة أحمد بن بيلّا. إن للمرأة المقاتلة موقعاً مهماً وكبيراً في العالم العربي. وبالنسبة إلينا، نحن المراهقات، كانت جميلة، المقاومة للاحتلال، مثَلَنا الأعلى وليس إحدى مطربات البوب أو نجمة من عارضات الأزياء.

أتابع، في الكتاب، السير على الطريق الذي سلكته مع آخرين. حيث طالبنا بحكم ذاتي للأكراد العراقيين داخل عراق ديمقراطي، والتحقنا بالكفاح المسلح لقلب نظام البعث ضمن حركة ممتدة من كردستان في الشمال إلى الأهوار العربية الجنوبية.

كنت، أيضاً، واحدة من العديد من العراقيين الذين التحقوا بحركة المقاومة الفلسطينية إثر حرب ١٩٦٧، اقتناعاً منا بأن احتلال فلسطين وإرغام الفلسطينيين على ترك بيوتهم ليعيشوا في مخيمات للاجئين ظلم فاضح يجب أن ينتهي. وعلى غرار الكثير من مؤيدي القضية الفلسطينية، لم نشارك نحن الكتَّاب والصحافيين والفنانين والأطباء والطلاب في المقاومة المسلحة بالضرورة، لكننا شاركنا بالطرق التي تيسرت لنا. ولأنني كنت خريجة كلية الصيدلة في جامعة بغداد، عُينت لإدارة معمل الأدوية التابع للهلال الأحمر الفلسطيني، الواقع في دُمّر القريبة من دمشق. كان الفلسطينيون يعتمدون بشكل أساسي على تلقي هبات من الأدوية من مانحين دوليين ومن دول صديقة مثل الصين، إلا أن ذلك لم يكن يلبّى كل حاجاتهم الصحية الملحة، وكان ثمة حاجة ماسة إلى توفير الخدمات الصحية البديلة. لذلك، حاولنا في دُمّر، تحقيق الاكتفاء الذاتي، عن طريق إنتاج الأدوية الأساسية للاجئين الفلسطينيين المقيمين في مخيمات الاجئين في سورية ولبنان. وكانت عملية تحقيق الاكتفاء الذاتي، ولو جزئياً، في ظل القيود المشددة على الميزانية وارتفاع أثمان المعدات اللازمة لصنع الأدوية، معركة شاقة.

لم يكن معظمنا يحمل جوازات سفر صالحة (وهذا الظلم عامل من العوامل المشتركة بين الفلسطينيين والعراقيين حتى يومنا هذا)، لذا كنا نضطر إلى السفر عبر الطريق العسكري المحفوف بالمخاطر بين لبنان ودمشق كي نصل إلى مستودعاتنا ومعسكراتنا. وعلى الرغم من كل الصعوبات، تمكنا في غضون أربعة أشهر من تجهيز المصنع بالآلات المطلوبة لإنتاج بعض الأدوية الأساسية مثل الباراسيتمول والأسبيرين والأقراص المضادة للحموضة وشراب للسعال وأدوية لعلاج الإسهال عند الأطفال. وبعد عام واحد أصبح مصنع الأدوية الذي أسسناه الإنجاز الأهم للهلال الأحمر الفلسطيني، وقد زارته وفود كثيرة. كان إحساسنا بما حققناه عظيماً، مثلما كان انشغالنا اليومي بالمستقبل.

في الوقت الذي وجدت فيه بعض التفاصيل الشخصية عن حياتي طريقها إلى هذا الكتاب، واجهت صعوبة في الكتابة عن حكم البعث، منذ تسلّمه السلطة سنة ١٩٦٨ إلى نهايته سنة ٢٠٠٣. إذ تعيد إليّ هذه الفترة بالتحديد صور

الأصدقاء الذين عُذبوا وأُعدموا (قُتل ثلاثة من رفاقي المقرّبين ورابع انتهى به الأمر بعد تعذيبه إلى مستشفى للأمراض العقلية، ثم عمل كمخبر لدى مديرية الأمن العامة بعد أن أُفرج عنه)، والإساءات والمضايقات التي تعرّضت لها أنا وأسرتي. وبعد مغادرتي العراق في أواخر سنة ١٩٧٤، توجب على أحد أفراد أسرتي التردّد على المكتب الأمني، في مديرية الأمن العام، بانتظام ليثبت أن العائلة لم تسمع شيئاً مني.

ولفهم التغيّرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي أثرت في حياة الملايين من أبناء شعبنا على امتداد خمسة وثلاثين عاماً من حكم البعث، كان عليّ أن أتجاوز مشاعري الشخصية كي أرى دوره التكويني في كل جانب من جوانب الحياة العراقية، وفي تشكيل البلد وشعبه. إن تأثير النظام البعثي على حياة الشعب العراقي أعمق بكثير من الأسباب التي أعلنتها الولايات المتحدة تبريراً للغزو. لقد كانت الأسباب المعلنة لقيام التحالف الأمريكي ـ البريطاني بغزو العراق هي وجود أسلحة الدمار الشامل، والصلة ما بين القاعدة والنظام البعثي، وضرورة إقامة حقوق الإنسان، وخصوصاً حقوق المرأة. وقد ثبت زيف هذه الشعارات كلها.

بل وثبت أن الترويج لحقوق المرأة العراقية كمبرر للغزو هو أم الإخفاقات؛ إذ فقدت العراقيات كل ما حققنه كناشطات قبل الغزو، وتم قتل آلاف النساء من بين ٦٥٠٠٠٠ قتيل، وهو عدد لا يزال يرتفع منذ منتصف سنة ٢٠٠٦[٣]. وبحلول منتصف سنة ٢٠٠٧، كان واحد من بين كل ثمانية عراقيين قد ترك بيته ليصبح لاجئاً، فيما يبلغ عدد الذين أُجبروا على مغادرة بيوتهم ٥٠٠٠٠ شخص كل شهر. ويقول مكتب المفوضية العليا للاجئين التابع للأمم المتحدة (UNHCR) إن نزوح العراقيين هو الأكبر منذ نزوح الفلسطينيين بعد إقامة إسرائيل سنة ١٩٤٨. ويقدر الهلال الأحمر العراقي أن ثلثي النازحين من النساء والأطفال، وأنهّم يعيشون غالباً في كنف عائلات على رأسها نساء. إن كارثة اللاجئين العراقيين التي لم تتناولها وسائل الإعلام إلا في أوائل سنة ٢٠٠٧ هي أحدث الجوانب الظاهرة لانهيار المشروع الأمريكي في العراق. ويختلف حجم هذه الكارثة وطبيعتها عن سائر جوانب ذلك الانهيار، ومنها ارتفاع عدد الإصابات في صفوف القوات الأمريكية والبريطانية، وانفضاح أمر التعذيب المنتظم للسجناء

(٣) «Updated Iraq Survey Affirms Earlier Mortality Estimates,» Johns Hopkins Bloomberg School of Public Health and al-Mustansiriya University in Baghdad (11 October 2006).

والفظائع المرتكبة في حق المدنيين، وتصاعد التكاليف الاقتصادية والسياسية والبيئية للاستراتيجيات الإقليمية التي تنفذها الولايات المتحدة.

لقد تكشف النزوح القسري لمليوني عراقي داخل البلد ومليونين آخرين في بلدان مجاورة على مراحل، فكان في البداية قَطراً ثم تحول إلى فيضان. وجاء هذا الفيضان، في سنة ٢٠٠٦، عقب شكل مختلف من أشكال «الصدمة والرعب»: الفظائع الرهيبة التي ارتكبتها فرق الموت والمليشيات، وترافقت مع سعي الاحتلال وراء سبيل آخر لضمان الهيمنة الأمريكية عقب فشله في إخضاع البلد. واستندت الاستراتيجية الجديدة على تفتيت السكان إلى طوائف وأقليات عرقية يمكن إدارتها للتعامل معها أو الاستغناء عنها.

في أعوام الاحتلال الخمسة، انتقلت الولايات المتحدة من المعارضة العلنية للقوى الدينية في العالم العربي والدعوة إلى «نموذج للديمقراطية» العلمانية الحديثة في العراق، إلى الاعتماد الصريح على القوى الإسلاموية الطائفية، وتلك إشارة صارخة على أنها فشلت في إيجاد أي ركيزة اجتماعية أخرى لسيطرتها الاستعمارية الجديدة. وقد حاولت الولايات المتحدة تبرير هذا الفشل بادعاء أن الانتقال إلى «الديمقراطية» بعد «التحرير» قد كشف عن الصراعات العميقة في المجتمع العراقي التي حجبتها الدكتاتوريات السابقة، لتُعزى إلى الطائفية بلا تردد أشكال غير مسبوقة من العنف الذي يعاني منه العراقيون كافّة. ويقال لنا تكراراً إن القصة الرئيسية في العراق هي أن العراقيين يقتلون العراقيين بالمئات كل يوم، وأن السؤال الرئيسي هو هل تحولت إلى حرب طائفية أهلية أم لا، وصار السؤال مؤخّراً: «لماذا يكرهون بعضهم بعضاً؟» ليصبح لوم الضحية هو التبرير المقبول على نطاق واسع لبقاء القوات الأجنبية في العراق إلى أجل غير مسمى.

الحقيقة هي أن التوتّرات الطائفية «النائمة» تغذَّى وتموَّل من خلال عصابات إجرامية وأمراء حرب في المناطق السكنية المختلفة. فالمحتلون لم يكونوا عاجزين عن السيطرة على مثل هذه الانفجارات فحسب، بل إنهم دمروا إمكانية المجتمع العراقي في التعامل بنجاح مع مثل هذه المشكلات. حيث تعمّد الاحتلال تفكيك الدولة ومؤسساتها والجيش والبنى الرئيسية للمجتمع المدني بحيث أُجبر الناس على الارتداد إلى «خطوط» الدفاع عن وحداتهم الاجتماعية الصغرى ضمن المجتمع الأهلي، وهو ما ساعدهم خلال فترة الحصار على التماسك فيما استمرت الدولة في العمل كبنية فوقية. بيد أن هذه المجتمعات الأهلية لا تملك الموارد الوفيرة، ولا يمكن التكيف مع محدوديتها إلا ضمن الدولة المدنية. وليس بإمكان المجتمع

المعزول أن يتعامل مع مشكلات السيطرة على العصابات المنظمة والفساد المستشري. إن المجتمعات الأهلية تناضل للتصدّي للهجمات المعادية وأجبار أفرادها على النزوح من قبل المليشيات والشبان العاطلين عن العمل ومن أفسدهم الاحتلال، تحت ستار طائفي أو إثني. كما إنها تجهد لاحتواء مشاعر الانتقام التي تعقب الفظائع المرتكبة ضد أبنائها. ومع أن كثيراً من المجتمعات الأهلية تستطيع الصمود إلى حد بعيد من خلال الجهود المحلية، فإنها بحاجة إلى المهنيين ومكوّنات المجتمع المدني لتحمّل الهجوم العنيف عليها. بيد أن مثل هؤلاء الأفراد قد طُردوا أو تعرّضوا للتصفية على نحو منظم منذ الاحتلال، مما أجبر المجتمعات الأهلية إلى اللجوء إلى موارد أعمق لكنها أشدّ ضعفاً.

إذا نظرنا إلى الواقع العراقي لوجدنا أن معظم العراقيين يمقتون الطائفية، ويعتبرون الدين خياراً شخصياً على العموم لا أداة سياسية للحكم. ويعتبرون الإسلام جزءاً من ثقافة المرء وهويته لكنه ليس على الإطلاق السبيل الوحيد لحكم العراق. فلا عجب في أن الأحزاب السياسية المتلفعة بأثواب دينية، سواء كانت سنية أم شيعية، أو بأثواب عرقية، سواء كانت كردية أم تركمانية أم يزيدية، قد فشلت في تمثيل الشعب العراقي. ولا عجب في أن شهادة أبي أحمد من إحدى الأُسر النازحة لا تنشر من قبل الإعلام السائد، في ظل الفكرة التي يروّج لها الاحتلال والنظام التابع بأنّ العراقيين يكرهون بعضهم بعضاً، إذ يقول أبو أحمد: «أسرتي شيعية. ونحن نعيش مع أسرة سنية، وقد أجبرت المليشيات كلتا الأسرتين على ترك بيوتهما. ثمة ثلاثون فرداً منا يتشاطرون المكان نفسه: ١٤ طفلاً و١٤ راشداً، بالإضافة إلى الجدات من كلا الجانبين. إننا نقيم في بناء مهجور ونتقي سوء الطقس بأغطية بلاستيكية قدمها لنا الصليب الأحمر الدولي مع بعض المواد الغذائية. والراشدون من كلتا الأسرتين يحاولون مواصلة العمل، فنزاول أي عمل نجده، لكننا لا نجني ما يكفي لنحيا حياة كريمة»[٤].

في العام الخامس للاحتلال، اتسعت حدة الانقسام الطائفي والعرقي بين السياسيين والأحزاب ومليشياتهم المتصارعة، وارتد على من أحدثوه في المنطقة الخضراء وما ورائها، ولم يستثن العنف الناتج المدنيين. وكان من نتائج ذلك

(٤) International Committee of the Red Cross, «Civilians without Protection: The Ever-worsening Humanitarian Crisis in Iraq,» 11 April 2007, <http://www.reliefweb.int/rw/RWFiles2007.nsf/FilesByRWDocUnidFilename/486FDBB72255800CC12572BA0029A8F4-Full_Report.pdf/$File/Full_Report.pdf>.

حدوث تغيير كبير في دور المرأة العام. فخلال أعوام الاحتلال الثلاثة الأولى، كانت النساء في معظم الأحيان حبيسات بيوتهن، يحميهن أقاربهن الذكور. لكن وحشية الظروف دفعت الكثيرات منهن إلى أن يصبحن المعيلات الوحيدات للعائلة مما أجبرهن على المخاطرة بحياتهن خارج البيوت. . وبما أن الرجال هم الهدف الرئيسي لقوات الاحتلال والمليشيات وفرق الموت، فإن النساء هن اللواتي يشاهَدن واقفات في صفوف أمام السجون أو المكاتب الحكومية أو مؤسسة الطب العدلي بحثاً عن أقاربهن من الذكور المفقودين أو المعتقلين. كما باتت المرأة هي التي تدفن الموتى. وأصبحت بغداد مدينة النساء الثكالى.

لم يترك الاحتلال مجالاً لأي مبادرة مستقلة عن العملية السياسية المقرّة رسمياً، أو لمعارضة سلمية تؤسس حلقات اتصال لتضييق فجوة الانقسام الطائفي المصطنع سياسياً. ولا يؤدي هذا الدور الآن سوى المسجد. ففي غياب الدولة، توفر بعض المساجد الخدمات الأساسية، إذ تدير العيادات والمدارس، وترعى الأيتام. ولا تقتصر وظيفة مكبرات الصوت فيها على الأذان، إذ إنها تحذر الناس أيضاً من هجمات وشيكة أو تدعو إلى التبرع بالدم. غير أن هذه المحاولات للمحافظة على روح المجتمع تتعرّض للسحق على نحو منتظم.

تطوّرت عناصر مقاومة الاحتلال في كل أنحاء البلد، وهي تتراوح ما بين المقاومة المسلحة والمعارضة السلمية والسياسية والمجتمعية، وقد تزايدت حدّتها واتسع نطاقها. وتشارك كثير من النساء في هذه الحركة، بتقديم الدعم المباشر وغير المباشر. تذكروا أن المقاومة المسلّحة للاحتلال حق بمقتضى القانون الدولي. لم تولد حركة المقاومة هذه من معتقدات إيديولوجية ودينية ووطنية فحسب، بل كرد فعل أيضاً على الأعمال الوحشية التي يرتكبها الاحتلال وإدارته. إنّها ردّ على المداهمات العشوائية وإجراءات التفتيش المذلّة وممارسات الاعتقال والاحتجاز والتعذيب. فوفقاً لتقرير حديث للصليب الأحمر الدولي، «ارتفع من تعتقلهم القوات المتعددة الجنسيات أو تسجنهم بنسبة ٤٠ بالمئة منذ أوائل سنة ٢٠٠٦. كما ارتفع عدد من تعتقلهم السلطات العراقية بشكل ملحوظ». ومن الضروري أن نتذكر أن المحتلين الأنغلو ـ أمريكيين لم يرسلوا إلى العراق مراقبين للانتخابات أو فرقة مسرح شكسبير الملكية أو طائرات ترمي المساعدات العاجلة. لقد أرسلوا أقوى الجيوش وأحدثها تسليحاً، سواء في المرحلة الأولى من «الصدمة والرعب» أو في مراحل لاحقة، واستخدموا القنابل العنقودية والفوسفورية، وجيلاً جديداً من قنابل النابالم يدعى AK77، واليورانيوم المنضب، وأسلحة أخرى غير تقليدية. ويقدّر في بغداد

وحدها وجود ثمانمئة موقع خطر، لمعظمها صلة بالقنابل العنقودية[٥].

بعد خمسة أعوام من الاحتلال، لا تزال الإدارة الأمريكية غير مستعدة للاعتراف بأن هناك عراقيين وعراقيات يعانون معاملة مرعبة نتيجة الاحتلال، ولديهم الاستعداد للقتال من أجل عراق مستقل وموحد ويسيطر على موارده، مثلما لا تعترف بأن العراقيين شعب عزيز النفس ومحب للسلام، ويكره الاحتلال لا بعضه بعضاً. إنهم العراقيون المختلفون تماماً عن الصور التي يقدمها المحتلون في لقاءاتهم وأحاديثهم المقدمة بوسائط إلكترونية. وإذا ما تم الإقرار بالمأساة في العراق من قبل المحتل، يدور الحديث حولها من ناحية الأخطاء والمشكلات بين العراقيين أنفسهم لا أنّها نتيجة احتلال غير قانوني وغير أخلاقي.

ما مدى أهمية المنظور النسوي في هذا الكتاب؟ كيف يمكننا بالتحديد أن نعزو أي مسألة إلى المرأة، سواء تاريخياً أم تحت الاحتلال؟ طبعاً يستحيل فصل محنة المرأة عن سائر الجنس البشري، لكن يبدو لي أن منظور المرأة ذو صلة بالموضوع لثلاثة أسباب. السبب الأول يرتبط بحقوق المرأة، مثلما يرتبط بحقوق الأفراد جميعاً، وبمقدار الحاجة إلى ضمان هذه الحقوق وحمايتها قانونياً. فالمجتمع الأبوي التقليدي، وخصوصاً في العالم العربي والإسلامي، يبرر عادة أدوار التمييز الجنسي الصارمة بأنها ضرورية من أجل استمرارية بقاء الأسرة والمجتمع في عالم قاس. والحجة هي أن هذه الأدوار، المقيدة للذكور والإناث على حد سواء، تحمي النساء بصورة أفضل وتجلّهن كأمهات وبنات وأخوات بدرجة أعلى كثيراً مما هن عليه الآن في المجتمع الغربي الحديث. ومع أن هناك بعض الحسنات في هذه الحجة، فإنها تلغي فردية الذكور والإناث، ويكون الخضوع الواضح هو الثمن الذي يتعين على النساء دفعه عادة في مقابل الحماية والاحترام. لهذه الأسباب تحتاج المرأة إلى مجتمع مدني ناشط لتوضيح حقوقها وحمايتها.

السبب الثاني الذي يجعل منظور المرأة حاسماً يتعلق بالعنف المرتبط بالجنوسة. ولهذا الأمر أهمية خاصة في زمن الاحتلال والحرب والصراع المسلح، الذي يشكّل في الغالب إطاراً للإساءة الجنسية إلى النساء والفتيات. فالنساء العراقيات تحت الاحتلال، سواء كن مقيمات مع رجال أو من دون رجال، يتعرضن للإساءة الجنسية والتعذيب والموت. ووفقاً لأحد أعضاء البرلمان العراقي، وقعت

(٥) United Nations Children's Fund [UNICEF], «Security Council Presentation,» 22 May 2003, <http://www.unicef.org/media/media_9109.html>.

١٠٥٣ حالة اغتصاب موثقة ارتكبها عناصر من قوات الاحتلال ومن القوات العراقية من سنة ٢٠٠٣ حتى أوائل سنة ٢٠٠٧. وتُحتجز النساء لترهيب أقاربهن من الذكور أو إرغامهم على الاعتراف بجرائم لم يقترفوها. وهناك أكثر من ألفي امرأة معتقلة، بعضهن محتجزات مع أطفالهن، وأخريات مفصولات عن أطفالهن ومحرومات من معرفة أماكن وجودهن.

والسبب الثالث الذي يجعل منظور المرأة ذا صلة يتعلق بكون النساء ولاّدات. إذ تحتاج الحوامل إلى العناية الخاصة قبل الولادة وبعدها، للمحافظة على صحّتهن وصحة أطفالهن. وفي كل سنة، تحبل مليون امرأة في العراق، أي هناك حالة حمل واحدة في كل خمس عائلات. وهذا يعني أن نحو نصف العائلات تضمّ نساء حوامل أو أطفالاً دون السنتين. وربما يمكن القول أيضاً إن الطريقة التي يعامل المجتمع بها مواطنيه الأكثر عرضة للأذى هي المحكّ الحقيقي لإنسانيته وسلامة عقله.

هذا هو الوضع اليوم. وثمة أمل للمرأة العراقية على المدى البعيد. ومن المحتمل جداً أن يعود زخم التغييرات التي شهدتها مكانة المرأة العراقية في العقود السابقة، على الرغم من أنه قد انقطع بشكل عنيف نتيجة الحصار في تسعينيات القرن الماضي والاحتلال القائم. وثمة إشارات إلى أن النساء العراقيات لا يشاركن فحسب في المقاومة الوطنية وفي الأعمال الهادفة إلى التخفيف من المعاناة وينظمن الخدمات الصحية والتعليمية الأساسية، وإنّما ينشطن أيضاً في معارضة السياسة الطائفية وتقسيم البلد، مما سيضمن لهن دورهن القيادي مستقبلاً في عراق حر يتمتع بالسيادة الكاملة ويجمع بين الكرامة والعدالة والتنمية المستقلة والديمقراطية وحقوق الإنسان.

مقدمـــة

هذه قصة كُتبت في المنفى، على أمل أن يدرك القراء في الغرب حقيقة ما يجري في بلد وجّهوا إليه ضربة شاملة ومروّعة. كما إن هذا الكتاب هو بمثابة تاريخ شخصي يتضمن حكاية ترعرعي في بغداد، حيث عايشت حروباً وفترات سلام ورخاء؛ والتحقت بحركات للتغيير الاجتماعي وشاركت في الكفاح المسلّح؛ وعملت من أجل المساواة كامرأة، وعراقية، ومواطنة في هذا العالم.

اتخذت المغامرة الأمريكية ـ البريطانية الكارثية ستاراً من العبارة الاستعمارية القديمة «محرِّرون لا فاتحون»، والأكذوبة الإمبريالية الجديدة: «إقامة الديمقراطية». وتقتضي كلتاهما إعادة كتابة التاريخ العراقي الحديث، وهي عملية يكون العراقيون، وخصوصاً النساء، فيها غائبين عن الأنظار في الغالب أو يصوَّرون كضحايا. لقد ألفت هذا الكتاب للاعتراض على هذا التضليل الاستعماري الحديث. وأرجو أن يجد فيه أيضاً القراء الحذرون من الدعاية (البروباغندا) مادة مفيدة. وقد حاولت أن أتناول الصور النمطية السائدة عن تاريخنا ومجتمعنا وثقافتنا، وبعض المفاهيم الخاطئة عن أبناء الشرق الأوسط. وهو أيضاً محاولة لتوضيح كيف تواصل النساء العربيات والمسلمات، ولاسيما في العراق، المساهمة في بناء تاريخنا الحديث رداً على الوضع المدمّر الذي يجدن أنفسهن فيه بسبب التحديات الخارجية والمحلية. إنها قصة معاناة وتضحية عظيمتين، وشجاعة وانتصار. إنها، أيضاً، احتفاء بآمال النساء وإنسانيتهن.

تعتبر النساء العراقيات من بين أكثر النساء تحرراً في الشرق الأوسط، ولهن تاريخ طويل من النشاط السياسي والمشاركة الاجتماعية منذ القرن التاسع عشر، إذ شاركن في النضال ضد الهيمنة الاستعمارية وفي القتال في سبيل الوحدة

الوطنية والعدالة الاجتماعية والمساواة القانونية طوال القرن العشرين. وقد أفاد تقرير اليونيسف في سنة ١٩٩٣ أنه «يندر أن تتمتع نساء في العالم العربي بالقدر ذاته من القوة والدعم اللذين تتمتع بهما النساء في العراق».

مع ذلك، وكجزء من الإعداد المضلَّل للغزو الأمريكي للعراق، اختيرت النساء العراقيات ليكن «منارة الأمل» لجميع النساء في الشرق الأوسط. وجرى تقديمهن، والشعب العراقي برمته، على أساس أنهن بحاجة إلى التحرير، رغم التاريخ الاجتماعي المعقد والأنظمة القائمة في العراق آنئذ.

منذ احتلال العراق بقيادة الولايات المتحدة سنة ٢٠٠٣، أصبحت النساء العراقيات محتجزات في بيوتهن، وهن يسعين يومياً للنجاة من وقائع الحرب والهيمنة القاسية. يبدأ يوم المرأة العراقية العادية بالكدح للحصول على الحاجات الأساسية ـ الكهرباء والغاز والماء والطعام والدواء ـ لنفسها ولأسرتها، وينتهي بتنفسها الصعداء لأنها نجت مما تخلله من تهديدات بالموت وهجمات عنيفة ومحاولات اختطاف. وقد تقلّصت مشاركتها السياسية، إن سُمحت لها بذلك أصلاً، لتقتصر على التشاجر بين حفنة من «النسوة القياديات» حول مناصب سياسية صورية استحدثت تحت الاحتلال.

وقد أعيد توجيه النشاط النسوي المؤيّد للاحتلال الذي تقوده الولايات المتحدة نحو منظمات المرأة العراقية غير الحكومية ذات التمويل الأمريكي، وهي منظمات أُنشئت في واشنطن واعتُبرت ضرورية لإشراك «أصوات مهمة غائبة عن النقاش ـ أصوات نساء عراقيات تعرضن للمعاناة الشخصية من قمع صدام حسين»[١].

سيبين الكتاب أن هذه المنظمات غير الحكومية جزء لا يتجزأ من الاستراتيجية الأمريكية في العراق. وأنّها كانت نافذة في حشد الدعم للغزو والاحتلال، وهو دور رُسم لها عقب ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. وقد رأى وزير الخارجية الأمريكي السابق كولن باول في كلمته أمام المنظمات غير الحكومية في سنة ٢٠٠١ بأن «المنظمات غير الحكومية الأمريكية مثلها تماماً مثل دبلوماسيينا وعسكرييننا، موجودة هناك للخدمة والتضحية على الخطوط الأمامية للحرية. إن المنظمات غير الحكومية هي بالنسبة إلينا مضاعف للقوة وجزء مهم من فريقنا

(١) <http://www.defenddemocracy.org/about_FDD/about_FDD_show.htm?doc_id=257042&attrib_id=7615>.

القتالي». حقاً، إنها تمثل السياسة الاستعمارية الأمريكية أكثر مما تمثل مصالح العراقيين والعراقيات.

ويبين الكتاب أيضاً أن أحد أسباب تخبط الإدارة الأمريكية في العراق هو السياسة الاستعمارية، التي لا تسترشد بفهم حقيقي للشعب العراقي. ولعل الفهم الخاطىء الرئيسي هو تصوّر أنّ النساء العراقيات ضحايا صامتات لا حول لهن ولا قوة في مجتمع يسيطر عليه الذكور، وأنّهن في حاجة ماسة إلى التحرير السياسي والجنسي. وهو تصوّر يتلاءم تماماً مع الصورة العامة المرسومة للشعب العراقي كضحية سلبية سوف «يرحّب باحتلال بلده بالورود والحلوى»[٢]. لقد خلطت الولايات المتحدة بين حاجة شعب إلى التخلّص من نظام جائر والترحيب بنظام استعماري جديد. أما ادعاءات الإدارة الأمريكية عن «حقوق المرأة»، فتراها غالبية النساء العراقيات كخط الإمداد الثاني للسياسة الاستعمارية الأمريكية وهي، بارتباطها هذا، مضرة بالمنظمات غير الحكومية، وخصوصاً المنظمات النسوية، لتعيق احتمال قيام منظمات نسائية مستقلة وحقيقية نابعة من حاجة المجتمع الماسة إليها.

كان تأليف هذا الكتاب صعباً لسببين. أولاً، لأنه يتناول قرناً تقريباً من نضال المرأة العراقية من أجل المساواة القانونية والاجتماعية، ومحاولاتها التغلب على الكثير من العوائق. وقد تقطع مسار هذا النضال بفعل الاضطرابات السياسية والحربين والعقوبات والاحتلال الأنغلو ـ أمريكي الذي بدأ في سنة ٢٠٠٣. حيث أطلقت الولايات المتحدة على الاحتلال اسم «التحرير» فيما ضخّمت مزاعمها عن دعمها «لتمكين النساء». في الواقع، في العراق الآن مليشيات طائفية تنتمي إلى العصور الوسطى ترعاها أمريكا وتحمل أفكاراً همجية عن دور المرأة في المجتمع. ولعل الأدهى من كل الهجمات السابقة على نضال النساء، أنّ الاحتلال قد دفع العراقيات إلى الوراء وفي حالة فظيعة من التردي.

ثانياً، استوجبت كتابة هذا الكتاب محاولة أن أفهم معنى انخراطي أربعين عاماً في الحياة السياسية والفكرية العراقية في داخل العراق وفي المنفى. واقتضى ذلك الاحتفاء بتاريخ العراق وثقافته وتراثه، وفي الوقت نفسه تسجيل الأحداث

---

(٢) كما قال كنعان مكية للرئيس بوش في لقاء في البيت الأبيض. ومكية هو رئيس مركز التوثيق والدراسات العراقية، جامعة هارفرد، وأستاذ في جامعة براندیز (Brandeis). انظر: «Bush Discusses Plans for Iraq,» *Middle East Economic Survey* (MEES) (10 February 2003), <http://www.mees.com/postedarticles/politics/ArabPressReview/a46n06c02.htm>.

المهمّة المتنوّعة والمكدِّرة التي صاغت تاريخ العراق الحديث. وغالباً ما طغت على فعل الكتابة أخبار وحشية الاحتلال، وما يرافقه من سفك للدماء والعنف اليومي؛ وقاطعته المكالمات الهاتفية من الوطن عن النزوح والخطف ومقتل الأقارب والأصدقاء. وفي بعض الأحيان، كنت أُضطر إلى التوقف عن الكتابة لأغسل عينيّ، دون أن أجرؤ على النظر في المرآة خشية أن أرى دماء.

ثمة تحد آخر في كتابة تاريخ قصير للعراق وهو عدم العودة إلى التاريخ القديم. (في هذه الحالة، لن يكون المشروع موجزاً ولن يصدرً في الوقت المناسب). فمعظم العراقيين، صغاراً وكباراً، يتحدثون عن أحداث تاريخية وقعت قبل ألف عام كما لو أنها وقعت يوم أمس. وهذا الميل الثقافي إلى اللجوء إلى الماضي البعيد يغدو ملحاً إبان الأزمات الوطنية، وتحت تهديد الهيمنة الثقافية الأجنبية والحكم الاستعماري. ومن المستحيل تقريباً ألاّ نرى التاريخ كموروث حي ومكوّن لهويتنا الوطنية عندما نشبُّ بين آلاف المواقع الأثرية، في بلد يصفه العلماء عادة بأنه مهد الحضارة. حيث كانت واحدة من رحلاتنا المدرسية المعتادة، كأطفال، زيارة بابل (٢٤٠٠ ق. م.) في محافظة بابل الحاضرة، على الفرات على بعد خمسين ميلاً جنوبي بغداد؛ ونقوم بنزهاتنا العائلية قرب قوس المدائن (القرن الثاني ق. م.) في طاق كسرى، شرقي دجلة، على مسافة خمسة عشر ميلاً جنوبي بغداد، أو في مدينة الحضر (القرن الثاني ق. م.)، عاصمة المملكة العربية الأولى قبل الإسلام في محافظة نينوى الشمالية.

بالنسبة إلى معظم العراقيين، هناك مستويان لفهم أنفسنا تاريخياً. الأول من خلال التاريخ القديم، مقرين باستمراريتنا منذ زمن السومريين والأكاديين. ويرتبط الثاني بالإسلام، ويتمحور حول بغداد وصعود الحكم العباسي في سنة ٧٥٠. فبغداد تستحضر الإبداع في الأدب والموسيقى والعلم والجغرافيا والفلسفة والعلوم الدينية والهندسة ـ التنوّع الكامل للثقافات التي ازدهرت في الإمبراطوريات الإسلامية المتعاقبة. وقد كانت عندما بناها أبو جعفر المنصور في سنة ٧٦٢ مدينة مستديرة احتضنت الحضارة الإسلامية وطوّرتها وساهم فيها غير العرب وغير المسلمين مساهمة تامة.

الفصل الأول

الانتقـال إلـى الحداثـة

ـ ١ ـ

لفهم التغيّرات المعاصرة التي طرأت على المجتمع المدني في العراق، بما في ذلك مكانة المرأة فيه، يتعين النظر إلى نهوض الدولة الحديثة والبنى التأسيسية للحكومة، والاقتصاد، والشؤون السياسية التي تقع ضمنها الأحداث الحالية فيها. ولهذه البنى نفسها جذور عميقة في التأثيرات الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والثقافية التي ترجع قروناً إلى الوراء.

لقد وفرت القرون الأربعة من الحكم العثماني، من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر، سلطة موحِّدة في الشرق الأوسط. وعنى ذلك في العراق وجود بنية شاملة لعشرات الإقطاعيات الريفية والأسر الحاكمة في المناطق، والحفاظ على أنظمة الري، والتعامل مع القبائل المتنازعة. ومع أنّها لم تفلح في التخلص من القبلية، فإنّها قللت من أشنع آثارها وأعنفها. وقد احترم العثمانيون المجتمع التقليدي والتراث والثقافة العربيين، إلا في العقود الأخيرة من حكمهم. واعتمدوا مذهباً فقهياً إسلامياً معتدلاً، وكان نظامهم الاجتماعي المتعلق بالأسرة وقوانين الإرث انعطافاً متعدد الثقافات ما زال مناسباً إلى يومنا هذا. وسمح هذا النظام المتميز بالاستقلالية الثقافية على مستوى العائلة والملكية الشخصية بالتعايش السلمي بين الأديان والطوائف التقليدية، المختلطة معاً، غالباً، في الأحياء والمدن[1].

غير أن أسلوب الاستعمار البريطاني كان مختلفاً. فقد بدأ البريطانيون احتلال العراق سنة ١٩١٧ خلال الحرب العالمية الأولى. وأنشأوا الدولة الحالية في أعقاب

(١) استمر الحكم العثماني في الاعتماد في شرعيته على الخلافة الإسلامية بوصفها السبيل الوحيد للحفاظ على الوحدة الإسلامية. وكان معنى هذا التمسك بمبادىء الخلفاء الراشدين الأربعة، الذين أعقبوا النبي محمداً في المدينة في القرن السابع، بما فيها واجب حماية حقوق المسيحيين واليهود والصابئة وغيرهم من أصحاب الديانات الموحِّدة.

ما يعرف بسقوط بغداد الثاني، حيث وقع السقوط الأول تحت الاجتياح المغولي سنة ١٢٥٨ (ما زال ذلك السقوط ومصير أولئك الذين تعاونوا مع المغول مسألة مثيرة للعواطف في العالم العربي والإسلامي بأسره). ورغم أن السقوط سنة ١٩١٧ لم يواكبه تدمير واسع للمدينة على غرار ما جرى في السقوط الأول، فقد كان محنة عظيمة للعراقيين[٢].

بُعيد احتلال القوات البريطانية لبغداد، أصدر الجنرال السير ستانلي مود (Stanly Maude) الإعلان التالي: «تهدف عملياتنا العسكرية إلى دحر العدو وإخراجه من هذه الأراضي. ولإتمام هذه المهمة، كُلّفت ببسط السيطرة المطلقة والتامة على جميع المناطق التي تعمل فيها القوات البريطانية، إلا أن جيوشنا لا تدخل مدنكم وأراضيكم كفاتحين أو أعداء، وإنما كمحررين»[٣]. لكن الواقع كان مختلفاً، على الرغم من أن البريطانيين والفرنسيين أصدروا في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٨ إعلاناً ينص على أن غايتهم هي «التحرير الكامل والنهائي للشعوب التي اضطهدها الأتراك ردحاً طويلاً من الزمن، وإقامة حكومات وإدارات وطنية تستمد سلطتها من ممارسة السكان المحليين المبادرة والخيار بصورة حرة»، حيث تقاسم البريطانيون والفرنسيون الأراضي العربية في الإمبراطورية العثمانية وفقاً لمصالحهم الاستراتيجية، فاتبعوا سياسة فرّق تسد في الأقاليم الإثنية والجغرافية كي يمنعوا أساساً نشوء كيانات جديدة قوية. وألحق الحكم الاستعماري وتقسيم الأراضي العربية الأذى بالنخب العربية التي كانت لا تزال غير متماسكة، والتي انقلب بعضها على العثمانيين بصورة ساذجة مع أنهم إخوة في الدين، وساعد البريطانيون خلال الحرب عن طريق إشعال ثورة ١٩١٦ في الحجاز. وسرعان ما

---

(٢) عبّر الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي (١٨٦٣ ـ ١٩٣٦) عن الألم بقوله:

أنا واحدٌ ممن تنغّص عيشهم ... فمضوا يجوبون البلاد وساحوا

وعلى الأديب الحر يثقل أن يرى ... أوطانه يجتاحها المجتاح

أنا لست من خلط المزاح بجده ... فالجدّ جدّ والمزاح مزاح

كذب الذين قد ادعوا بجهالةٍ ... إن العراق إلى العصا يرتاح

بل إنه متألم في ظهره ... مما أتاه الجالدون جراح

انظر: «قصيدة بغداد،» في: جميل صدقي الزهاوي، **ديوان جميل صدقي الزهاوي** (بيروت: دار العودة، ١٩٧٢)، ص ٣٩٧.

(٣) أصدر الجنرال السير ستانلي مود الإعلان إلى أهل بغداد في ١٩ آذار/ مارس ١٩١٧. انظر: <http:// www.harpers.org/ProclamationBaghdad.html>.

اتضح أن الوعد بدولة عربية حرة موحَّدة وباستقلال للأكراد سيجري نكثه. وأدى الصراع إلى التضامن بين النخب العراقية والشعب بصورة عامة، بما في ذلك زعماء القبائل وعلماء الدين. وتناول الإعلام البريطاني ما شعرت به النخب من خيبة أمل وغضب في وقت باكر، في سنة ١٩١٩. فقد كتب مراسل لصحيفة **التايمز** في ٢٣ أيلول/سبتمبر ١٩١٩: «أعتقد أن كثيراً من الشعب الإنكليزي تصوّر أنّ السكان المحليين في بلاد ما بين النهرين سيرحبون بنا لأننا أنقذناهم من الأتراك، وأن البلد لا يحتاج إلا إلى التطوير ليسدد النفقات الباهظة التي دفعها الإنكليز من أرواحهم وأموالهم. لكن أياً من هاتين الفكرتين المثاليتين لن تصمد إزاء التمحيص... فمن وجهة النظر السياسية نحن نطلب من العربي أن يقايض كبرياءه واستقلاله بقليل من الحضارة الغربية، ولا بد أن تمتص نفقات الإدارة إلى حد بعيد أرباح هذه المقايضة»(٤).

ثار الأكراد سنة ١٩١٩ لكن القوة الإمبريالية، نفسها، التي وعدتهم بالاستقلال أخمدت ثورتهم. وأبلغ ونستون تشرشل وزارة الحربية (مشيراً إلى الأكراد والأفغان): «لا أفهم هذا التخوف من استخدام الغاز. إني أؤيد بقوة استخدام الغاز ضد القبائل غير المتحضرة»(٥).

في ٢٨ نيسان/أبريل ١٩٢٠، منحت عصبة الأمم بريطانيا انتداباً على العراق لإسباغ الشرعية على احتلالها للبلد. وأدت ثورة ١٩٢٠ التي انبثقت إثر ذلك إلى تسوية مُنح العراق بواسطتها، كما هو الحال اليوم، «الاستقلال تحت الانتداب». أما العراقيون، فيشيرون إلى ثورة ١٩٢٠ باسم «الثورة الكبرى» التي وحدت العراقيين كافة، بصرف النظر عن الدين أو الإثنية أو الجنس، ضد الاحتلال والحكم الاستعماري.

استعاد البريطانيون السيطرة بصعوبة كبيرة. أولاً، استخدموا قاذفات سلاح الجو الملكي ضد المدنيين والمقاتلين، ثم اضطروا إلى طلب تعزيزات من الهند وإيران. وقُدر عدد القتلى من العراقيين بعشرة آلاف قتيل.

وتعمّد البريطانيون تعكير صفو المياه الإثنية برسم ترتيبات حدودية مع إيران

---

(٤) Robert Fisk, «Iraq, 1917,» *Independent*, 17/6/2004.

(٥) انظر: «Winston Churchill's Secret Poison Gas Memo,» <http://www.globalresearch.ca/articles/CHU407A.html>, and Martin Gilbert, comp., *Winston S. Churchill* (London: Heinemann, 1976), vol. 4, pt. 1.

تقسّم المناطق الإثنية واللغوية، بما فيها أجزاء من المناطق الكردية رغم الوعود بالاستقلال. وحاولوا، أيضاً، استحداث بصرة طائفية مستقلة لكنهم فشلوا.

في ٢٢ آب/أغسطس ١٩٢٠، كتب ت. إي. لورنس مقالة عن العراق بالإمكان، ببساطة شديدة، التوهم بأنها قد كتبت كتعليق في صحف اليوم: «اقتيد الإنكليز في بلاد ما بين النهرين إلى شَرَك من الصعب الخروج منه بكرامة وشرف. وقد تم اقتيادهم إليه عن طريق إخفاء المعلومات عنهم. والبلاغات الرسمية الصادرة من بغداد تأتي متأخرة عن موعدها وغير صادقة ومجتزأة. والأمور أسوأ كثيراً مما يقال لنا، وإدارتنا أكثر دموية وانعدام كفاءة مما يعرفه عامة الشعب. وذلك عار على سجلنا الإمبراطوري، وربما سيتعقد الوضع مستقبلاً إلى حد يستعصي فيه على أي علاج عادي. ونحن اليوم غير بعيدين عن الكارثة»[٦].

في أعقاب ثورة ١٩٢٠، استُبدل الاحتلال بحكومة عراقية مؤقتة، «يساعدها» مستشارون بريطانيون تحت سلطة مفوض سام للعراق. غير أن المشكلات التي تلت كانت هائلة. واضطر المفوض السامي إلى تدبير حل لتقليص الخسائر في الأرواح في صفوف البريطانيين والتكاليف العالية المترتبة على الإمبراطورية. ونفذ ذلك بفرض «حاكم ملائم». لم يكن العثور على شخص لتنصيبه «حاكماً» أمراً سهلاً، لكن رأي البريطانيين استقر أخيراً على الأمير فيصل، ابن الشريف حسين. بالنسبة إلى الحكومة البريطانية، كانت السيطرة على العراق ونفطه ضرورة استراتيجية. لكن حركات التحرير الوطني العراقية دعت إلى «الاستقلال التام»، الذي رآه البريطانيون «شعاراً للمتطرفين هنا» و«عبارة حمقاء أضافها متطرفو بغداد، دون سواهم، إلى أوراق الاستفتاء: لا تخضعوا لسيطرة أحد»[٧]. وكان أي احتجاج ضد الملكية التي فرضها البريطانيون يُعتبر من عمل المتطرفين.

كانت العشرينيات السنوات التكوينية لجيل اليوم في الحكومة والمقاومة. وكثير من أسماء عائلات العشرينيات يظهر في وسائل الإعلام الآن[٨].

---

(٦) T. E. Lawrence, «A Report on Mesopotamia,» *Sunday Times*, 22/8/1920, <http:// www.globalpolicy.org/security/issues/iraq/history/1920arabia.htm>.

(٧) «The Letters: [21 August 1921],» *Gertrude Bell Archive*, <http://www.gerty.ncl.ac.uk/letters/ l1447.htm>.

(٨) في ٢١ آب/أغسطس ١٩٢١، كتبت غرترود بل، سكرتيرة المفوض السامي للشؤون الشرقية، إلى أبيها عن نقل السيادة إلى العراقيين: «إن مزاحم الباججي (الشخص الذي ألقى كلمة بالإنكليزية في حفلة الشاي =

إن كثيراً من العراقيين يرون الاحتلال الذي قادته الولايات المتحدة سنة ٢٠٠٣ مماثلاً عملياً وعاطفياً للاحتلال البريطاني للعراق سنة ١٩١٧. وقد اختار المتعاونون العراقيون مع الحاكم الأمريكي بول بريمر ٣٠ حزيران/ يونيو، تاريخ المعركة الأولى في ثورة ١٩٢٠، لإعلان مجلس الحكم المؤقت. ولجأت الولايات المتحدة إلى العشرينيات لاستخلاص الدروس منها كلما سارت الأحداث على نحو لم تتوقعه هي وحلفاؤها. واعترف رئيس مكتب الشؤون القبلية في سلطة الاحتلال بأنه كان يعتمد في محاولاته لفهم السياسة المحلية على تقرير بريطاني يعود تاريخه إلى سنة ١٩١٨[٩].

ـ ٢ ـ

كان نشوء حركة المرأة العراقية جزءاً لا يتجزأ من بناء هوية العراق الحديثة، التي أخذت تتشكل فيما البلد لا يزال تحت الحكم العثماني واستمرت فيما كانت تقاتل الاستعمار البريطاني. وكان إصلاحيون مسلمون، إلى جانب مفكرين بينهم ماركسيون أوائل وشعراء، يغامرون بسلوك طريق جديدة. كان يحاولون توسيع حدود التعليم والمعرفة للتغلب على الخوف من الغرب وطرق التفكير الأجنبية الأخرى. ودعا بعض المفكرين إلى تعليم المرأة لتمكينها من المشاركة في بناء الأمة؛ وحاول آخرون تكييف طرق التفكير التقليدية بالدعوة إلى تحرير أمهات أجيال المستقبل كي يعلّمن أطفالهن ويحرّرنهم من ربقة الجهل.

على امتداد التاريخ، كان الشعر هو الفن الأدبي السائد في العراق، والأداة المؤثرة لنقل الرسائل السياسية. وقد تمتع الشعراء، غالباً، بمكانة مرموقة كناطقين باسم قبائلهم أو أمرائهم أو سلاطينهم أو حكامهم في العصر الحديث. لذا لفهم التغيّرات السياسية والاجتماعية في العراق، وحركة تحرير المرأة على وجه الخصوص، لا بد من النظر إلى الدور الذي أداه الشعر في شكليه الشفوي

= التي أقمناها في البصرة) ومحام آخر لا تعرفه، رؤوف بك جادرجي، هما من أصدقائي، وكان الأكثر روعة أحد شيوخ شمر الشمالية، عجيل الياور؛ رأيته سنة ١٩١٧ حين وافانا». وفي رسالة بعثت بها إلى أبيها في ٢٠ تموز/ يوليو ١٩٢١، أشارت إلى «السيد محمد الصدر . . . وهو عالم طويل القامة ذو لحية سوداء وتعابير تنذر بالشر . . . حاولنا اعتقاله في بداية آب/ أغسطس لكننا لم نفلح. وقد فر من بغداد وجاب البلد كشعلة حرب محرضاً القبائل». والمعروف أن أحفاد الباججي والجادرجي وياور قد تم تعيينهم أعضاء في مجلس الحكم المؤقت الذي أسسه بريمر، بينما قاد حفيد الصدر حركة شعبية ضد الاحتلال واستطاع الإفلات من الاعتقال أيضاً.

(٩) Roger D. Hodge, «Weekly Review,» *Harper's Magazine* (27 January 2004), <http://www.harpers.org/WeeklyReview2004-01-27.html#20040126-150584459206>.

والمكتوب على السواء. وقد استخدمت أجيال من النساء العراقيات التقليد الشفوي من الشعر أداة تعليمية مكملة للقرآن في تعليم أطفالهن التاريخ والأخلاق والمسؤولية. وأنشدت النساء الشعر خلال ثورة ١٩٢٠ لإثارة حماسة المقاتلين ضد الاحتلال البريطاني. وليس من المصادفة في شيء أن الدعوات الأولى لتحرير المرأة العراقية صدرت عن شعراء، من النساء والرجال على حد سواء. كان الشعراء أكثر مجازفة؛ فقد دعوا النساء إلى حرق خُمرهن (التي تغطي وجوههن) وعباءاتهن (اللباس العراقي التقليدي)[١٠]. لكن المحافظين، ومنهم النساء، كانوا مستعدين للدفاع عن التقليد كرمز للشرف.

من الناحيتين الاجتماعية والثقافية، كان الشعراء والكتَّاب والمفكرون يعبرون عن أفكار جديدة للتغيير والبحث عن هوية وطنية. وكان من مقولاتهم الرئيسية أنه ينبغي لنضال التحرير الوطني أن يمنح النساء حقوقهن. ففي سنه ١٨٩٩، كان المحامي المصري قاسم أمين أول من دعا صراحة إلى تحرير المرأة في كتابه **تحرير المرأة**. وقد رأى، على غرار معظم الرواد، بأن تحرير المرأة واجب وطني يعود بالفائدة على مصر كلها، لا نسائها فحسب. وكتب قائلاً: «يؤكد الدليل التاريخي ويظهر أن مكانة المرأة مرتبطة على نحو لا ينفصم بمكانة الأمة».

انتقد أمين بعض الممارسات السائدة في مصر والمجتمعات الإسلامية الأخرى تحت الحكم العثماني آنذاك، مثل النقاب وعزل النساء، التي وصفها بأنها ليست من الإسلام في شيء، أو مناقضة لروح الإسلام الحقيقية. وبهذا المزيج من الحس الوطني وإعادة تفسير الإسلام، وضع الأساس للإصلاحيين الذين جاؤوا من بعده وانتقدوا مثل تلك الممارسات ضد المرأة في العالم الإسلامي والعربي. كما إنه أسّس لغة مقبولة للثورة استعملها كثيرون من المناصرين العرب والمسلمين للحركة النسوية في فترة ما بعد الاستعمار.

تزعم الرواية الرسمية لتاريخ حركة المرأة في العراق أن الرجال كانوا في طليعة المدافعين عن المرأة، رابطة بذلك الحركة بحركة المرأة العربية الباكرة، وخصوصاً في مصر وسورية ولبنان وتونس. غير أن التاريخ المدون غالباً ما يتجاهل الكثير من جوانب إنجازات المرأة التي كان يعبَّر عنها شفوياً. وكان الشعر

(١٠) العباءة يرتديها الرجال والنساء، وفي حين يضع الرجل العباءة على كتفيه، فإن المرأة تضعها على رأسها.

والأغاني والحكايات الشعبية وأغنيات الأطفال غير مسجلة في كثير من الأحيان، وبالتالي غير معروفة ومتجاهلة. كان هناك عشرون شاعرة على الأقل ناشطات في ثورة ١٩٢٠ ضد الاحتلال البريطاني[١١]. وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، بلغ الرجال والنساء العراقيون تلك اللحظة التاريخية التي كان التغيير الاجتماعي فيها وشيكاً، وإن كان علينا أن نؤكد أنه لولا توق النساء الحقيقي إلى تغيير وضعهن، لما كان هناك حركة تحرير للمرأة.

كان الشاعر جميل صدقي الزهاوي (١٨٦٣ ـ ١٩٣٦) يهتم بالعلوم والفلسفة. وكان أول من دعا إلى تعليم المرأة وإزالة النقاب في سنة ١٩٠٤، وفي سنة ١٩٢٣ ساعد أخته أسماء الزهاوي على إصدار **ليلى**، أول مجلة نسائية في العراق. فعاداه الكثيرون وتعرض للتهديد مرات عديدة[١٢]. أما الشاعر والصحافي وعضو البرلمان معروف الرصافي (١٨٧٥ ـ ١٩٤٥) فقد كتب كثيراً عن عذابات الشعب العراقي وكفاحه في سبيل الاستقلال.

أحدث الشاعران ثورة في الخطاب العام عن قضايا المرأة، وأبرزا بشكل خاص حق المرأة في التعليم والعمل واختيار الزوج، وقادا ثورة على ما أسمياه التقاليد والعادات السيئة. وحرصا على عدم لوم الدين، بل انتقدا التقاليد على الممارسات التمييزية. وكثيراً ما قدما النساء في التاريخ الإسلامي كنماذج تحتذى في الشجاعة والقيادة في المجتمع. واعتبرا النقاب والعباءة علامتي تأخر غير لائقتين بالنساء المسلمات. ونظم الزهاوي عدة قصائد يدعو فيها النساء إلى التخلص من «أكفانهن السوداء»، وتمزيقها وحرقها سواء كانت نقباً أم عباءات. وعزا الرصافي تأخر المرأة الشرقية إلى ارتدائها النقاب وافتقارها إلى التعليم.

وكان مما منحهما صدقية في إثارة قضايا حساسة أنهما يتحدّران من عائلة محافظة متدينة وتحظى باحترام كبير، مع أن هذا الأمر لم يمنع بعض المحافظين من تهديدهما بالقتل[١٣].

وقد سعى كلاهما بالدعوة إلى الإصلاحات الاجتماعية ـ الدينية وإلى تحرير

---

(١١) فريال غزول، «المرأة العراقية أديبةً في القرن العشرين،» في: **ذاكرة للمستقبل: موسوعة الكاتبة العربية [١٨٧٣ ـ ١٩٩٩]**، ٤ مج (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة؛ مؤسسة نور لدراسات وأبحاث المرأة العربية، ٢٠٠٤)، مج ٣: **العراق وفلسطين والأردن والمغرب العربي**، ص ١٠.

(١٢) أحمد فياض المفرجي، **المرأة في الشعر العراقي الحديث** (بغداد: مطبعة الجامعة، ١٩٥٨).

(١٣) كان الزهاوي من عائلة كردية متدينة ومقيمة في بغداد؛ وكان أبوه مفتي بغداد.

المجتمع ككل، لا تحرير النساء فقط. وجاهر الرصافي، على نحو خاص، بمعارضة الاحتلال البريطاني والحكم الملكي الخاضع للسيطرة البريطانية، وربط بين الحاجة إلى تحرير المرأة والمجتمع والحاجة إلى التحرّر من الهيمنة الإمبريالية. ونتيجة لذلك وصمه النظام الملكي بالشيوعية.

تُعتبر أم نزار (١٩٠٨ ـ ١٩٥٣) رائدة في الدعوة إلى تحرير المرأة، وترسيخ الهوية والاعتزاز بالقومية العربية، ومحاربة الاستعمار والظلم. اسمها الحقيقي سلمى عبد الرزاق. وقد اختارت أن تنشر شعرها بكنيتها أم نزار (نزار هو أكبر أولادها السبعة)، حيث كانت العادة ولا تزال تكنية الأمهات أو الآباء بأسماء الأبناء البكور، بدافع الاحترام (أما ابنتها نازك الملائكة، التي أصبحت من أهم الشاعرات والناقدات في العالم العربي، فقد اختارت خلاف ما اختارته أمها).

نُشرت أُولى قصائد أم نزار في نيسان/أبريل ١٩٣٦. فقد أصرّ زوجها صادق الملائكة، وهو شاعر ومدرس للغة العربية ومحرر موسوعة من عشرين مجلداً في القواعد والأدب، على إرسال القصيدة إلى صحيفة **الصبح** البغدادية. وكانت أم نزار قد نظمت القصيدة في ذكرى الزهاوي ودعمه تحرير المرأة. نُشرت القصيدة على الفور ولقيت استحساناً واسعاً. وقامت ابنتها بإصدار ديوانها الوحيد، **أنشودة المجد** بعد اثني عشر عاماً من وفاتها.

تناول شعر أم نزار الهوية القومية العربية، واعتزازها بتاريخها، والنضال ضد احتلال فلسطين، وهي موضوعات طغت على شعر نازك أيضاً. وفي دعوتها إلى تحرير المرأة العراقية، حثّت النساء على استعادة دورهن في المجتمع بتذكيرهن أولاً بتاريخهن المجيد وبما حققنه في ميادين العلم والأدب والحرب. ثانياً، قارنت بين ماضيها وخضوعها في الوقت الحاضر، حياة فُرضت عليها فرضاً. ثالثاً، دعت النساء إلى كسر قيود التقاليد، والنهوض من سباتهن الطويل، وحذّرتهن من إضاعة أوقاتهن في أشراك الاستهلاك السخيفة، حاثة إياهن على الدرس والكد.

شكّل نشوء اليسار مصدراً آخر للضغط من أجل تحرير المرأة. فقد تأثّر الشرق الأوسط بأكمله بثورة أكتوبر ١٩١٧، التي أيّدت حق الأمم في تقرير المصير وناصرت أيضاً حقوق المرأة والبديل الاشتراكي. وكان حسين الرحال أول الماركسيين المؤيدين للحركة النسوية في العراق، وهو طالب في كلية الحقوق ببغداد. وكان قد درس في ثانوية في برلين في نهاية الحرب العالمية الأولى وسافر

إلى الهند. وقد تأثر بصعود الحركة الشيوعية، وشكل في سنة ١٩٢٤ حلقة الدراسة الماركسية الأولى في العراق. وأصدرت الحلقة **الصحيفة** التي ظهرت من سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٢٥، ثم ظهرت لمدة وجيزة سنة ١٩٢٧، ودعت إلى تحرير المرأة العراقية من أصفادها القديمة. لكن سرعان ما وجدت الصحيفة نفسها في مواجهة قوة متغلغلة في كل بنية من بنى المجتمع بسبب مهاجمتها التقاليد في هذا المجال. كان ذلك، طبعاً، الدين الإسلامي بحسب تفسير التقليديين وقتذاك. بيد أن الصحيفة لم ترتدع، فمضت في التشكيك في الأسس التي يقوم عليها الإسلام. وشكل ذلك تجاوزاً على قدرة التقليديين، المسيطرين على الرأي العام، على التحمل فأُغلقت **الصحيفة**[١٤].

فيما كان الرواد منخرطين في المجادلات العامة بشأن مكانة المرأة، كانت النساء العراقيات يتحركن بوتيرة خاصة بهن، بخطوات بطيئة لكن واثقة، ويمهّدن الطريق لدخول الميدان العام. ويمكن رؤية هذا النضال المبكر في العراق في المدارس العامة والإعلام والمنظمات النسائية الباكرة، وفي الحياة السياسية بمقدار أقل.

في سنة ١٨٩٩، تأسست أولى المدارس الابتدائية والثانوية العامة للبنات، فالتحقت بها تسعون بنتاً. ومنذ ذلك التاريخ حتى أواخر خمسينيات القرن العشرين، جرى فتح مدارس رسمية إلى جانب المُلا والكُتَّاب (صفوف دينية ملحقة بالمسجد في أغلب الأحيان)، وخصوصاً في الأرياف.

يجب ألاَّ نلقي اللوم على التقاليد والدين وحدهما على عدم حماسة الأُسر في إرسال أولادها، ولاسيما، البنات، إلى المدارس. فقد كانت هناك فرص قليلة للتعليم العام، ولم تكن المدارس متوافرة أو محتملة التكاليف. وكان الفقر والنقص في المدارس المشيدة تحت الاحتلال عاملين رئيسيين حالا دون تمكين الأُسر من تعليم أولادها.

فُتحت معظم المدارس في بغداد، بينما كانت معظم المدن والأقضية الأخرى بلا مدارس. وكان التعليم، وخصوصاً على المستويين الثانوي والجامعي، مقتصراً على النخب المدينية. وقد تلقى أولاد الأُسر الميسورة الذين ألحقهم أهاليهم

(١٤) Hanna Batatu, *The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq: A Study of Iraq's Old Landed and Commercial Classes and of its Communists, Ba'thists, and Free Officers*, Princeton Studies on the Near East (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1978), p. 393.

بمدارس خاصة أو إرساليات أو مدارس دينية (مدارس يهودية، مثلاً)[١٥] تعليماً أفضل ولذلك كانت أمامهم فرص أفضل للعمل في الدوائر الحكومية. وكان من النادر أن يستطيع تلاميذ المدارس الابتدائية مواصلة دراستهم.

وكما هو الحال في كل البلدان في العالم، كانت بنات وزوجات الطبقات العليا في المجتمع أول من يحظى بدخول الحياة العامة. وفي حالة النساء العراقيات، كانت بنات الضباط السابقين من الطبقة العثمانية الحاكمة في طليعة من تعلمن وتخرجن في جامعات رسمية. وأصبح الرجال والنساء الذين أُرسلوا للتعلم في أوروبا هم النخبة الجديدة. كان التعليم المدرسي في هذه الفترة (١٩١٤ ـ ١٩٣٩) محصوراً على الأغلب في الذين يستطيعون تحمّل تكاليفه[١٦]، أو يتمتعون ببعض المزايا الأخرى. لكنه كان مع ذلك محدوداً بفعل إحجام المجتمع عن إرسال الأولاد إلى المدارس (الصبيان، ومن باب أولى البنات)، التي تنفرهم من أُسرهم وتقاليدهم، وتردّد الحكام الأجانب في تعليم طبقة لا يمكن استيعابها في الخدمة الحكومية ويحتمل إذ ذاك أن تشكل معارضة.

يمكن النظر إلى «القبول» (بفتح القاف) أي التجمّعات المقتصرة على النساء في البيوت بمثابة الأساس الذي انبثقت منه المنظمات الخيرية النسائية في العراق. وكانت تلك التجمعات شائعة بين نساء الطبقة الوسطى، إذ توفّر لهن فرصة اللقاء، ومناقشة الأخبار، وتناول الطعام، وتبادل القيل والقال والآراء حول أحدث الأزياء ووصفات المأكولات، وتدبير الزيجات. كما كانت تقدم الدعم إلى النساء المحتاجات والأسر الفقيرة. وبحسب نوعية اهتمامات النساء المشاركات، كان «القبول» إما أساساً لحملة تقدمية أو لايزيد عن كونه نزهة اجتماعية. ولبثت هذه التجمعات معروفة في مدن العراق الرئيسية حتى أواخر سبعينيات القرن الماضي.

بدأت النساء العراقيات نشاطاتهن الاجتماعية العامة من خلال «جمعية يقظة المرأة»، التي أسستها في سنة ١٩٢٣ مجموعة من بنات المسؤولين والضباط

---

(١٥) تأسست أول مدرسة أليانس للصبيان اليهود في بغداد في كانون الأول/ ديسمبر ١٨٦٤، وضمّت ٤٣ تلميذاً، بينما فُتحت أول مدرسة أليانس للبنات سنة ١٨٩٣. انظر: فاضل البراك، **المدارس اليهودية والإيرانية في العراق: دراسة مقارنة**، ط ٢ (بغداد: الدار العربية، ١٩٨٥)، ص ٢٩.

(١٦) في سنة ١٩١٤، كانت المدارس الرسمية تضم ٦٠٠ فتاة و٣٧٨ صبياً، والمدارس الخاصة والدينية والأجنبية ٢٦٦٣ فتاة و٨٠٢٠ صبياً. انظر: وميض نظمي، **الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق**، ط ٢ (بغداد: المكتبة العالمية، ١٩٨٥)، ص ٨٥. وقد صدرت الطبعة الأولى عن مركز دراسات الوحدة العربية ضمن سلسلة أطروحات الدكتوراه؛ ٥، عام ١٩٨٤.

العثمانيين السابقين، بعضهن ينتمين إلى عائلات حضرية مرموقة[١٧]. وأنشئت «جمعية المرأة الكردية» سنة ١٩٢٨. وكانت المنظمات الخيرية التي أقامتها زوجات المسؤولين والوزراء ترمي إلى تأمين الحماية للأطفال، وخصوصاً الأيتام منهم. وتأسس الهلال الأحمر العراقي في منتصف الثلاثينيات. وقد مزجت تلك المنظمات عموماً بين التوعية والعمل الخيري وتعليم الحرف اليدوية مثل الخياطة والتطريز ومحاربة الأمية.

ساهم صحافيون وكتَّاب في النقاش الدائر حول مكانة المرأة وتعليمها؛ فأصدر رفائيل بطي صحيفة **الحرية** سنة ١٩٢٤. وقد عُنيت الصحيفة في الغالب بالأدب ولاسيما بالترجمات والشعر المرسل، كما اهتمت بدعم حقوق المرأة. واسترعت تغطيتها المتوازنة لقضايا المرأة اهتمام الناس وتعاطفهم.

في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢٩، نشرت صحيفة **البلاد**، «صفحة السيدات والبنات» التي كانت تظهر كل يوم سبت. وكانت من أولى الصحف التي تعاملت على نحو خاص مع قضايا المرأة اليومية وما تواجهه بسبب مطالبتها بحقوقها وحق التعليم. وقد ساهم عدد من الكاتبات في الصفحة بأسماء مستعارة. وفيما يلي مقتطف من إحدى المقالات المنشورة: «أيتها الأخت العزيزة، بماذا تفكرين الآن وغداً؟ كلميني. أما يكفيك هذا السبات العميق الذي أدى بك إلى دياجير الظلم والانحطاط؟ أما يكفيك هذا الخمول؟ آه. يكاد قلبي ينفطر من شدة هذه المصاعب. فانهضي وقومي للعمل تجاه وطنك المحبوب وانظري إلى بنات جارتك تركيا، فهي في كل وقت متحمسة للوطنية متسلحة بالعلم والإخلاص»[١٨].

أما المجلة النسائية الأولى **ليلى**، فقد صدرت في ١٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢٣. وكانت مجلة شهرية حررتها بولينا حسون على مدى عامين، أي إلى حين توقفها قسراً عن الصدور بسبب احتجاجات من محافظين لما كانت تنشره من كتابات لكثير من الكتَّاب والشعراء العراقيين والعرب عن مكانة المرأة وعن الأدب والفن والاقتصاد المنزلي[١٩].

---

(١٧) منهن أسماء الزهاوي (شقيقة الزهاوي) ونعمة سلطان حمودة وحسيبة جعفر وبولينا حسون، وزوجتا رئيس الوزراء نوري السعيد وجعفر العسكري. وقد واجهت الجمعية احتجاجات من المحافظين، وخصوصاً بعد إصدار **ليلى**، المجلة المدافعة عن تعليم النساء وحقهن في العمل.

(١٨) سامي رفائيل بطي، **صحافة العراق** (بغداد: الأديب، ١٩٨٥)، ج ١: **نتاج رفائيل بطي**.

(١٩) كان من المساهمين شعراء وصحافيون مثل الزهاوي والرصافي وسلمى صايغ ويوسف غنيمة وأنور شاوول.

ـ ٣ ـ

في سنة ١٩٣٢، أُعلن العراق دولة مستقلة وعضواً في عصبة الأمم، لكن فقط بعد توقيعه معاهدة جديدة سمحت للبريطانيين بالإبقاء على سلطتهم من خلال القواعد العسكرية والمستشارين والسيطرة على النفط، وكمنسقين للسياسة الخارجية على مدى السنوات الخمس والعشرين التالية. وكان على البريطانيين تدريب القوات العراقية وتزويدها بالأسلحة. وقد أيدت جماعات وأحزاب عراقية معينة البريطانيين في سياستهم، على أمل أن تحقق بمرور الزمن درجة أعلى من الحكم الذاتي. وكانت استراتيجية البريطانيين حماية مصالحهم من خلال عقد اتفاقات مع الحكومات المحلية، يحافظون من خلالها على السيطرة المطلقة من دون تحمل مسؤولية شؤون المناطق. فكان من الطبيعي اندلاع انتفاضة شعبية أخرى ضد نظام الحكم الملكي الجائر، الذي لم يتفهّم عمق مشاعر العراقيين المعارضة للاحتلال. وفي الأعوام التي تلت، أُعدم الكثير من قادة المعارضة وسُجن الآلاف. وجرى التلاعب بالانتخابات واستخدام القوة ضد التظاهرات الشعبية[٢٠].

كانت تكاليف المعيشة باهظة، والفقر متفشياً، والفساد شائعاً. وفي سنة ١٩٣٥، اعتُقل المئات من أفراد الأقلية اليزيدية، وشنق ستة منهم، وألقي الباقون في السجون. واستُخدم القصف بالقنابل والقوة العسكرية ضد الانتفاضات الشعبية. وتلت ذلك انقلابات عسكرية وانتفاضات شعبية، مطالبة كلها بإصلاحات اجتماعية وسياسية مهمة.

في سنة ١٩٤١، رفضت الحكومة العراقية السماح بمرور القوات البريطانية عبر الأراضي العراقية وأعلنت تأييدها لألمانيا في الحرب العالمية الثانية، وهما خطوتان أدتا إلى الحرب الأنغلو ـ عراقية وقيام قوات بريطانية بإعادة اجتياح العراق. وقد شاركت النساء في التظاهرات في سنة ١٩٤١ وسنة ١٩٤٨، للاحتجاج على توقيع اتفاقية ملزمة جديدة بين الحكم الملكي والحكومة البريطانية، وسقط في التظاهرات قتلى من المدنيين برصاص الشرطة. وكان من بين المتظاهرين

---

(٢٠) أطلق رجال الشرطة النار على المتظاهرين في السنوات ١٩٣٦، ١٩٤١ و١٩٤٨. وللاطلاع على جدول بالانتفاضات والانقلابات والثورات في العراق منذ الاحتلال البريطاني، انظر: Batatu, *The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq: A Study of Iraq's Old Landed and Commercial Classes and of its Communists, Ba'thists, and Free Officers*, pp. 467 and 545-557.

زكية شويلية، التي أصبحت الشهيدة الأولى. وقد لقبت بفتاة الجسر، لأنها قُتلت قرب أحد جسري بغداد. واعتُقلت امرأتان في عام ١٩٤٩ هما سعاد خيري وعميدة مصري وحُكم عليهما بالسجن المؤبد.

وفي انتفاضة الوثبة، في سنة ١٩٤٨، ضد معاهدة بورتسموث، سيطر جمهور غاضب على الشوارع[٢١]. وشاركت مئات من النسوة في التظاهرات، وأُلقي القبض على عدد كبير منهن. ثم جاءت انتفاضة ١٩٥٥ ضد حلف بغداد (معاهدة وقعها العراق وتركيا وبريطانيا وباكستان وإيران، للتعاون الاقتصادي والعسكري في ما بينها) وانتفاضة ١٩٥٦ دعماً لتأميم مصر قناة السويس. وفي أعقاب ذلك، أعلن الملك فيصل الثاني الأحكام العرفية وعلق البرلمان. وقد شهد العراق بين سنتي ١٩٢١ و١٩٥٨ تشكيل ثمانية وثلاثين حكومة، لم يدم بعضها سوى اثني عشر يوماً فقط. وكان وجود القوات البريطانية في العراق سنداً لنظام حكم طيع وفاسد إدارياً ومالياً.

انضم العراق إلى جامعة الدول العربية سنة ١٩٤٨ وشارك في الحرب العربية ـ الإسرائيلية الأولى. وقد هيمنت على المشهد السياسي والاجتماعي في معظم البلاد العربية والإسلامية، بما فيها العراق، قضية احتلال فلسطين ودور بريطانيا في إقامة إسرائيل، رغم أن ٩٠ بالمئة من السكان الأصليين كانوا عرباً، إلى جانب فشل الحكومات العربية في التصرف على نحو حاسم، وستستمر هذه القضية في احتلال المكانة الاولى على مدى أجيال مقبلة.

أصبحت قضية فلسطين، وكذلك ثورتي ١٩٢٠ و١٩٥٨، العوامل الثلاثة الأهم في تقرير هوية العراق الحديثة وصياغتها. وكانت كلها معنية بمحاربة الاحتلال.

على الصعيد الاجتماعي، غدا الحكم الملكي موضع نفور شعبي متزايد وعقبة كأداء أمام تقدم الاقتصاد العراقي ككل. وفي النهاية، لم يسعف نمو البلد الاقتصادي النظام الملكي؛ فقد كان اغترابه الأخلاقي عن الجماهير مهلكاً، ولم يعد في استطاعته الاعتماد على ولاء الموظفين أو الجيش أو الشرطة[٢٢]. ومع ذلك، شهدت الحقبة بدايات فرص تعليم البنات ودخول المرأة المجالات المهنية

---

(٢١) في سنة ١٩٤٩، وبعد إخماد «الوثبة»، تم بشكل علني إعدام فهد، قائد ومؤسس الحزب الشيوعي، وعضوين من أعضاء المكتب السياسي.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ٣٠ و٣٤.

والوظائف الحكومية. وقد تيسر ذلك كله بفعل نمو الدخل الناتج من النفط.

كانت السيطرة على نفط العراق ضرورة بالنسبة إلى الإمبراطورية البريطانية. في الواقع، كان النفط عاملاً استراتيجياً وراء الاهتمام الأوروبي بالعراق قبل نشوب الحرب العالمية الأولى، منذ أن ظهرت الرواسب السطحية في شمال البلد. وكان لدى العثمانيين خطط لتطويره بمساعدة من الألمان والبريطانيين، ومن ذلك مشروع لخط سكة حديد ألماني إلى الخليج العربي، مع حقوق للتنقيب على كلا جانبي الخط. وفي سنة ١٩٢٧، اكتشفت حقول نفط ضخمة قرب كركوك في الشمال، فتحقق قدر نسبي من التحسن الاقتصادي. وجرى منح حقوق التنقيب لشركة النفط العراقية (IPC)، وهي شركة نفط بريطانية رغم اسمها. بالنسبة إلى العراقيين، أصبح النفط في الثلاثينيات مهماً من الناحية الاقتصادية، وتحول بالتدريج إلى ساحة أخرى للنضال ضد الاستعمار. وارتفع دخل الدولة العراقية المباشر من النفط في الخمسينيات نتيجة لارتفاع إنتاج شركة النفط العراقية، وذلك في خطوة اتخذت لمعاقبة إيران على تجرؤها على تأميم نفطها في سنة ١٩٥٣. وفي سنة ١٩٥٢، منح اتفاق جديد مع بريطانيا العظمى شركة النفط العراقية سيطرة أوسع على نفط البلد، وحصة أكبر من عائدات النفط. وكانت هذه الشركة تدير شؤونها باستقلال تام عن سائر المجتمع والاقتصاد الوطني، وتحتفظ بسيطرة محكمة على المعرفة والمهارات المتعلقة بالنفط. ولم يكن لدى العراق، حتى ثورة ١٩٥٨، كلية جامعية في مجالات جيولوجيا النفط أو هندسته أو اقتصاده. ونتيجة لذلك، كان هناك مقت شديد تجاه الشركة أفضى، فيما بعد، إلى بروز شعارات مثل «نفط العرب للعرب»، وشكّل القوة الدافعة لحركة التأميم. وقادت مثل تلك المشاعر أيضاً إلى اتخاذ أنظمة الحكم في شبه الجزيرة العربية موقفاً انعزالياً ومتشدداً لحماية أنفسها، خوفاً من أن تطالبها بلاد عربية فقيرة بنصيب من ثرواتها باسم العروبة.

ارتفع عدد الطلاب المسجّلين في المدارس الرسمية، وأن بقيت المشكلة في نسبة الذكور إلى الإناث[٢٣]. فقد تأثّر تعليم البنات بشدّة بالفقر وعدم توفر المدارس، إلى جانب المواقف التقليدية من تعليم البنات والاعتقاد بأن الصبيان هم أرباب أسر المستقبل.

---

(٢٣) ارتفع عدد طلاب الكلية الرسمية من ٩٩ طالباً سنة ١٩٢٠ ـ ١٩٢٢ إلى ١٢١٨ طالباً سنة ١٩٤٠ ـ ١٩٤١ ثم إلى ٨٥٦٨ طالباً سنة ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩، وارتفع عدد طلاب المدارس الثانوية الرسمية من ٢٢٩ طالباً إلى ١٣٩٦٩ طالباً ثم إلى ٧٣٩١١ طالباً في السنوات نفسها. انظر: ليلى زيدان، **المرأة تحل مشاكلها** (بغداد: رابطة الدفاع عن حقوق المرأة، ١٩٥٩)، ص ٢٩.

وقد أشار تقرير لوزارة التعليم لسنة ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦ إلى وجود ١٧٤٨ مدرسة ابتدائية، منها ٢٦١ مدرسة للبنات، و١٥٢ مدرسة ثانوية، منها ٤٥ مدرسة للبنات. وكان عدد الطلاب في سنة ١٩٥٦ قد بلغ ٢٥٢٧٣٢ طالباً و٧٩٩٤٩ طالبة. وعلى مستوى التعليم العالي، كان هناك ٣٠٠٠ طالب و١٢٠٥ طالبات(٢٤).

كانت معظم المدرّسات، مثل أسلافهنّ في العشرينيات، بنات أو زوجات رؤساء وزراء أو وزراء أو زعماء أحزاب سياسية. لكن على الرغم من بطء عملية توسيع النظام المدرسي، فقد عجّل إدخال التعليم الحديث التغيير الاجتماعي ولاسيما بالنسبة إلى النساء؛ إذ زودهن بأدوات مكافحة الفقر وساعدهن في الارتقاء إلى مناصب ذات أهمية مهنية. وساعد، أولاً وقبل كل شيء، في تقليص الانقسام التقليدي بين العام والخاص، متيحاً للنساء مدخلاً إلى الحياة العامة.

الجدير بالذكر هنا أن النساء العراقيات، شأنهن شأن النساء في أي مجتمع تقليدي آخر، كنّ يتمتعن بحرية زيارة الأقارب والأنسباء والجيران. وبالنسبة إلى نساء من جيل والدتي، كانت زيارة الاماكن الدينية أو المزارات أو المساجد في المناسبات الدينية دائماً عذراً وجيهاً لارتداء عباءاتهن والخروج من البيت. غير أن الخروج يومياً من البيت إلى المدرسة كان أمراً مختلفاً. وقد أصبح التعليم النشاط الأبرز لتوطيد مكانة المرأة في الحياة العامة. ومع ذلك، كان أكثر من ستة أسباع السكان أميين عشية ثورة ١٩٥٨(٢٥).

كان التقدم في الرعاية الصحية محدوداً أيضاً. ففي سنة ١٩٥٠، كان هناك ٤٠٣ عيادات و٧١ مستشفى في العراق كله، منها ١١ مستشفى خاصاً. وكان في تلك المستشفيات ٤٩٠٠ سرير، منها ٢٠٠٠ سرير فقط للمرضى الإناث (أي سرير واحد لكل ١٣٨٣ امرأة). وكان في البلد بأسره ثلاثة مستشفيات توليد فقط، تضم ٢٠٠ سرير فحسب. وبلغ عدد الأطباء في العراق في السنة نفسها ٨١١ طبيباً مسجلاً، منهم ٤٤٤ طبيباً مقيمون في بغداد. بناء على هذه الحقائق، يسهل فهم سبب غضب الناس على الحكم الملكي، وخصوصاً بعد ازدياد عائدات النفط.

ارتبط لباس المرأة خارج البيت ارتباطاً وثيقاً بمسألة الذهاب إلى المدرسة. فقد

---

(٢٤) المصدر نفسه.

(٢٥) Batatu, Ibid., p. 34.

كان على الفتيات في سن الثالثة عشرة، وأقل في بعض الأحيان، أن يرتدين العباءة، لكن دون تغطية وجوههن عند خروجهن من البيت. ومع المدرسة جاء تزايد التفاعل الاجتماعي بين البنات والنساء من ديانات وخلفيات اجتماعية أخرى خارج أحيائهن المباشرة، وبمقارنتهن وضعهن مع ما كن يتعلمنه عن العالم الحديث، شعرن بما يشجعهن على الكفاح في سبيل التعليم والسفور، وتجاوزن الرجال حماسة في بعض الأحيان. وكان التعليم يسبق السفور في العادة، حيث كان الطلاب يعتبرون العباءة شكلاً من أشكال عبودية النساء[٢٦]. واستمرت الفتيات اللواتي التحقن بالمدارس الثانوية والجامعات في بغداد خلال الثلاثينيات والأربعينيات في ارتداء العباءة العراقية فوق الملابس الأوروبية.

وفقاً لبعض المصادر، كانت ماجدة الحيدري، زوجة رؤوف الجادرجي، أول امرأة عراقية تخلع العباءة في أوائل الثلاثينيات، مع أن مصادر أخرى تذكر أن المرأة الأولى كانت أمينة، شقيقة حسين الرحال[٢٧]. في أي حال، كانت المرأتان من عائلتين عريقتين وموسرتين. وبعد ذلك، تخلت بعضهن عن العباءة لدى دخولهن الجامعة، مع أن بعض النساء اخترن ارتداء العباءة، واضطرت أخريات إلى ارتدائه في ظل اعتراض ذويهن على خلعه. وقد تفاوتت التغييرات الاجتماعية بين مدينة وأخرى، وبين المدينة والمناطق الريفية، مع أن النساء في المناطق الريفية لم يكن يرتدين العباءة إذا اضطررن إلى العمل في الحقول.

في بغداد، كانت وتيرة التغيير أسرع من الوتيرة في مدن كبيرة أخرى، مثل الموصل أو البصرة، لكن يصح القول عموماً إن تحرير المرأة بقي كفكرة في أوساط القليل من النخب الحضرية الإصلاحية المثقفة. ولم يتحول إلى حركة حقيقية إلا بعد سنة ١٩٥٨.

كانت أمينة الرحال أول امرأة عراقية تتبوأ مركزاً قيادياً في حزب سياسي، إذ أصبحت عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، وبقيت كذلك بين سنتي

---

(٢٦) كانت أمينة الرحال طالبة حقوق مقيمة في بغداد وفي منطقة أغلبية سكانها من المسيحيين واليهود. وقد أخذت ترتدي مثلهم معطفاً طويلاً وقبعة. وشجعها أخوها على شراء سيارة وقيادتها في بغداد، وكان هذا تصرفاً نادراً ما عدا بين النساء الأوروبيات. انظر: سانحة أمين زكي، **ذكريات طبيبة عراقية** (لندن: دار الحكمة، ٢٠٠٥)، ص ١٧٢.

(٢٧) علي الوردي، **لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث**، ٦ ج (بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٩٧٧).

١٩٤١ و١٩٤٣. وقد دعا الحزب الشيوعي باستمرار إلى تحرير المرأة وتمكينها بما يتيح لها المشاركة في النضال الوطني. وفي سنة ١٩٣٨، حضرت أمينة أول مؤتمر لنساء الشرق في دمشق وساعدت في تأسيس الاتحاد النسائي العربي.

في سنة ١٩٤٤، تقدمت مجموعة من النساء بطلب ترخيص لتأليف اللجنة النسوية لمكافحة الفاشية[٢٨]. وكانت هذه المجموعة ترمي إلى رفع الوعي بين النساء بحقوقهن وإبراز أخطار الفاشية على الإنسانية. وقمن أيضاً بالاتصال بالعالم الخارجي، فشاركن في المؤتمر النسائي العالمي في كوبنهاغن سنة ١٩٤٦، وانضممن إلى الاتحاد النسائي الديمقراطي العالمي. وشهدت السنة نفسها طرد واعتقال حبيبة مشعل، إحدى طالبات كلية الهندسة، فغدت السجينة السياسية الأولى. وازداد عدد النساء اللواتي نشطن في مختلف الأحزاب والتنظيمات السياسية، وبحلول سنة ١٩٥٢، بلغ عدد السجينات السياسيات ١٥٠ امرأة[٢٩].

تأسست رابطة الدفاع عن حقوق المرأة في أيار/مايو ١٩٥٢، وشكلت في الواقع المنظمة النسائية للحزب الشيوعي. وغيرت الرابطة اسمها في سنة ١٩٥٩ إلى رابطة المرأة العراقية. وتم فتح فرع لرابطة الدفاع في المنطقة الكردية في سنة ١٩٥٣.

هناك حاجة إلى توثيق الجوانب غير الرسمية من نشاطات المرأة السياسية غير المعلنة، التي تتميّز بها المجتمعات التقليدية، وخصوصاً في فترات العنف السياسي والانتفاضات. ففي هذا المجال، نشطت النساء العراقيات في إيصال الرسائل، وتوزيع المنشورات، ونقل الأسلحة، وتخبئة أدوات الطباعة، ورعاية الجرحى، فضلاً عن إعالة أقاربهن وعائلاتهن، لاسيما خلال وجود الرجال في السجون. وقامت النساء أيضاً بتأسيس جمعية الهلال الأحمر وجمعية حماية الطفل والأم. وتبعت ذلك جهودُ أحزاب سياسية أخرى لإقامة منظمات نسائية مثل جمعية الأخوات المسلمات والاتحاد النسائي العراقي. وقد عكست هذه كلها المبدأ ذاته: إن مساهمة المرأة في النضال الوطني جنباً إلى جنب مع الرجل إنما يحررن أنفسهن أيضاً. وثبث ذلك في أعقاب ثورة ١٩٥٨ التي أنهت الحكم الملكي

---

(٢٨) من أعضائها نزيهة الديلمي وروز خدوري وفكتوريا نعمان وعفيفة البستاني وأمينة الرحال ونديمة وهبي، وكانت معظمهن عضوات في الحزب الشيوعي.

(٢٩) سعاد خيري، **المرأة العراقية كفاح وعطاء** (ستوكهولم: [د. ن.]، ١٩٩٨)، ص ٦. طبع بشكل خاص من قبل دار (All-Tryck).

المفروض من البريطانيين، حين استطاعت المنظمات النسائية في غضون سنتين أن تحقق ما فشلت في تحقيقه خلال السنوات الثلاثين من الاحتلال البريطاني: المساواة القانونية.

ـ ٤ ـ

في ١٤ تموز/يوليو ١٩٥٨، قامت مجموعة ضباط من الجيش العراقي ذات صلات بجبهة عريضة من الأحزاب السياسية بإطاحة الحكم الملكي الهاشمي، وأنهت أربعين سنة من الهيمنة البريطانية على العراق. وقد سيطر «الضباط الأحرار» على محطتي الإذاعة والتلفزيون في بغداد، وأعلنوا الجمهورية. وفي غضون ساعات غصت الشوارع بالجموع والمؤيدين المبتهجين. وبسط الضباط سيطرتهم على البلد من دون أن يواجهوا معارضة على وجه الإجمال، في ما لا يزال يشار إليه بثورة الرابع عشر من تموز. وكان انقلاب تموز/يوليو ١٩٥٢ العسكري في مصر قد سُمي ثورة من خلال تأييد جماهيري مماثل. كانت روح الثورة تملأ الأجواء في جميع أنحاء المنطقة في ذلك الوقت بعد أن بشر مؤتمر باندونغ لدول عدم الانحياز بطريق جديد لعالم ما بعد الاستعمار(٣٠).

أتاحت ثورة ١٤ تموز/يوليو للغالبية العظمى من أبناء الشعب العراقي الفرصة لبداية حياة جديدة. . إذ فتحت الأبواب التي كانت مغلقة في وجوههم. والطبقتان الفقيرة والمتوسطة نزلتا إلى الشوارع وسيرتا التظاهرات مهللتين ضد جميع رموز سياسة الاستعمار والمتعاونين معها.

إن الثورات، عموماً، أحداث قلما تتميز بحسن التنظيم أو التماسك، ولم تكن ثورة ١٤ تموز استثناء. فقد تلتها تغييرات إيجابية إلى جانب النزاعات والانقسامات والأحداث الدموية. ويتفق معظم العراقيين على أن إنجازاتها فاقت

(٣٠) في ١٨- ٢٤ نيسان/أبريل ١٩٥٥، أرسل ٢٩ بلداً آسيوياً وأفريقياً تمثل أكثر من نصف سكان العالم، وكانت في معظمها بلداناً مستقلة حديثاً، وفوداً إلى هذا المؤتمر الذي انعقد في باندونغ بإندونيسيا. وكان المؤتمر من تنظيم مصر وإندونيسيا وبورما وسيلان (سري لانكا) والهند وباكستان. وكانت الأهداف المعلنة الحث على التعاون الاقتصادي والثقافي الأفروآسيوي، والوقوف في وجه الاستعمار والاستعمار الجديد من جانب الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وأي دولة إمبريالية أخرى. وقد حضر رئيس الوزراء الصيني شو إن لاي لتهدئة مخاوف بعض الوفود المعادية للشيوعية من النيات الصينية. وتم بالإجماع تبني إعلان من عشر نقاط «لتعزيز السلام والتعاون العالميين»، واشتمل الإعلان أيضاً على مبادىء ميثاق الأمم المتحدة ومبادىء جواهر لال نهرو.

إخفاقاتها وأن التطورات الاجتماعية ـ الاقتصادية التي جرت في السنوات القليلة التي تلت الثورة تستحق الآلام التي صحبتها.

أُدخلت إصلاحات واسعة تحت قيادة الزعيم عبد الكريم قاسم (١٩١٤ ـ ١٩٦٣)، قائد الضباط الأحرار، وشريكه العقيد عبد السلام عارف. وأصبحت الثورة رمزاً للحظة وجيزة في تاريخ العراق الحديث وحّدت العراقيين كلهم ضد نظام حكم مكروه. بالنسبة إلى الكثير من العراقيين، رمز نظام قاسم، بإصلاحاته في ميادين التعليم والإسكان وإلغاء الإقطاع وتوزيع الأراضي الزراعية، إلى عصر ذهبي استُقبل بحماسة وتأييد شعبيين كبيرين. أيامها، كانت الأحلام كثيرة والتوقعات كبيرة. وأصبحت الشوارع تزهو بالتظاهرات والاحتفالات الجماهيرية المبتهجة.

في تلك الفترة، أيضاً، أصبحت السياسة، ربما لأول مرة منذ قرون، ملكاً للشعب؛ ملكاً للفقراء والأميين، الذين انتشرت بينهم أمراض التراخوما والبلهارسيا، وخنقتهم التقاليد والدين. ولم تعد السياسة ملكاً خاصاً للنخبة. أحب الفقراء قاسم كرمز للثورة، وكان يخاطبهم مباشرة عبر خطابات كانت تدوم لساعات في أغلب الأحيان.

حققت الفترة الثورية القصيرة، التي انتهت بأحداث في سنة ١٩٦٣، ما فشلت عقود من الانتداب البريطاني، والحكم الملكي، وأكثر من أربعمئة سنة من الحكم العثماني، في توفيره: درجة من الاستقرار والأمن والإنجازات التي حقّقها العراقيون بأنفسهم.

إن البيان الأول لثورة ١٩٥٨، المعروف باسم «البيان رقم واحد»، يلخص أهدافها ورؤيتها، ويمكن قراءته كمؤشر على معظم ما تلا من تغيير سياسي واقتصادي واجتماعي. وهو يرسم خطاً بين حاجات الشعب العراقي ورغباته وحاجات ورغبات الحكومات الأجنبية وشركات النفط وحلفائها. وقد أعلن البيان البلد عضواً في مجموعة بلدان العالم الثالث المستقلة حديثاً: «يجب أن تُعهد شؤون البلد إلى حكومة منبثقة من الشعب وعاملة وفق تطلعاته. ولا يتحقق هذا إلا بإقامة جمهورية شعبية لدعم الوحدة العراقية دعماً كاملاً، وربط نفسها بأواصر الأخوة مع البلاد العربية والإسلامية لتعمل وفق مبادئ الأمم المتحدة، وتحترم جميع المعاهدات وفقاً لمصالح الوطن، وتعمل بقرارات مؤتمر باندونغ.

وستعرف هذه الحكومة الوطنية من الآن فصاعداً باسم الجمهورية العراقية»[٣١].

بعد الثورة، لم تكن الأجندة الاجتماعية المصدر الأساسي للصراع بين قادتها وفي الشوارع، وإنما كان الصراع يتركّز على هوية العراق نفسه. كان العراق جزءاً من الأمة العربية، «لكن ليس جزءاً من جزء»، كما قال قاسم عندما رفض الانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة التي شكّلها عبد الناصر حديثاً آنذاك بين مصر وسورية. فاستغلّ البعثيون والقوميون العرب مفهوم القومية العربية التي قامت عليه وحدة ١٩٥٨ بين مصر وسورية لمواجهة الحزب الشيوعي الذي دعم قاسم. وسرعان ما انضمت قوى أجنبية إلى الصراع، فأُثيرت مسألة الاستقلال الكردي، وبرزت انشقاقات أحدثت بين العراقيين انقساماً سياسياً لا يزال مستمراً إلى الآن تحت الاحتلال. لكن الانتماءات السياسية القائمة على الصراع الطبقي والمكاسب الاقتصادية، لا على القضايا الدينية أو الطائفية أو الإثنية، هي المقاييس التي يجب أن يُحكم بها على الصراعات الداخلية العراقية، في الماضي والحاضر على حد سواء، مهماً بذل من جهد لتغليفها بسياسات الهوية.

بعد أربعة عشر يوماً من قيام الثورة، صدر الدستور المؤقت الذي نص على أن المواطنين العراقيين متساوون بموجب القانون، ومنحهم الحرية بغض النظر عن العِرق أو الجنسية أو اللغة أو الدين. ونصّ لأول مرة على أن «العراق يشكل جزءاً لا يتجزأ من الأمة العربية»، وأن «العرب والأكراد شركاء في هذا الوطن». وأعلن الإسلام ديناً للدولة. وأطلقت الحكومة سراح السجناء السياسيين وأصدرت عفواً عن الأكراد الذين شاركوا في انتفاضات ١٩٤٣ ـ ١٩٤٥ الكردية. وعاد المنفيون الأكراد إلى الوطن ورحّبت الحكومة بهم.

عشية ثورة ١٩٥٨، كان ظاهراً في ما يتعلق بمكانة المرأة أن المجتمع التقليدي عموماً كان مستعداً لتقبل دور اجتماعي علني ومؤثر للنساء، في مجالات مهنية عالية المنزلة ليس إلا. وتم تطبيق قيم مماثلة على الرجال أيضاً، لأن المجتمع كان ينظر إلى الأعمال المهنية العالية كبدائل صالحة للحسب والنسب. ومع ذلك، كان ثمة تغييرات كبرى تأخذ مجراها. حيث أثمرت مشاركة النساء في النضال الوطني إلى جانب الرجال، إذ منح قانون الأحوال الشخصية الصادر سنة ١٩٥٩ المرأة حقوقاً مساوية على صعد عدة، ووضع مجموعة منسجمة من القوانين التي

(٣١) Edith Penrose and E. F. Penrose, *Iraq: International Relations and National Development*, Nations of the Modern World (London: E. Benn; Boulder, CO: Westview Press, 1978), p. 214.

تحكم الأسرة والحياة الزوجية. وكان في هذا الشأن أكثر قوانين الأسرة تقدماً في المنطقة، حيث إنه منح المرأة حقوقاً أكبر في مجالات مثل الوراثة، وحد من تعدد الزوجات. وتم تعيين نزيهة الدليمي، رئيسة رابطة الدفاع عن حقوق المرأة، وزيرة، فكانت أول وزيرة في البلاد العربية قاطبة.

كان التعليم مطلباً جماهيرياً، فشيّدت مدارس جديدة. والتحقت بعض الشابات بمنظمة المقاومة الشعبية، وهي منظمة شبيبة ملحقة بالحزب الشيوعي للدفاع عن الثورة، وكان هذا الأمر نشاطاً غير مسبوق في البلاد العربية وموضع استياء من المجتمع التقليدي. وأخذ المجتمع المدني يكتسب قوة يوماً بعد يوم. وتم تأسيس اتحادات عمالية ومنظمات نسائية واتحادات طلابية، وفُتحت الصفوف لمحو الأمية.

ألغيت ولاية شيوخ القبائل على مجتمعاتهم، وأدخل نظام إصلاح الأراضي، حيث وضعت القيود على مساحات الأملاك العقارية وأعيد توزيع الأراضي التي كانت في ما مضى مشاعاً. ولأول مرة منذ قرون، أصبح المزارعون مالكين للأراضي التي يعملون فيها. ووضعت قوانين أيضاً لضبط بدلات إيجار البيوت السكنية.

كانت هناك خطوات جذرية لكنها مدروسة بخصوص مسألة السيادة. ففي سنة ١٩٥٩، انسحب العراق من حلف بغداد ومن منطقة الجنيه الاسترليني. وبين آب/أغسطس وتشرين الأول/أكتوبر ١٩٦١، جرت في بغداد مفاوضات بشأن أسعار النفط العراقي بين السلطات العراقية وممثلي شركة النفط العراقية التي يملكها البريطانيون. وعندما لم تلبّ الشركة المطالب العراقية، أقرت الحكومة القانون رقم ٨٠ الذي استعاد العراق بموجبه السيطرة على جميع مناطق النفط غير المستغلة في العراق، أي ٩٥,٥ بالمئة من الإجمالي. وقد أحدث هذا التدبير زيادة ملحوظة في عائدات النفط التي تجمعت لدى الحكومة. وأعلن قاسم تأسيس شركة النفط الوطنية العراقية لاستغلال المناطق الجديدة[٣٢].

ازدهرت أيضاً النشاطات الثقافية في العراق في السنوات الثلاث الأولى من الثورة. فقد تُرجمت إلى اللغة العربية الكثير من الأعمال الأدبية العالمية ونشرت في العراق للمرة الأولى. وفي سنة واحدة من عمر الثورة، تجاوز العدد الإجمالي

(٣٢) Shakir Hanish, «The July 14th 1958 Revolution in Iraq,» <http://www.iraqcp.org/0030711shE.htm>.

للكتب التي نشرت عدد الكتب التي نشرت في السنوات الثلاثين التي سبقت الثورة[٣٣].

في بعض الأحيان، تراجعت قضية حقوق المرأة إلى مرتبة ثانوية، حتى لدى التقدّميين؛ ففي النضال ضد الاستعمار، شكلت حركات سياسية ليبرالية أو يسارية تحالفات مع قوى قومية تتمسّك بآراء تقليدية محافظة في ما يتعلق بوضع المرأة. على سبيل المثال، كانت اللقاءات والتظاهرات السياسية العلنية المختلطة قليلة جداً، إذ كان التقليديون يعارضونها، بل إنّ هياكل الخلايا السرية في الحزب الشيوعي وحزب البعث كانت تفصل بين الرجال والنساء حتى الستينيات.

تسرّب الصراع بين الشيوعيين والعروبيين، مع تحالفاتهم الدولية والإقليمية، إلى المجتمع المدني بشكل تدريجي، فأحدث انقساماً بين العراقيين في السنوات التالية. وأُلحقت منظمات نسائية بهذه الأحزاب السياسية، لتستخدم بالنتيجة كسيوف دعائية في المعركة الأيديولوجية المريرة. فقد انهمكت منظمة «نساء الجمهورية»، التي أسسها حزب البعث لمواجهة شعبية «رابطة الدفاع عن حقوق المرأة»، في الترويج لبرنامج الحزب، بينما شدّدت الأخيرة على تقديم الحزب الشيوعي الدعم الواضح إلى زعامة عبد الكريم قاسم.

كانت السمات الأيديولوجية، سواء كانت شيوعية أم قومية أم بعثية، هي العباءات التي غطت جميع الجوانب والنشاطات الثقافية، بما فيها الكتابات القصصية والأبحاث والفن والشعر والنقد الأدبي. وقد عكست شاعرتان مرموقتان في تلك الفترة، وهما نازك الملائكة (١٩٢٣ ـ ٢٠٠٧) ولميعة عباس عمارة (ولدت سنة ١٩٢٩)، هذا الانقسام الأيديولوجي في بداياته الأولى في عهد الجمهورية. ويمكن، إلى حد ما، أن تعتبرا ممثلتين للحركة النسوية ونضالها من خلال مقاربتين مختلفتين[٣٤].

نظمت نازك الملائكة قصيدتها الأولى بالعربية الفصحى وهي في سن العاشرة. ودرست الأدب في دار المعلمين العالية في بغداد ثم في جامعة برنستون في الولايات المتحدة. وفي سنة ١٩٤٧، أصدرت مجموعتها الشعرية الأولى، **عاشقة الليل**. وفي سنة ١٩٤٩، صدرت مجموعتها الثانية، **شظايا ورماد**، مع تمهيد

(٣٣) المصدر نفسه.

(٣٤) عاشت نازك حياة العزلة في مصر إلى أن توفيت في حزيران/ يونيو ٢٠٠٧. وتعيش لميعة في الولايات المتحدة.

قدمت فيه الشعر الحر كشكل جديد من الشعر لا يلتزم التفعيلة التزاماً صارماً ولا قافية معينة، متحدية بذلك قروناً من التركيبة التقليدية للقصيدة العربية. وقد هدفت هذه الثورة في الشعر، التي تنافست فيها على الريادة مع بدر شاكر السياب، إلى «السعي لحرية أكبر تمكن الشاعر من تحقيق وحدة عضوية في عمله، والاندماج بين الشكل والمضمون»[٣٥]. وسرعان ما انتشر تأثير نازك وبدر في العالم العربي كله. وعملت نازك أستاذة في جامعة البصرة التي ساعد زوجها عبد الهادي محبوبة، على تأسيسها في جنوب العراق في الستينيات. وكانت القومية العربية والقضايا الاجتماعية والنضال ضد الاحتلال مكوناً مهماً من مكونات شعرها؛ إذ كتبت عن فلسطين والثورة الجزائرية ضد الفرنسيين وهزيمة الجيوش العربية في الحرب ضد إسرائيل سنة ١٩٦٧.

كانت نازك أيضاً شديدة التأييد لتحرير المرأة؛ فمحاضرتاها من الخمسينيات عن موقع المرأة في المجتمع الأبوي، وهما «المرأة بين الطرفين السلبية والأخلاق» (١٩٥٣) و«التجزيئية في المجتمع العربي» (١٩٥٤)، تعتبران من كلاسيكيات مناصرة الحركة النسوية. وربما تمثل قصيدتها «مرثية امرأة لا قيمة لها» آراءها في هذا الموضوع خير تمثيل. بيد أن قصيدتها عن جميلة بوحريد هي التي كان لها أثر بالغ في أبناء جيلي. وجميلة فتاة جزائرية قاومت الاحتلال الفرنسي لبلدها، فاعتقلها المحتلون الفرنسيون وعذبوها، وأصبحت تعرف في جميع أرجاء العالم العربي بوصفها بطلة الثورة الجزائرية. وقد استعادت حريتها عندما نالت الجزائر استقلالها سنة ١٩٦٢. والقصيدة المشار إليها تعبر عن مشاعر الغضب على خيانة العالم لجميلة. كما إنها تجسيد حي لالتزام الكتّاب والشعراء العراقيين التاريخي بالقضايا الاجتماعية والسياسية.

نحن وجميلة[٣٦]

جميلة! تبكين خلف المسافات، خلف البلاد

وترخين شعرك كفك دمعك فوق الوساد

أتبكين أنت؟ أتبكي جميلة؟

---

(٣٥) *An Anthology of Modern Arabic Verse*, selected with an introduction by M. M. Badawi ([London]: Oxford University Press, 1970).

(٣٦) Nazik al-Malaika, in: Saadi A. Simawe, ed., *Iraqi Poetry Today*, New Series; no. 19 (London: Modern Poetry in Translation, 2003).

أما منحوك اللحون السخيات والأغنيات؟
أما أطعموك حروفا؟ أما بذلوا الكلمات؟
ففيم الدموع إذن يا جميلة؟
وجرّحنا الوصف، خدّش أسماعنا المرهفة
وأنت حملت القيود الثقيلة
وحين تحرقت عطشى الشفاه إلى كأس ماء
حشدنا اللحون وقلنا سنسكتها بالغناء
ونشدو لها في الليالي الطويلة
وقلنا: لقد سمروها على خشبات صليب
وقلنا: سننقذها، سوف نفعل! ثم غرقنا
وراء مدى «سوف» بين الحروف النشاوى وصحنا
تعيش جميلة! تعيش جميلة!
وذبنا غراماً ببسمتها وعشقنا الخدود
وهما بغمازة وجديلة
أمن جرحها الثر نطعم أشعارنا المعاني؟
وذوبي أمام الجراح النبيلة
هم حمّلوها جراح السكاكين في سوء نيه
ونحن نحمّلها ـ في ابتسام وحسن طويه
فيا لجراح تعمق فيها نيوب فرنسا
وجرح القرابة أعمق من كل جرح وأقسى
فوا خجلتا من جراح جميلة!
فيا لجراح تعمق فيها نيوب فرنسا
وجرح القرابة أعمق من كل جرح وأقسى

فواخجلتا من جراح جميلة!

جراح المعاني الغلاظ الجهولة

فيا لجراح تعمق فيها نيوب فرنسا

وجرح القرابة أعمق من كل جرح وأقسى

فواخجلتا من جراح جميلة!

تخرجت لميعة عباس عمارة من دار المعلمين العالية في بغداد سنة ١٩٥٠ وعملت مدرّسة في إحدى الثانويات. وقد توفي والدها وهي في ريعان الصبا، الأمر الذي جعل شعرها مشوباً بظلال حزن طويلة.

في مقالة بعنوان «أنا وعباءتي»، تعاملت لميعة بسخرية مع المشكلات المرتبطة بارتداء العباءة. ووصفت بشاعة العباءة ولونها الكئيب وكيف أنها تقيد حركة المرأة. كما اعتبرت العباءةَ سبب جمود الحياة الأدبية في العراق. وكما كان متوقعاً، أحدثت المقالة ضجة في أوساط المحافظين في بغداد، لكنها أكسبتها دعماً فورياً من اليسار.

وكتبت لميعة في ديوانها الأول عن الحب والإغواء. ومن أشهر قصائدها قصيدة «لو أنبأني العّراف»:

لو أنبأني العرّاف

أنك يوما ستكون حبيبي

لم أكتب غزلا في رجل

خرساء أصلي

لتظل حبيبي

لو أنبأني العراف

أنني سألامس وجه القمر العالي

لم ألعب بحصى الغدران

ولم أنظم من خرز آمالي

لو أنبأني العراف

أن حبيبي سيكون أميراً فوق حصان من ياقوت

شدّتني الدنيا بجدائلها الشقر

فلم أحلم أنني سأموت

لو أنبأني العراف

أن حبيبي في الليل الثلجي سيأتيني بيديه الشمس

لم تجمد رئتاي

ولم تكبر في عيني هموم الأمس

لو أنبأني العرّاف

أني سألاقيك بهذا التيه

لم أبك لشيء في الدنيا

وجمعت دموعي

كل الدمع

ليوم قد تهجرني فيه[٣٧]

كان شعر لميعة الذي تناول القضايا الاجتماعية والسياسية، وبخاصة احتلال فلسطين، شعراً قوياً جداً. ففي قصيدتها «فلسطين»، تناشد العرب أجمعين بالعمل معاً لتحرير الأرض المحتلة، وتعبر عن الأهمية التاريخية للقضية الفلسطينية في حياتنا. وكانت القضية الفلسطينية واحدة من أولويات الشاعرات الرائدات، رغم انشغالهن بالحياة العائلية وتحرير المرأة، ورغم انتماءاتهن السياسية المختلفة. وهي لا تزال كذلك.

في الوقت الذي كانت فيه نازك معروفة بميولها القومية العربية، كانت لميعة أكثر ارتباطاً بالحركة اليسارية. وكلتاهما ستعاني مما سيحل في المستقبل من حروب وظلم وعقوبات.

في حزيران/يونيو ٢٠٠٤، ردد بول بريمر، الذي عينته الولايات المتحدة

(٣٧) Lami'a Abbas Amarah, «If the Fortune Teller Had Told Me,» translated by Sara Marsden, *Ur*, vol. 2, no. 3 (1982), p. 136.

حاكماً على العراق، عبارات الشاعر القديم ابن زريق البغدادي التالية في رسالة وداعه للشعب العراقي:

أستودع الله في بغداد لي قمراً

بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه

ودّعته وبودّي لو يودّعني

صفو الحياة وإنّي لا أودّعه[٣٨].

ظن بول بريمر، على شاكلة سواه من المحتلين عبر التاريخ، أنه بترديده شعراً عراقياً يستطيع أن يبدي تفهمه للمجتمع العراقي وثقافته. لكنّه لم يدرك أنّ من يحتلّ بلداً لا يستطيع البتة بلوغ الأسس العميقة للشعب الذي «يدافعون عنه ويحمونه» بمثل هذا الثمن الباهظ. ومثل كل المحتلين، غادر بريمر العراقَ على عجل خوفاً على حياته.

ـ ٥ ـ

في ٨ شباط/فبراير ١٩٦٣، استيقظت على دوي أعيرة نارية؛ كان ذلك انقلاب البعث الأول. رحت أتفرج وأسرتي من خلال نافذة صغيرة مطلة على زقاق، حيث سيطر شبان مسلحون يحملون الرشاشات على الشوارع. كنت في الثانية عشرة من العمر وكانت المرة الأولى التي أشهد فيها مثل هذا المشهد. كانت منطقتنا، الفضل، في وسط بغداد قرب وزارة الدفاع. كانت الدبابات متوقفة حول الوزارة وحول مبانٍ عامة أخرى مجاورة، وأغلقت الشوارع أمام حركة المرور. واستمر القتال أياماً قليلة بين أعضاء من حزب البعث والقوميين العرب من جهة، والشيوعيين والجنود المدافعين عن نظام قاسم من جهة أخرى.

استبدلت برامج الإذاعة والتلفزيون الاعتيادية بموسيقى وأناشيد عسكرية. أغلقت المدارس وأضرب طلاب الجامعات. وانزلق البلد كله إلى حالة من الفوضى فيما أصبح اندلاع أعمال العنف أمراً حتمياً. وكان حزب البعث بصدد انتزاع السيطرة على البلد من قاسم والشيوعيين. فقُتل المئات في أثناء القتال وفي المعتقلات. وتتفاوت التقديرات المتعلقة بمن ماتوا ومن اعتقلوا، لكن أعدادهم تبلغ الآلاف.

---

(٣٨) يقسم نهر دجلة بغداد إلى قسمين، إذ إنه يجري في وسط المدينة؛ ويدعى القسم الغربي الكرخ والقسم الشرقي الرصافة، وتوجد المنطقة الخضراء الحصينة التي أقام فيها بريمر سنة واحدة في الكرخ.

تألفت الحكومة الجديدة من القوميين العرب. وكانت بقيادة العقيد عبد السلام عارف الذي شارك في قيادة ثورة ١٤ تموز/يوليو، ولم يكن عقائدياً متطرفاً، مثل قائد الجيش البعثي أحمد حسن البكر وسكرتير حزب البعث علي صالح السعدي[٣٩]. فقدت هذه الحكومة السيطرة بعد أقل من عشرة أشهر. وسرعان ما دفعت عدم شعبية نظام الحكم ـ بسبب ما ارتكبته مليشيا البعث المسماة الحرس القومي من فظائع وبسبب الصراعات الخفية وأشكال التوتر بين المصالح الوطنية العراقية ومشاريع القومية العربية غير المترابطة، وعجز النظام عن سحق التمرد الكردي ـ عارف إلى التخلي عن حزب البعث في تشرين الثاني/نوفمبر١٩٦٣ وحصر السلطة في أيدي ضباط الجيش تحت إمرته وإمرة أخيه عبد الرحمن. وبدا حزب البعث بتصرفاته أقرب إلى عصابة منه إلى حزب سياسي. وعلاوة على ذلك، اعتبره كثير من العراقيين مجموعة متعاقدة مع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية والكويت لإطاحة الحكومة الوطنية واغتيال قائدها الوطني قاسم[٤٠].

كانت الصورة الأكثر رسوخاً في الذاكرة بين أحداث الأشهر العشرة التي أمسك حزب البعث خلالها بالسلطة هي صورة المليشيا السيئة الذكر، أو الحرس القومي، الذي أمعن بالعراقيين، ومن بينهم النساء، إرهاباً وسجناً وتعذيباً وإعداماً. ولطخت تلك الجرائم سمعة حزب البعث سنوات عدة، وإلى حدّ أكبر بكثير مما فعلته مشاهد الغوغاء والقتل والإعدامات وانتهاكات المقاومة الشعبية بصورة الحزب الشيوعي في بداية سنة ١٩٥٩. وبرز تمييز واضح بين حزب البعث والقوميين العرب المعتدلين والأقل تعصباً عقائدياً؛ إذ ساندوا حكم القانون إلى حد بعيد، وإن بأسلوب أبوي.

---

(٣٩) قاد أحمد حسن البكر الانقلاب الثاني سنة ١٩٦٨، بينما ترك علي صالح السعدي حزب البعث سنة ١٩٦٤، مشيراً إلى ارتباط الحزب بوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، وشكّل في المنفى حزباً قومياً عربياً راديكالياً آخر.

(٤٠) قال ك. أبو ريش، الذي عمل مع صدام في السبعينيات إن دور وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية في الانقلاب ضد قاسم كان «أساسياً» وإن «العلاقة بين الأمريكيين وحزب البعث في تلك الآونة كانت متينة بالفعل». وللتخلص من قاسم، كانت وصمة «الإرهابي» في الخمسينيات والستينيات (أي «الشيوعي») مفيدة كغطاء لتبرير إقامة صلات مع المنفيين من قادة حزب البعث. وقد قال أبو ريش: «مثلت خطط إطاحة الزعيم العراقي، وكانت بقيادة وليم ليكلند الذي كان ملحقاً في السفارة الأمريكية في بغداد، أوضح عمليات وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية في تاريخ الشرق الأوسط». انظر: Said K. Aburish, *Saddam Hussein: The Politics of Revenge* (New York; London: Bloomsbury, 2000), p. 55.

قاد عارف الحكومة العراقية إلى معسكر الدعوة إلى الوحدة العربية، مقيماً علاقات حميمة مع عبد الناصر، ونظر جدياً في مسألة اقامة الوحدة مع مصر وسوريا. وحين قُتل عارف في حادث تحطم طائرة هليكوبتر سنة ١٩٦٦، تولى أخوه عبد الرحمن القيادة من بعده. كان عبد الرحمن رجلاً هادئاً غير طموح، وذلك أمر غير معهود في مسرح السياسة العراقية آنذاك. وقد تمتع العراقيون باستقرار سياسي واجتماعي في ظل حكم الأخوين عارف، الأمر الذي أدى إلى فترة من الحرية النسبية التي احتفى بها الكثير من الكتّاب والفنانين والشعراء وعُرفت باسم «الستينيات الذهبية». غير أن تجدد الصراع مع الأكراد نقل السلطة بصورة متزايدة من الحكومة المركزية إلى زمر متعددة في الجيش.

ـ ٦ ـ

في ١٧ تموز/يوليو ١٩٦٨، استولى حزب البعث بقيادة البكر على السلطة مرة أخرى. وتم تشكيل مجلس قيادة الثورة. وأصبح صدام حسين في سنة ١٩٦٩ المسؤول الأهم في حزب البعث، وصار يُعرف بالسيد النائب. وفي ١٦ تموز/يوليو ١٩٧٩ تنحى البكر وحل صدام محله ليحكم العراق حتى الغزو الذي قادته الولايات المتحدة في آذار/مارس ٢٠٠٣.

بدأ حزب البعث العربي الاشتراكي[٤١] كمجموعة سرية من المثقفين القوميين شكلها صلاح الدين البيطار وميشيل عفلق في سوريا سنة ١٩٤٠. كانا معلّمين من الطبقة الوسطى ومتأثرين بالتعليم الغربي، وقد سعيا لتأسيس حزب قومي عربي علماني. وفي نهاية سنة ١٩٤٣ تقريباً، تم اعتماد الاسم «حزب البعث العربي» وشارك الحزب في المقاومة ضد الفرنسيين وشاركوا لاحقاً في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨[٤٢].

قامت أيديولوجية البعث على الحاجة إلى إعادة التأكيد على «الروح العربية» في وجه السيطرة الأجنبية، واستعادة العزّة العربية. وكان الاحساس السائد أن التدهور الاخلاقي والثقافي قد أضعف العرب إلى درجة انتشار فكرة التفوّق

(٤١) تجمع أيديولوجية البعث بين عناصر القومية العربية والاشتراكية ومعاداة الإمبريالية. وقد انضم صدام حسين إلى الحزب سنة ١٩٥٧، وبقي وفياً لمبادئه طوال حياته.

(٤٢) Sa'ad Jawad, *Iraq and the Kurdish Question, 1958-1970* (London: Ithaca, 1981).

الغربي في الشرق الأوسط برمته، وأن العرب بحاجة إلى الانبعاث والنهوض من جديد، وإلى الاحساس بالتراث المشترك بين عموم الناس في المنطقة لدرء هذه التأثيرات الخارجية الموهنة.

عرفت أفكار البعث توسعاً بارزاً إلى ما وراء حدود سوريا بعد حرب فلسطين سنة ١٩٤٨، حين اعتُبر غياب الوحدة العربية مسؤولاً عن ضياع فلسطين وقيام دولة إسرائيل الاستعمارية الاستيطانية. وبحلول سنة ١٩٥٠، كانت للحزب فروع في كل البلاد العربية تقريباً. وجرى تأسيس فرع العراق سنة ١٩٥٤، واتخذ له الاسم الجديد: حزب البعث العربي الاشتراكي.

أنشأ البعث نظام الحزب الواحد الذي مارس فيه سيطرته (ما خلا فترة الجبهة الوطنية التقدمية مع الحزب الشيوعي، ١٩٧٤ ـ ١٩٧٩) على التعيينات السياسية والسياسة الاقتصادية والنشاطات الثقافية والعلاقات الخارجية، مستخدماً الحملات السياسية للتخلص مما سماه «القيم والممارسات الضارة السائدة قبل الثورة». وأنشأ نظام سيطرة بوليسية قليل التسامح مع من يعارضون آراءه، وسعى لفرض عقيدة واحدة عنوانها «الوحدة والحرية والاشتراكية».

كان هذا المنظور الضيق، مجتمعاً مع الهيمنة على السلطة والغطرسة والقسوة والحاجة إلى بناء الدولة، هو الأساس الذي بنيت عليه سياسة تشكيل حياة المرأة والعائلة والمجتمع في العراق على امتداد أكثر من خمس وثلاثين سنة.

واتخذت الأحداث مسارا مأسويا عقب وصول صدام إلى رئاسة السلطة. والفترتان الرئيسيتان في هذا التاريخ هما ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨، أي فترة الحرب العراقية الإيرانية، و١٩٩٠ ـ ٢٠٠٣، أي سنوات الحصار الجائر.

كانت الحرب الإيرانية ـ العراقية تهدف إلى مواجهة السيطرة الإيرانية في الشرق الأوسط، وإضعاف مد النظام الشيعي الثوري، وإنهاء النزاع على ممرّ شط العرب المائي. وكانت الحرب الأطول والأفدح دماراً في التاريخ الحديث، إذ خلّفت أكثر من مليون قتيل في كلا الجانبين. وأرغم آلاف العراقيين الشيعة على النزوح بزعم أنهم من أصول إيرانية.

في بداية الحرب، تم تدمير المفاعل النووي العراقي، الذي بناه الفرنسيون، بضربة جوية إسرائيلية، الأمر الذي دفع العراق إلى تطوير طاقته النووية السرية. وبقي النظام على موقفه المعادي لإسرائيل دون هوادة.

على امتداد فترة الحرب، تحالف الحزبان الكرديان الرئيسيان، الحزب الكردستاني الديمقراطي والاتحاد الوطني الكردستاني، مع النظام حيناً ومع إيران حيناً آخر لتحقيق السيطرة الفعلية على أجزاء من الشمال العراقي. وشن النظام حملة على المتمردين في الفترة ١٩٨٧ ـ ١٩٨٨. وفي الواقع كان جزء كبير من كردستان مسرحاً للحرب بين العراق وإيران، إذ تعرضت مئات القرى للتدمير ونُقلت أعداد كبيرة من الناس إلى مخيمات استراتيجية واستخدم النظامان الغازات السامة والاسلحة الكيميائية. وأشاعت إحدى الحملات، وتدعى «الأنفال»، الرعب في نفوس القرويين وارتبطت بأذهان الناس بالمقابر الجماعية، وحدث الشيء ذاته بصدد عدد من المجازر مثل المجزرة التي وقعت في بلدة حلبجة الحدودية في آذار/مارس ١٩٨٨. لقد لجأ النظام، عبر عقود حكمه، إلى نشر الخوف والترويع لإحكام سيطرته واخضاع السكان، ورسخت الذكرى إلى حد لم تعد هناك ثمة أهمية تُذكر لإنكاره لاحقاً تبعة المقابر الجماعية، وتحميله الإيرانيين مسؤولية مجزرة حلبجة.

رأت دول الخليج العربية الحرب الإيرانية ـ العراقية بمثابة دفاع عنها ضد المطامع الإيرانية، لكنها انقلبت على العراق إثر انتهاء الحرب، وطالبت الكويت فجأة باستعادة الأموال التي فُهم بأنها هبات. وأدى ذلك إلى قيام العراق بغزو الكويت سنة ١٩٩٠، ثم أدى إلى حرب الخليج الأولى بقيادة الولايات المتحدة، وهي الحرب التي أتبعتها الأمم المتحدة بفرض العقوبات القاسية على الفور. هكذا بدأ تفتيت البلد، وخصوصاً من خلال قيام الولايات المتحدة وبريطانيا، لا الأمم المتحدة نفسها، بفرض مناطق حظر الطيران لمنع النظام من استخدام قواته المسلحة في الشمال والجنوب.

فرضت قرارات مجلس الأمن الدولي في الفترة ١٩٩٠ ـ ١٩٩١ ثلاث عشرة سنة من العقوبات الشاملة. ونصت القرارات على أن يسلم العراق أسلحة الدمار الشامل ويسمح بأعمال تفتيش كاملة تتولاها الأمم المتحدة. أكّد العراق أنه امتثل للقرارات، لكن رده اعتُبر غير وافٍ، لذا واصلت الأمم المتحدة اصدار قرارات إضافية جعلت من نظام العقوبات الاقتصادية حصارا شاملاً وجائراً. وقد عُدل هذا النظام سنة ١٩٩٦، فاتخذ شكل برنامج النفط في مقابل الغذاء متيحاً للعراق بيع النفط بهدف شراء المنتجات وتوزيعها تحت مراقبة الأمم المتحدة. وقدم البرنامج الحدّ الأدنى من الإغاثة إلى شعب فقد على مدى ست سنوات ٩٠ بالمئة من دخله.

في فترة الحصار، أعادت الأحزاب الكردية تأكيد سيطرتها على أنحاء من الشمال العراقي وفرت لها الولايات المتحدة وبريطانيا الحماية بوصفها ملاذاً آمناً. وفي سنة ١٩٩٤ نشبت حرب أهلية بين الاتحاد الوطني الكردستاني بقيادة جلال طالباني (رئيس العراق الحالي) والحزب الديمقراطي الكردستاني بقيادة مسعود البرزاني (رئيس الحكومة الكردية الإقليمية). طلب خلالها البرزاني العون من صدام حسين ضد طالباني، فسارع صدام إلى تقديم العون وارسل قوات من الجيش العراقي لانقاذ البرزاني. ولم يتوقف القتال المرير بين الحزبين الذي أودى بحياة حوالى خمسة آلاف كردي عراقي الا بعد ان تدخلت الولايات المتحدة وأجبرتهما على توقيع اتفاق بين القيادتين سنة ١٩٩٨.

ـ ٧ ـ

لقد صاغ النظام البعثي حياة ثلاثة أجيال من العراقيين إلى حد كبير. فقد اتخذت الأحداث منعطفاً دراماتيكياً عقب انقلاب ١٩٦٨، ومنعطفاً مأسوياً لدى وصول صدام حسين إلى السلطة كقائد أعلى بعد إحدى عشرة سنة. ويسود الكتابات المتعلقة بتلك الفترة موقفان متعارضان: أحدهما يصف نظام البعث وصدام بصفات شيطانية (من خارج العراق)، والآخر يمدحهما (في الأغلب من داخل العراق)[٤٣]. أحدهما يحمل مسؤولية جميع المحن التي حلت بالبلد بنظام فاشي ذي قائد مخلِّص، والآخر يظهره كأحد فصول النضال البطولي ضد أعداء العراق والعرب وحتى الإسلام التاريخيين.

إن الكتابة بموضوعية وبصورة شاملة عن سنوات حكم البعث الخمس والثلاثين ليس بالعمل الهيّن. ومن المعروف أن النظام لم يشجع على اجراء الأبحاث الاجتماعية والاقتصادية، وحظر في فترات الحرب أي بحث مستقل عن الاقتصاد. وكان الوصول إلى الوقائع والأرقام محدوداً ويتوجب على المرء المرور بالقنوات الرسمية كي يحصل عليها. فللحصول على المعلومات عن وضع المرأة العراقية، كان ينبغي على الباحث مراجعة المنظمة النسائية الرسمية المدعوة

(٤٣) تقاسم صدام حسين السلطة مع المهيب أحمد حسن البكر كنائب له لمدة إحدى عشرة سنة، حتى سنة ١٩٧٩، وكانت قيادة حزب البعث ذات مراكز متعددة القوى وديناميكية معقّدة، وإن بات شائعاً بالنسبة إلى الأصدقاء والأعداء معاً التعامل مع حقبة البعث كفترة حكم واحدة امتدت خمساً وثلاثين سنة تحت قيادة صدام.

الاتحاد العام لنساء العراق. وليس هناك سوى القليل من الدراسات التي تتناول وضع المرأة الاجتماعية وتطوّرها في هذه السنوات الخمس والثلاثين المضطربة.

في أعقاب غزو ٢٠٠٣، وبالإضافة إلى ما حدث في البداية من سلب وحرق للكتب، صار الناس يخشون الاحتفاظ بكتب فيها صور لصدام أو تعاملت مع نظامه، رغم أن كل إصدار رسمي في عهد صدام كان يتضمن صورته. ولم يعد كافيا انتزاع الصورة من الكتاب أو تمزيق صفحة واحدة، ومن ثم الاحتفاظ بالكتب والمجلات؛ إذ تقوم قوات الاحتلال بمصادرة الكتاب خلال مداهماتها العشوائية العنيفة واعتباره سلاحاً «إرهابيا» مميتاً. لذا أُرغم الناس ثانية على حرق كتبهم مثلما كانوا يُرغمون في عهد نظام البعث. ووجهت لجنة اجتثاث البعث، التي شكلت تحت الاحتلال، الضربة القاصمة إلى أي امرىء يأمل بفهم الحقبة السابقة من خلال البحث المستقل والتوثيق التاريخي.

في أيار/ مايو ٢٠٠٣، أصدر بول بريمر، رئيس سلطة الائتلاف المؤقتة التي أقامتها الولايات المتحدة، أمر سلطة الائتلاف رقم واحد الذي ينص على اجتثاث البعث من المجتمع العراقي، ولتطهير الحياة العامة العراقية من أعضاء حزب البعث العراقي الحاكم سابقا. وعُين أحمد الجلبي رئيساً للجنة، وهو المعروف بأنّه أحد مصادر الاستخبارات الأمريكية عن أسلحة الدمار الشامل العراقية التي ثبت أنها أكذوبة. وقد اعتبر كثير من العراقيين أن تأليف اللجنة كان أداة للانتقام وإساءة لاستخدام السلطة. ولندرك مدى الضرر الذي نجم عن تطبيق أمر سلطة الاحتلال، علينا ان نتذكر أن معظم العراقيين كانوا أعضاء في الحزب (طوعاً أو بحكم الضرورة السياسية أو المعيشية). وأصبح اسم اللجنة يرمز إلى إرهاب الناس العاديين، وحرمانهم من أرزاقهم مع تشجيع المخبرين والفساد. وقد فقد أكثر من ستين ألف موظف في الدولة وظائفهم، منهم ثمانية وعشرون ألف مدرّس. وكان أمر سلطة الاحتلال في الأساس سلاحاً في أيدي المسؤولين المتنافسين على المناصب في الوزارات، وجرى استخدامه لتشويه سمعة الخصوم السياسيين داخل البرلمان نفسه.

ومع أن حملة اجتثاث البعث كانت قد قُدمت إلى العالم الخارجي كعملية منهجية مماثلة لاستئصال النازية في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، الا أن تنفيذها في العراق تم بشكل غوغائي مستند إلى التبليغات الكيدية والانتقامية. ويبرر مثال الألوسي، وهو عضو في اللجنة وزميل قديم للجلبي، طبيعة مهمته قائلا:

«صحيح أن العراق كان رهينة لدى حزب البعث ولم يكن عند معظم الناس من خيار سوى الانضمام إليه. لكن مهمتنا هي اجتثاث أولئك الذين لا يريدون أن يروا أي تغيير يحدث في العراق الجديد»[٤٤].

أمرت اللجنة بتطهير الجامعات العراقية من الكتب والوثائق والأوراق والمنشورات والأطروحات غير المنشورة، وذلك بتهمة أنها «غير أكاديمية» في أبحاثها المتعلقة بعقيدة البعث وفي تمجيدها لقائد الحزب[٤٥]. لذا، بتنا محرومين من معلومات نحن في أمس الحاجة إليها للاطلاع على التغييرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي كان لها تأثيرها على مئات الآلاف من شعبنا طوال عقود من الزمن. ومن غير ان نفهم تاريخنا فهماً عميقاً ودقيقاً، سيكون مآلنا إلى تكرار أخطائنا.

لدى الكتابة عن هذه الحقبة، كان عليّ أن أرغم نفسي على مواجهة عدوي، أي نظام البعث.

كنت في طريق عودتي من الناصرية، في الجنوب، إلى بيت عائلتي في بغداد، عندما اعتُقلت بسبب انخراطي في صفوف الحزب الشيوعي وبسبب دوري في النضال المسلح حين كنت طالبة في كلية الصيدلة في جامعة بغداد سنة ١٩٧٢.

في الأسبوعين الأولين من التحقيق، وضعتُ في زنزانة مجاورة لغرفة التعذيب. وهناك سمعت صرخات بالكاد استطعت التحقق من أنها صرخات بشر. وعلى مدى أسبوعين، لم أتمكن من النوم، إذ كنت في النهار أسمع وقع خطوات الجلاد وهو يدنو من زنزانتي ليأخذني للتحقيق من جديد، وفي الليل أحاول التعرف إلى أصوات المعذبين لعلي أكتشف هوية سواي ممن جرى اعتقالهم.

كنت آخر من اعتُقل من مجموعتي المكوّنة من أربعة أشخاص. وعندما جيء بي، كان هؤلاء قد عُذبوا بالفعل وأدلوا باعترافاتهم.

في أغلب الأحيان يبقي الجلادون الناجين من التعذيب والتحقيق في السجن

---

(٤٤) Karim El-Gawhary, «The Right to Reintegrate,» *Al-Ahram Weekly* (29 July 2004), < http:// weekly.ahram.org.eg/2004/701/re84.htm > .

(٤٥) «اجتثاث البعث يطهّر الجامعات العراقية من منشورات النظام البعثي،» **الشرق الأوسط**، ٤/ ١/ ٢٠٠٦.

لإذلالهم و«تلقينهم درساً». وفي حالتي، جرى إبقائي في السجن ستة أشهر. وقد تدخّل قريبي الكردي، صباح ميرزا، السكرتير والحارس الشخصي لصدام حسين على مدى عشرين سنة ونيف، من أجلي بسبب مناشدات والديّ المتكررة كي أُنقل من قصر النهاية إلى سجن أبو غريب، وخصوصاً أنني كنت الفتاة الوحيدة المحتجزة هناك. ولم يكن اعتقال فتاة، إبان المفاوضات «السلمية» بين حزب البعث والحزب الشيوعي لإقامة الجبهة الوطنية التقدمية، أمرا صائبا من الناحية السياسية بالنسبة إلى كلا الحزبين. وفوق ذلك كله، أدين بحياتي لوالديّ اللذين بذلا كل ما كان ممكناً لنشر خبر اعتقالي وسجني، ولأمي بصورة خاصة لأنها رفضت التخلي عن الأمل بأني لا أزال على قيد الحياة.

كانت أمي تذهب كل يوم إلى وزارة الدفاع. وكان عند البوابة الخلفية ضابط معلومات يتعامل، اسمياً، بقضايا السجناء السياسيين. وأصبح لأمي عمل واحد يوميا: الخروج من البيت باكراً حاملة علبة كرتون تحوي منشفة وبعض الملابس وفوطاً صحية ومعلّبات غذائية. وكانت تردد على مسامع الضابط المسؤول والرقيب والجنود الرجاء نفسه: «خذوا العلبة. ابنتي بحاجة إلى ملابس. لم يسمح لها بأن تأخذ شيئاً حين اعتُقلت». وكان الجواب دائماً: «ليس عندنا سجينة بهذا الاسم. من قال إن لدينا سجناء سياسيين؟ ألا تعلمين بأننا نعيش عصراً جديداً، عصر الجبهة الوطنية؟»

في الأسبوع الثاني، كفت أمي عن الإلحاح على الضابط بالسؤال. وطفقت تأخذ شقيقتي الصغرى لتجلسا معاً أمام بوابة الوزارة. وكان كل من يدخل الوزارة في الصباح وبعد الظهر يرى أمي تتصبب عرقاً في حر آب/أغسطس اللافح وهي متلفعة بعباءتها. فأثار حضورها الهمسات والتساؤلات. وتلافى كثيرون النظر إليها وإلى علبتها. وفي أحد الأيام اقترب منها جندي وسألها: «يا خالة، لِمَ أنت جالسة هنا؟» وقبل أن تتاح لها الفرصة للإجابة، صاح العريف بالجندي وأمَره بأن يدعها وشأنها وعدم التدخل.

في الأسبوع الثالث، أمر الضابط العريف بالتخلص منها. وتمكن العريف من إبعادها عن البوابة. وفي صبيحة اليوم التالي، قبعت أمي وأختي على بعد أمتار قليلة. وفي نهاية الأسبوع الثالث، ناداها العريف: «ما اسم ابنتك؟ أعطني العلبة. عودي إلى بيتك». مشدوهة حدقت في وجه العريف القاسي ذي الشاربين الكثيفين، وناولته العلبة وأجهشت بالبكاء. بضحكة أضاءت وجهها الأسمر،

واجهت حزن والدي وغضبه واحساسه بالمرارة، قائلة: «ألم أقل لك؟ إنها ما زالت على قيد الحياة!»

من المفارقات المؤلمة أن آلاف الأمهات، مثل أمي، يواصلن الوقوف في صفوف طويلة، على مدى أسابيع بلا انقطاع، أمام بوابات السجون ومراكز الاعتقال والمعسكرات، اليوم، في «العراق المحرر» بانتظار أي خبر كان عن أحبائهن.

ـ ٨ ـ

قاد ارتقاء حزب البعث إلى السلطة ثانية إلى حكم دام خمساً وثلاثين سنة، وهي أطول فترة حكم لأي حزب سياسي في تاريخ العراق الحديث. وقد قام بدور تكويني في كل جانب من جوانب الحياة العراقية. وتجدر الاشارة هنا إلى أن جميع الأحزاب وأنظمة الحكم الماضية كانت عرضة للتأثير الإقليمي والدولي؛ فالشيوعيون اتبعوا سياسة الاتحاد السوفياتي بشكل أعمى. وأثبتت وثائق كُشف النقاب عنها بعد انهيار الاتحاد السوفياتي أن أسماء كثيرين من قادة الحزب الشيوعي كانت مدرجة على كشف الرواتب في جهاز الاستخبارات السوفياتية (KGB). كان حزب البعث مرتبطاً في أوقات مختلفة بتحالف وثيق مع وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) الأمريكية وبريطانيا ومصر وسورية والاتحاد السوفياتي. وكان القوميون العرب يعتمدون إلى حد بعيد على معونة عبد الناصر ومشورته. وكان لحزب الدعوة صلة مباشرة بإيران، بينما ارتبطت الأحزاب القومية الكردية في فترات متناوبة بوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية وإسرائيل وإيران.

ما من حزب من الأحزاب السياسية العراقية بريء مما حل بالبلد من فواجع منذ ثورة ١٩٥٨. غير ان ما يجعل حزب البعث مسؤولاً أكثر من سواه هو هيمنته على سدة الحكم وسلطة الدولة حقبة طويلة فضلا عن علاقته بالولايات المتحدة خلال الحرب الإيرانية ـ العراقية، التي كان لها أثر رهيب على الشعب العراقي والمنطقة بشكل عام.

ثمة اعتقاد بأن تحسن حقوق المرأة في عهد حزب البعث، ودور الحزب الرائد في تعليم المرأة وترقيتها المهنية، يرجع جزئياً إلى الضرورة التي أملتها الحروب، وانه كان أيضاً شكلاً من أشكال «نسوية الدولة». وأنا أرى أن الفكرتين مضللتان.

لقد قدم حزب البعث نفسه أحياناً كرائد في القضايا التقدمية. وفي أحيانٍ أخرى، طرح مزاعم تبسيطية تسيء إلى إنجازات المرأة العراقية وتقدمها بوصفها نوعاً من نسوية الدولة التي تفرض على المجتمع المتخلف لتسريع التقدم والحداثة. وهذا أمر تكذبه تجربتي الشخصية وتجارب الكثيرات من النساء العراقيات في النصف الثاني من القرن العشرين. فقد أولى المجتمع العراقي تعليم البنات درجة عالية على سلم أولوياته، وشجعهن على أن ينشطن في الحياة العامة. ولا أزال أسمع صوت أبي وهو يردد كلما لاحظ انخراطي في النشاطات السياسية: «احصلي على شهادتك الجامعية أولاً ثم افعلي ما تشائين». وقد أصبح التعليم والعمل، بالنسبة إلى بعض النساء، الأداة الأساسية لمقاومة الطبقية والتمييز والتقاليد البالية والفقر. وكان ذلك ينطبق حتى على العائلات المسلمة المحافظة، مع أنها ربما فضلت مدارس منفصلة لبناتها المراهقات.

في سنة ١٩٧٠، حاول الكهل خير الله طلفاح، خال صدام حسين ومحافظ بغداد، أن يفرض على الشابات قواعد صارمة في ما يخص اللباس، فأصدر أمراً رسمياً يجيز لرجال الشرطة أن يطلوا بالدهان ساقي أي شابة يجدونها ترتدي تنورة قصيرة. وسرعان ما خفف الأمر الصادر ثم تم التخلي عنه بسبب إصرار الطالبات (وكنت واحدة منهن) على ارتداء ما يحلو لهن. ولم يكن حزب البعث راغباً في أن ينظر إليه بأنه يعرقل المجتمع العراقي. فقد كان النظام يحمل في داخله الضغوط نفسها التي يحملها المجتمع بشكل عام، لذا استجابَ إلى حد كبير للأولويات الاجتماعية. وقد اتخذ هذا الأمر اتجاهاً في أوقات الرفاهية واتخذ اتجاهاً آخر في أوقات الشدة.

حين ندقق في استراتيجية البعث تجاه المرأة العراقية، نرى أنّها صورة مرآوية عن السياسة ذات النمط السوفياتي التي اعتمدها الحزب الشيوعي العراقي، ومنظمته النسائية، رابطة المرأة العراقية، باعتباره حزباً اشتراكياً علمانياً، مع فارق رئيسي واحد. فبينما كانت قدوة الحزب الشيوعي العراقي النساء السوفياتيات وإنجازاتهن، وجه البعثيون أنظارهم إلى إنجازات النساء العربيات التاريخية، وفي التسعينيات، ركزوا على إنجازات النساء المسلمات، يوم ولدت الحاجة إلى تضامن العالم الإسلامي معهم.

وكان الحزبان يعتقدان أن تحرير المرأة لا يمكن تحقيقه من دون تحرر وطني من الاستعمار والقوى الرجعية، وأن تحرير المرأة جزء من تقدم الأمة. لكن

معظم العراقيين لم يدركوا مقدار ما كان مشتركاً بين الحزبين، لأن كلاً منهما كان يحتقر أيديولوجية الآخر وينكر وجود أي تشابه بينهما على المستويين النظري والعملي.

لدى التدقيق في نصين ـ الأول كتبه فهد[٤٦]، الأمين العام للحزب الشيوعي، سنة ١٩٤٤، والآخر خطاب لصدام حسين ألقاه سنة ١٩٧١ ـ وجدت أوجه شبه تثير الدهشة لكثرتها دفعتني إلى الاعتقاد بأن صدام لم يقرأ نص فهد فحسب، بل وتأثر به كثيراً، وهي مسألة تتناقض كلياً مع سياسة حزبه.

أوجز فهد، في مقاله، الرؤية الشيوعية بشأن تحرير المرأة العراقية، وهي الرؤية التي أصبحت الخط المحدد لجميع أعضاء الحزب، ولرابطة المرأة العراقية بصورة خاصة، إلى أن انهار الاتحاد السوفياتي في الثمانينيات وأعيد تسويق الحزب الشيوعي العراقي كحزب ليبرالي جديد، حريص على الانضمام إلى الاحتلال بموجب حصة طائفية[٤٧]. وانعكس هذا الأمر أيضاً على رابطة المرأة العراقية، التي أعادت تقديم نفسها كمنظمة غير حكومية تعمل للالتحاق بالعملية السياسية التي فرضها الاحتلال «لنزع الطابع السياسي» عن قضايا المرأة[٤٨].

على الرغم من أن عهد الحزب الشيوعي العراقي في السلطة غير المباشرة كان قصيراً جداً (١٩٥٨ ـ ١٩٦٣)، فإني أعتقد أنه كان ذا تأثير كبير على حياة المرأة منذ سنة ١٩٤٠. وقد شبه فهد المرأة العراقية «بشقيقتها السوفياتية» ورأى أن تحرير المرأة جزء من النموذج الثوري:

> *إن العدو الرئيسي الذي يقف حيال تبديل المرأة لنمط حياتها وانعتاقها من عبوديات الاجيال المتراكمة هو العدو نفسه الذي يقف حيال تبديل نمط حياة*

---

(٤٦) ولد يوسف سلمان يوسف في بغداد سنة ١٩١٠. وكان معروفاً دولياً باسم فهد. وقد شُنق علانية مع أعضاء في المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي على يد الحكم الملكي في ١٤ شباط/ فبراير ١٩٤٩ إثر إضراب للحزب الشيوعي للمطالبة بزيادة الأجور في محطة ضخ النفط في الحديثة، وكان الإضراب قد تصاعد وتحول إلى مسيرة إلى بغداد سنة ١٩٤٨.

(٤٧) اختير حميد مجيد موسى، الأمين العام للحزب الشيوعي العراقي، عضواً في مجلس الحكم لكونه شيعياً، وفقاً لنظام الحصص الطائفية والعرقية الذي فرضه بول بريمر.

(٤٨) عقد المؤتمر الخامس لرابطة المرأة العراقية في بغداد في تموز/ يوليو ٢٠٠٥ تحت شعار «عراق مسالم وديمقراطي ضمانة لمساواة المرأة وسعادة الطفل». وحضر المؤتمر ٩٨ موفدة ولم تتطرق أي منهن إلى الاحتلال. انظر: <http://www.iraqiwomenleague.org/women-conf-2006.html>.

شعبها وانعتاقه، فهذا العدو هو النفوذ الأجنبي ودعامتاه الرجعية والعادات التي لا تأتلف وعصرنا الحالي.

إن أهم الواجبات المترتبة على الحركة النسائية في العراق اليوم هي المساهمة في حركة التحرير الوطني والنضال من أجل الحقوق الديمقراطية[٤٩].

وعلى نحو مماثل، قام صدام حسين، بوصفه نائباً للرئيس العراقي، بوضع موجز لاستراتيجية البعث بشأن المرأة العراقية، وذلك في خطاب له بعنوان «المرأة نصف المجتمع»: «إن الالتزام بالثورة والدفاع عن مثلها ومكتسباتها، إلى جانب الحفاظ على مصالح الجماهير الكادحة، هو السبيل الوحيد إلى تحرير المرأة... وحزب البعث العربي الاشتراكي يرى أن دور المرأة أساسي في دور نبيل وبارز في نضال شعبنا من أجل التحرر من الإمبريالية والدكتاتورية والأنظمة الرجعية ومن أجل تحقيق الأهداف العربية من وحدة وحرية واشتراكية...»[٥٠] ورأى صدام، على غرار فهد، أن النضال من أجل حقوق المرأة جزء من النضال الأوسع للتضامن بصرف النظر عن الأصول العرقية: «لا يمكن أن تكون ثورة حقيقية إذا لم تتوخَ تحرير المرأة وتطوير أوضاعها المادية والثقافية. إن المرأة العربية، مع شقيقتها الكردية وجميع نساء العراق الأخريات، قادرة على اتباع المسار الصحيح وتأدية دورها الرائد في بناء المجتمع الثوري».

خلافاً للتلفيق العرقي والطائفي الذي نسجته الولايات المتحدة والمملكة المتحدة لتبرير الغزو، كان حزب البعث حزباً علمانياً متأثراً بالأيديولجية الاشتراكية وعلى صلة متينة بحركات اليسار العالمي مؤكدا على هوية الشعب الوطنية بوصفه شعباً عراقياً بلا ميول عرقية أو دينية. وليس للرواية الإعلامية الشائعة اليوم عن حزب البعث باعتباره عربياً سنياً أصولياً أي أساس. بل إنّ معظم مؤسسي البعث في العراق كانوا من خلفيات شيعية في محافظات العراق الجنوبية، وكذا الحال بالنسبة إلى أغلبية أعضاء الحزب حتى وقوع الغزو سنة ٢٠٠٣. وتأكيدا لهويته الوطنية، لم تكن تقارير إحصاءات البعث وسواها من الوثائق الرسمية عموما تسجل أو تهتم بتركيبة السكان الدينية أو الطائفية أو العرقية. كما إنها امتنعت عن

(٤٩) «مؤلفات الرفيق فهد، في يوم النساء العالمي ٨ آذار،» **القاعدة** (بغداد)، ٩-١١/ ٨/ ١٩٤٤.

(٥٠) خطاب صدام حسين «المرأة نصف المجتمع» في المؤتمر الثالث للاتحاد العام لنساء العراق بتاريخ ١٧ نيسان/ أبريل ١٩٧١.

تسجيل الشخصيات البارزة بأسماء العشيرة أو العائلة إذا كانت تلك الأسماء تدل على دين أو طائفة أو عرق.

ـ ٩ ـ

في السبعينيات، أمم نظام البعث شركات النفط الأجنبية[٥١]، ليحقق العراق أخيراً سيادته الكاملة على أثمن موارده الطبيعية. كان المال وافراً، وجرى استثمار معظم الثروة النفطية في تطوير صناعة النفط، وفي مشاريع إنشائية وصناعية، وفي برامج إسكانية وزراعية، وفي التعليم والخدمات الصحية، وفي برامج ثقافية ومهرجانات ومناسبات دولية مهمة.

وكجزء من التنمية الاجتماعية والاقتصادية الشاملة، كانت هناك إنجازات حقيقية متعلقة بحقوق المرأة في التعليم والعمل والثقافة. وقد أكد دستور ١٩٧٠ على «المساواة بين المواطنين جميعاً أمام القانون بصرف النظر عن الدين أو اللغة أو الجنس». ووجه الدستور الدولة لمحو الأمية وضمان حق المواطنين في التعليم المجاني، من المرحلة الابتدائية إلى المرحلة الجامعية، وكذلك ضمان فرص العمل المتساوية من دون تمييز.

بيد أن الدستور منح أيضاً مجلس قيادة الثورة سلطات واسعة، أُتبعت لاحقاً بتعديلات إضافية منحت صدام حسين، كرئيس لمجلس قيادة الثورة، مزيداً من السلطات[٥٢]. وكانت فرص العمل المتكافئة جزءاً مهماً من سياسة النظام لتحسين مكانة المرأة، ولذا سُنت تشريعات عدة، مثل قانون العمل رقم ١٥١ لسنة ١٩٧٠، الذي خفض ساعات عمل النساء خلال فترة الحمل ومنحهن حق إرضاع أطفالهن، وتعديل قانون الخدمة المدنية رقم ٤٤ لسنة ١٩٧٧، الذي نص على أن للنساء الحق في تقاضي راتب كامل خلال إجازة الحمل البالغة ٧٢ يوماً[٥٣]. وصدرت بعد ذلك تشريعات أخرى. وكان ينبغي أن يتقاضى الرجال والنساء رواتب متساوية لقاء أعمال متساوية، ويحقّ للنساء العاملات في القطاع الحكومي

---

(٥١) في ١حزيران/ يونيو ١٩٧٢، أُنشئت الشركة العراقية للعمليات النفطية (ICOO) لتتولى شؤون منشآت شركة النفط العراقية (IPC). وبحلول سنة ١٩٧٥، تم تأميم المصالح الأجنبية الأخرى كلها.

(٥٢) Helen Chapin Metz, ed., *Iraq: A Country Study*, Area Handbook Series, DA pam; 550-31 (Washington, DC: Federal Research Division, 1988), < http://countrystudies.us/iraq >.

(٥٣) Sana Ayoub Sabri al-Khayyat, «The Position of Iraqi Women within the Family: With Particular Reference to Married Women,» (Ph. D. Dissertation, University of Keele, 1985), p. 85.

الحصول على إجازة أمومة مدتها سنة واحدة، وكن يتلقين راتباً كاملاً في الأشهر الستة الأولى من الإجازة ونصف راتب في الأشهر الستة التالية. واعتبر دخل الزوجة مستقلاً عن دخل زوجها. وكان لها الحق في الحصول على أرض زراعية والحق في التصرف فيها.

في سنة ١٩٧٤، أصبح التعليم مجانياً في المراحل الدراسية كافة، وفي سنة ١٩٧٩ جُعل إجبارياً للبنات والبنين حتى سن الثانية عشرة. وقد أمنت هذه التشريعات القانونية إطاراً صلباً للارتقاء بالمرأة وتعزيز دورها في المجتمع. وكانت ذات صلة مباشرة بتعليم المرأة وصحتها وعملها ورفاهها الاجتماعي(٥٤). وبالإضافة إلى بناء دور للحضانة ملحقة بأماكن عمل النساء، تم أيضاً اتخاذ إجراءات لضمان حصول المرأة على فرص في ميادين عمل غير تقليدية.

تم الاعلان عن حق المرأة في التصويت في الانتخابات الوطنية في سنة ١٩٦٧. ووسع ذلك الحق سنة ١٩٨٠ ليشمل الحق في الترشّح. وأيدت سياسة الدولة خلال الستينيات والسبعينيات إنشاء بنية تحتية مادية واجتماعية واسعة وموزعة بصورة جيدة. وضمنت الخدمات العامة، بما فيها شبكة مترامية من المراكز الصحية الحسنة العدة والعدد، وحق السكان في الحصول على الرعاية الصحية لتزودهم بالأدوية والإمدادات الطبية والمعدات على نحو واف بالحاجة. وربما كان النظام الصحي العراقي واحداً من أفضل الأنظمة في الشرق الأوسط(٥٥).

في ذلك الوقت كان الناس عموماً مستعدين للتنازل عن حرية التعبير والصحافة والتنظيم السياسي المستقل في مقابل إدخال التحسينات على الاقتصاد والصحة والتعليم والحياة الاجتماعية. وجنح الأكراد، الراغبين بالحصول على الاستقلال التام، للسلم جزئياً باتفاق ١١ آذار/مارس ١٩٧٠ الذي أتاح لهم حكماً ذاتياً. وأخذ معظم معارضي نظام البعث من الكتاب والشعراء ومثقفي الحزب

---

(٥٤) ذكر مكتب الإحصاء العراقي أن النساء شكّلن في سنة ١٩٧٦ قرابة ٣٨,٥ بالمئة من المعلمين، و٣١ بالمئة من الأطباء، و٢٥ بالمئة من تقنيي المختبرات، و١٥ بالمئة من المحاسبين، و١٥ بالمئة من الموظفين المدنيين. انظر: «Background on Women's Status in Iraq Prior to the Fall of the Saddam Hussein Government,» Human Rights Watch Briefing Paper (November 2003), <http://www.hrw.org/backgrounder/wrd/iraq-women.htm>.

(٥٥) G. R. Popal, «Impact of Sanctions on the Population of Iraq,» *Eastern Mediterranean Health Journal*, vol. 6, no. 4 (July 2000), pp. 791-795.

الشيوعي يتقبلون قيادة حزب البعث بالتدريج بوصفها نسخة من سلوك «الطريقة غير الرأسمالية»، فعاد المئات منهم إلى مواقعهم الرسمية التي كانوا قد أُقصوا عنها في وقت سابق. أعقب ذلك تصفية الفئة المستقلة المنشقة عن الحزب الشيوعي، الذي لم يغفر للبعث سياساته السابقة وتعاونه مع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية في الانقلاب الدموي سنة ١٩٦٣، وفترة الترويع والعنف التي أشاعهما الحرس القومي ولم يشهد العراق مثيلاً لها من قبل.

كنت من أعضاء هذا التنظيم، وهو الحزب الشيوعي العراقي ـ القيادة المركزية، حين زُج بي في السجن سنة ١٩٧٢. وكانت القيادة المركزية مجموعة ثورية في الحزب الشيوعي العراقي حين نشأت في منتصف الستينيات. وقد عارضت سياسات الحزب الشيوعي العراقي المتعاونة مع الحكومات المرتبطة بالاتحاد السوفياتي. وفي أواخر الستينيات، تحولت القيادة المركزية إلى مجموعة قوية داخل الحزب الشيوعي العراقي، ونادت بالنضال المسلح في محاولة لاستنهاض الجماهير، مستلهمة في ذلك الثورة الكوبية والنضال في فييتنام.

رأت القيادة المركزية التقارب بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي مساومة على حساب كفاح العالم الثالث. وكان هدفنا إطاحة نظام البعث العسكري، ودعم تحرير فلسطين، ومساندة حق الأكراد في تقرير المصير ضمن عراق ديمقراطي موحد. لم يكن المقصود بالديمقراطية الاعتماد على العملية الانتخابية فحسب وإنما أيضاً على سياسة اقتصادية تهدف إلى توطيد الحقوق المتساوية للجماهير.

في الأشهر القليلة الأولى التي تلت انقلاب البعث سنة ١٩٦٨، وجه النظام ضربة قوية إلى القيادة المركزية. وجرى اعتقال معظم القيادات وقتلهم تحت التعذيب، بينما تحوّل عدد من أعضاء القيادة إلى متعاونين[٥٦]. وفي اشتباك في الجنوب، قُتل خالد أحمد زكي، الذي كان قد عاد من المنفى إلى العراق ليقود مجموعة من الشيوعيين الشباب في عمليات الكفاح المسلح. لم أعرفه شخصياً لأني انضممت إلى مجموعة القيادة المركزية بعد وفاته، لكنني، مثل العديد من الشباب اليساري، تأثرت بأفكاره وحياته الثورية، التي أعادت الأمل في مستقبل الكفاح ضد النظام البعثي العسكري والحزب الشيوعي الموالي

(٥٦) كان منهم عزيز الحاج، الأمين العام، الذي ظهر على شاشة التلفزيون العراقي ودعا الخصوم السياسيين إلى التعاون مع البعث. وقد كافأه النظام بتعيينه سفيراً للعراق إلى اليونسكو في باريس، وأيد الحاج في وقت لاحق غزو العراق الذي قادته الولايات المتحدة.

للسوفيات. وكان خالد، بالنسبة إلى البعض، شبيها بالثوري تشي غيفارا[٥٧].

كان خالد من بين آلاف الطلاب الذين حصلوا على منح دراسية من الحكومة العراقية وأرسلوا بعد ثورة ١٩٥٨ إلى أفضل الجامعات في العالم لدراسة الهندسة الميكانيكية والعلوم. وكان للمتخرجين دور حاسم في التطور التقني والفكري السريع في العراق من السبعينيات فصاعداً. وتولى خالد قيادة اتحاد الطلبة العراقيين في لندن وكان باحثاً في مؤسسة برتراند راسل. ولدى عودته إلى العراق، شكل مجموعة الكوادر الثورية ضمن الحزب الشيوعي العراقي، ونظم مجموعة الكفاح المسلح في مناطق الأهوار النائية والمحرومة في الجنوب. وقد حاول خالد تطبيق مبدأ أن الثورة يجب أن تكون حدثاً واعياً ومحرضاً عليه لا حدثاً ينضج عبر ديناميات غامضة[٥٨].

في داخل العراق، استمر عدد قليل من خلايا القيادة المركزية في العمل في السبعينيات، وكانت تضم في الأغلب عمالاً وطلاب جامعات. وكنت ناشطة ضمن إحدى تلك الخلايا. كنا مجموعة من الحالمين المستقلين الذين واصلوا النضال

---

(٥٧) كان منذر الأعظمي، وهو أكاديمي عراقي، قد التقى خالد لفترة وجيزة في لندن سنة ١٩٦٥، وكتب عنه قائلاً: «كان اليأس من الحزب الشيوعي العراقي يتزايد بيننا إلى جانب الإقرار بعقم التجربة السوفياتية. وقد أحيا ذلك اللقاء القصير في لندن آمالي بالمثل الثورية وحتى بالحزب الشيوعي العراقي نفسه. لقد بثّ خالد بفكره وحيويته وتواضعه القوة والتفاؤل والالتزام».

(٥٨) لم يُكتب الكثير عن نشاط القيادة المركزية في المنفى، رغم أن بعض الأعضاء هم الآن مسنون، مما يحتّم تسجيل شهاداتهم. وقد كتب منذر، الذي انتقل إلى لندن ليتابع دراسته، شهادته عن القيادة المركزية وخالد: «في زيارة إلى العراق قُطعت على عجل في أواخر سنة ١٩٦٨، التقيت أصدقاء قدامى كانوا يعملون مع خالد، بمن فيهم رافع الكبيسي وسامي محمود علي. وسرعان ما قتلوا وهم يناضلون: قتل رافع في مواجهة مسلحة في الأهوار، ومات سامي تحت التعذيب في سجن قصر النهاية. وكان ذلك بالنسبة إليّ حافزاً للانخراط في شؤون اليسار السياسية. وشكّلنا «لجنة الدفاع عن الشعب العراقي»، بالتعاون مع مؤسسة راسل في لندن، الأمر الذي أدى إلى قيام السفارة العراقية بسحب جواز سفري. كان اسم اللجنة والارتباط بالمؤسسة استمراراً لعمل خالد عقب الانقلاب الذي نفذه البعث سنة ١٩٦٣. وتشكلت في السبعينيات مجموعة ضمن اتحاد الطلبة العراقيين معارضة لخط قيادة الحزب الشيوعي العراقي وتعاونه مع البعث. شكّلنا أنفسنا في التجمع الثوري العراقي كماركسيين ثوريين متنورين وأصدرنا مجلة دورية بعنوان **النصير** وكتبنا فيها بأسماء مستعارة. وعلى ما يظهر، كان للأعداد الثلاثة عشر من المجلة، التي توليت تحريرها مع المهندس طلعت البنا، بعض التأثير الفكري، وجرت إعادة نشر القليل من مقالاتها في صحف عربية مثل **الراية** في بيروت. وأقمنا صلات مع مجموعات فلسطينية، ثم ألحقنا أنفسنا بالتدريج بمجموعة باقية من تنظيم خالد، برئاسة إبراهيم علاوي وواصلنا النضال. وهذه هي المجموعة نفسها التي انضمت إليها هيفاء زنكنة في بغداد وكردستان. وفي الخارج، وبعيداً عن مناورة القادة باتصالات سورية وكردية، ضغطنا باتجاه جبهة يسارية ديمقراطية أوسع لمواجهة نظام البعث. وثبت مع الزمن أن الصلة مع بقية القيادة المركزية كانت خيبة أمل كبيرة، ودليل على سذاجتنا». رسالة خاصة في ١٧ آذار/ مارس ٢٠٠٧.

السري لقلب نظام البعث. وكنت أرتدي العباءة التقليدية التي توفّر لي الستر الذي أحتاج إليه عند السفر من المدن الرئيسية إلى المناطق الريفية النائية، ومن القرى الجبلية في كردستان في الشمال إلى الأهوار العربية في الجنوب. وكنت اضطر أحياناً إلى المرور بالعشرات من نقاط التفتيش. وكوني امرأة في لباس تقليدي في المناطق الريفية جعلني رسولة مثلى بين ثلاث مجموعات: واحدة في بغداد، حيث كنت مسؤولة التنظيم النسوي وعضو اتحاد الطلاب، وواحدة في كردستان، حيث أنشئت قاعدة يقيم فيها العديد من الرفاق قرب قرية ناوجلكان، وواحدة في الأهوار العربية، قرب العمارة، في الجنوب.

كانت ناوجلكان القاعدة العسكرية التي التقيت فيها بعشرات المقاتلين، كان بعضهم مقيماً بصورة دائمة، وآخرون مثلي مقيمين لفترة وجيزة، إما لتلقي التدريبات العسكرية وإما لإحضار أسلحة ومنشورات وتلقّي التعليمات. كان الموقع يضج بالحماسة والحلم بعالم أفضل، في بلد يلفه الغموض. وقد جذب شبابا يطالبون بحركة عراقية مستقلة تعمل من أجل مستقبل أفضل.

لم يُكتب إلا القليل جداً عن هذا الفصل من النضال العراقي، عن شهدائه، عن الروح المثالية فيه. ولا تزال هذه الفجوة قائمة من قبل طرفي الحزب الشيوعي العراقي، حتى بين المعارضين للتعاون مع الاحتلال، الأشخاص الذين لا يزالون ينظرون إلى النضال من زاوية التناحر ضمن آلة الحزب، أو الذين يحطون من شأن القيادة المركزية بسبب حداثة سن المنخرطين فيها. وتلتزم القلة الناجية من القيادة المركزية الصمت على نحو غريب، وكأنما الاحساس بالذنب بين الناجين من الموت أكبر من أن يُخترق.

قُتلت مجموعات بغداد والمجموعات الجنوبية في وقت لاحق، وتم إعدام الكثيرين في سجن أبو غريب، وعانت المجموعة الشمالية من الاختراق والتناحر الداخلي الارتيابي والصفقات المشبوهة مع القيادات الكردية، وانهارت القيادة المركزية أخيراً مع انهيار التمرد الكردي سنة ١٩٧٤[٥٩].

في ذلك الوقت، شارك الشيوعيون الموالون للسوفيات في حكومة الجبهة الوطنية التقدمية بتشجيع من الاتحاد السوفياتي، الذي كان قد وقع معاهدة صداقة

(٥٩) مجموعة مستقلة من المفكرين في بريطانيا تشكلت حول مجلة **النصير** دعماً للنضال الثوري في العراق. وقد التحقت وقتذاك ببعض الكوادر التي نجت من حملات التطهير والمجازر لكنها تفككت في الثمانينيات.

مع نظام البعث. لكن الوضع كان أعقد من مجرّد احتكار حزب البعث السلطة. فموقف الشعب العراقي من الحزب وقيادته، وخصوصاً صدام حسين، كان معقداً ومتغيراً حسب الاحداث والمتغيرات السياسية والاقتصادية. فقد عمل النظام على وضع الأسس من أجل تنمية واعدة في العراق. وساد الإحساس بالرخاء الاقتصادي والارتفاع السريع في مستوى المعيشة. كما أنّ مؤازرة النظام للشعب الفلسطيني وارتباطه الحميم بحركات اليسار العالمي أجبرا المثقفين القلائل الذين واصلوا انتقاد اضطهاد النظام لمعارضيه، إلى جانب ممارسات التعذيب وقمع حرية الكلام، على ترك البلد للعيش في المنافي.

إلا أن التطور السياسي السلمي نسبياً لم يدم. فاستغلت الحكومة الانقسامات الداخلية الكردية بين الطالباني والملا مصطفى البرزاني لمواجهة سياسة الملا وقيادته التاريخية. واضطهد الحزب الديمقراطي الكردستاني، الذي انحاز إلى إيران، وأُكرهت قيادته على الرحيل إلى المنفى. وطُرد الشيوعيون من الحكومة، وسُجن بعضهم أو قُتل، وفر الآلاف منهم من البلد. وانتهت السبعينيات بالثورة الإيرانية، وصعود الإسلام السياسي، والخشية من محور إيراني ـ سوري، وتولي صدام حسين السلطة بكاملها في انقلاب بعثي داخلي دموي. وقعت كل هذه الأحداث في ذروة التنمية الاقتصادية العراقية.

ـ ١٠ ـ

طالما تميزت العلاقة بين ايران والعراق بالتوتر على مستوى الدولة، فضلاً عن الروابط الوثيقة على المستوى الاجتماعي، وهي علاقة متجذرة لاسباب عديدة هي مزيج من الجغرافيا والثقافة والتاريخ الذي يرقى إلى آلاف السنين. غير أن القوميين العراقيين في الأزمنة الحديثة ـ سواء في العهد الملكي أم في الجبهة الجمهورية لثورة ١٩٥٨ ـ قد نظروا إلى إيران بوصفها تهديداً. وقد أنحى العراق باللائمة على السياسة الاستعمارية البريطانية، التي هيأت لإيران ضم محافظة خوزستان الاستراتيجية العربية اللسان والغنية بالنفط على ثغر الخليج ـ وهي منطقة كانت جزءاً من محافظة البصرة العراقية. وشكل ذلك، مع الكويت، سيطرة قوية على منفذ العراق الوحيد إلى البحر لمصلحة منطقة داخلية ذات لغة مختلفة. وواصلت إيران رفضها لإنهاء ترسيم الحدود، وخصوصاً على امتداد طريق شط العرب الملاحي.

توحد القوميون العراقيون وغير العراقيين ضد إيران في عهد الشاه، الذي

كان أحد أركان السياسة الأمريكية وحليفاً صريحاً لإسرائيل. وتآمرت إيران على الجمهورية العراقية بالتعاون مع فلول النظام الملكي واستغلت القادة الأكراد القوميين ضد الحكومات العراقية. وفي المقابل، دعم العراق خصوم الشاه بمن فيهم آية الله روح الله الخميني، الزعيم العتيد للجمهورية الإسلامية، الذي كان يقيم في مدينة النجف ويعمل بحرية فيها على مدى أربع عشرة سنة، إلى ما قبل أسابيع قليلة قبل الثورة الإيرانية. وأخذ نظام البعث يبعد أشخاصاً من أصول إيرانية، ويصادر أملاكهم. وفي هذا الجو الذي سيطرت عليه نزعة الارتياب المضخمة والشك بصورة متزايدة، صار ينظر إلى آلاف العراقيين إما كمصدر خطر أمني بالعمل لمصلحة النظام الإيراني مباشرة وإما كقاعدة اجتماعية لسلطات دينية إيرانية الهوى وغير مرغوب فيها. وقد دقعت إجراءات الإبعاد القسري بعض العراقيين إلى تأييد الغزو الأمريكي ـ البريطاني سنة ٢٠٠٣، وكان كثيرون منهم من ذرية أولئك الذين أبعدهم البعث إلى إيران في الثمانينيات.

في السبعينيات، بدأت تغييرات سريعة تطرأ على العلاقات العراقية ـ الإيرانية. فمن أجل سحق الانتفاضة الكردية المتصاعدة التي كانت تهدد حقول النفط بالمدفعية الإيرانية، رضخ صدام حسين لمطالب الشاه بشأن مناطق حدودية مهمة في شط العرب، فانهار التمرد الكردي بين عشية وضحاها، وأخذ العراق وإيران يعملان معاً في منظمة الدول المصدرة للنفط «أوبك». وسرعان ما بدأت التحركات الإسلامية تتنامى في إيران، ووقفت الولايات المتحدة في صف جماعات حقوق الإنسان، وفي سنة ١٩٧٩ أُسقط الشاه. بيد أن الثورة الإيرانية ولدت زخماً إسلامياً، أخذ يشكل تهديداً راديكالياً وصدامياً ضد النظام العراقي وضد أنظمة عربية أخرى. وانقسم العالم العربي، فوقفت سوريا وليبيا إلى جانب إيران، وانضم العراق إلى المعسكر المناهض لإيران، بصرف النظر عن مدى الاختلاف بينهما في الموقف من الغرب وإسرائيل.

اعتقد الخميني أن الشيعة المضطهدين في العراق والعربية السعودية والكويت سيقتدون بالنموذج الإيراني وينقلبون على حكوماتهم للالتحاق بجمهورية إسلامية موحدة. وكان يعتبر نظام صدام البعثي القومي العربي العلماني «غير إسلامي» و«لعبة للشيطان»، ودعا الخميني العراقيين إلى الإطاحة به. وتلا ذلك هجوماً دموياً بالغ التأثير على الكعبة في مكة المكرمة في المملكة العربية السعودية، وبداية الجهاد ضد القوات السوفياتية التي كانت قد احتلت حديثاً أفغانستان. وسرعان ما نشأت عداوة عالمية شملت السعوديين الذين يناصرون الإسلام السني

الأصولي للوقوف في وجه النفوذ الإيراني. في تلك السنة، ولمواجهة التحالف الإيراني السوري، تقلد صدام حسين السلطة كاملة. وأخذ العراق يقدم الشكوى تلو الشكوى إلى الأمم المتحدة عن الغارات الحدودية الإيرانية والخطب النارية عن الثورة الإسلامية داخل العراق. بعد ذلك، في أثناء أزمة الرهائن بين الولايات المتحدة وإيران، ومن دون وجود أي علاقات دبلوماسية مع الولايات المتحدة، هاجم صدام إيران، البلد الذي يبلغ ثلاثة أضعاف العراق من حيث المساحة وعدد السكان، آملاً بأن يحقق نصراً سريعاً، لكن الهجوم تحول إلى أطول حرب في القرن العشرين.

بما أن البلد كان في حالة حرب، اعتبرت أي محاولة لمهاجمة أو انتقاد الحكومة «الوطنية» عملاً غير وطني؛ فقوبلت أعمال الاضطهاد الواسعة ضد أعضاء حزب الدعوة الإسلامي، بمن فيهم النساء، بالصمت، أو بُررت كإجراء من إجراءات الدفاع الوطني عن النفس في وجه «العدو الفارسي». وتم إعدام الناشطة الإسلامية بنت الهدى الصدر مع شقيقها الإمام محمد باقر الصدر، عقب ثلاثة أيام من التعذيب(٦٠).

قرر الشيوعيون، بعد طردهم من الحكومة ونفيهم، الشروع في مقاومة مسلحة قاعدتها المنطقة الكردية، التي أرسلوا إليها المئات من كوادرهم، بمن فيهم النساء. وكانت بعض النساء الناشطات قد سجن أو أُعدمن. وفي سنة ١٩٨١، نظمت رابطة المرأة العراقية مؤتمرها الرابع في بيروت، متحدية قرارها السابق الذي قضى بتعليق نشاطاتها، وأصدرت بياناً دانت فيه جرائم نظام البعث وأوردت قائمة بأسماء خمس وخمسين امرأة معتقلة(٦١).

رأت الولايات المتحدة أن أي انتصار تحققه إيران لن يكون في مصلحتها، فراحت تدعم العراق. وفي شباط/فبراير ١٩٨٢، رفعت وزارة الخارجية الأمريكية اسم العراق عن لائحتها بالدول الداعمة للإرهاب الدولي. وعلل النظام العراقي صلاته بالإدارة الأمريكية، وضمنها علاقته بدونالد رامسفيلد في سنة ١٩٨٣، بأنها صلات استراتيجية في وقت كان البلد يدافع عن نفسه ضد عدو يهدد

(٦٠) كانت أمينة حيدر الصدر (١٩٣٨ - ١٩٨٠)، المدعوة بنت الهدى أيضاً، في العشرينيات من عمرها عندما بدأت كتابة مقالات في **الدعوة**، المجلة الإسلامية التي كان علماء النجف يطبعونها سنة ١٩٥٩. وكنت روائية أيضاً. وقد أُعدمت في سنة ١٩٨٠، وكانت ابنة عم الزعيم الديني مقتدى الصدر.

(٦١) خيري، **المرأة العراقية كفاح وعطاء**، ص ١٢٣.

بزعزعة استقرار المنطقة. وكان النظام أيضاً يخوض الحرب بالنيابة عن دول الخليج العربية في مواجهة تهديدات الثورة الإسلامية.

جرى استخدام الأسلحة الكيميائية، التي زود الغرب النظام العراقي والايراني بها، من قبل الجهتين المتحاربتين بشكل يومي تقريباً، وضد التمرد الكردي أيضاً. ووقعت مجزرة حلبجة سنة ١٩٨٨ فيما مضى التدمير الممنهج للقرى الكردية دون هوادة. وقررت إدارة ريغان أن تقصر «جهودها ضد برنامج الأسلحة الكيميائية العراقي على المراقبة الدقيقة بسبب حيادنا الصارم في حرب الخليج، وحساسية المصادر، وضعف احتمال تحقيق النتائج المتوخاة»(٦٢).

كان «قتال العدو» بالنسبة إلى نظام البعث مماثلا لاعلان الإدارة الأمريكية «الحرب على الإرهاب». فقد تلقّى البعث، بقيادة صدام الذي أصبح في منزلة البطل، الدعم من معظم العراقيين وكان له مناصرون في العالم العربي، وأحدث انقسامات حتى داخل الأحزاب الشيوعية. وفر معارضون عراقيون، وخصوصاً المتعاطفون مع حزب الدعوة الإسلامي، إلى إيران وسوريا، فشكلوا سلسلة من مجموعات اللاجئين السياسيين التي تحولت لاحقاً إلى قاعدة دعم للغزو الأمريكي واحتلال العراق.

طرأ تغيّر ملحوظ على وضع المرأة الاجتماعي والاقتصادي خلال الثمانينيات. فعلى الصعيد الاجتماعي، في أعقاب الثورة الإسلامية في إيران، كان ثمة ارتفاع بطيء في المواقف المحافظة من عمل المرأة، لكن بوجود مليون رجل في ساحات القتال، وتزايد الخسائر في الأرواح، آلت نسبة عالية من الوظائف إلى النساء، بما في ذلك الأعمال في الجيش(٦٣). وكان على النساء في الوقت نفسه مواصلة رعاية الشؤون المنزلية والأطفال والعدد المتزايد من الأقارب المعوقين من الذكور، والامتثال لسياسة الحكومة بتأدية واجبهن الوطني بإنجاب المزيد من الأطفال ـ للتعويض عن قتلى الحرب ومواجهة سكان العدو الأكثر عدداً. واتُّخذت إجراءات جذرية، فحظر، لأول مرة منذ تأسيس عيادات تنظيم الأسرة، بيع وسائل منع الحمل.

---

(٦٢) Joyce Battle, ed., «Shaking Hands with Saddam Hussein: The U.S. Tilts toward Iraq, 1980-1984,» National Security Archive Electronic Briefing Book; no. 82, 25 February 2003, <http://www.gwu.edu/~nsarchiv/NSAEBB/NSAEBB82>.

(٦٣) كان الكثير من الأعمال اليدوية، بما فيها الزراعة، يقوم بها عمال مصريون مهاجرون قدّر عددهم أحياناً بمليون عامل. وكان المزيد من الوظائف والمهن متاحاً للنساء.

لكن في السنوات الخمس الأولى من الحرب، وفيما كان الاقتصاد لا يزال منتعشاً، أولت الحكومة عائلات أبطال الحرب والشهداء الرعاية بشكل سخي، إذ خصصت الاعانات للوالدين والإخوة والأخوات وكانت الأرامل واليتامى يتلقون رواتب شهرية. لكن تعاظم التكاليف المالية بسبب الحرب التي طالت على نحو غير متوقع وبمرور الوقت، لم تجد الحكومة، مفراً من تقليص تقديماتها.

بموجب قانون أُقر سنة ١٩٧٧، أصبحت النساء يتقلّدن رتبة ضابط إذا كن يحملن شهادة جامعية ذات صلة بالمهن الصحية، وصار يمكن تعيينهن ضباط صف في مؤسسات الجيش الطبية إذا كن ممرضات مؤهلات. وقد أدى عدد متزايد من النساء وظائف قتالية بعد سنة ١٩٨١، سواء في سلاح الجو أو في قيادة الدفاع الجوي. وفي سنة ١٩٨٧، تم تشكيل الجيش الشعبي وكانت النساء أعضاء فيه. وكانت الفتوة، التي أُسست سنة ١٩٧٥، منظمة شبه عسكرية لطلاب المرحلة الثانوية. وكان في وسع الفتيان والفتيات بين سن الرابعة عشرة والثامنة عشرة الالتحاق بالفتوة وتلقي التدريبات على الأسلحة الخفيفة واستخدام القنابل اليدوية والقيام بأعمال الدفاع المدني(٦٤).

لذا، تلقّى كثير من الرجال والنساء تدريباً عسكرياً. ويمكن أن يفسر ذلك التطور السريع للهجمات التي تشنّها المقاومة اليوم، مع تزايد تطور العبوات الناسفة التي تزرع على جوانب الطرق واستخدام «الأجهزة المتفجرة المحلية الصنع». وتتعارض هذه الحقيقة مع زعم الاحتلال أن المقاومين العراقيين دُربوا على أيدي عناصر أجنبية أو القاعدة وأن هذه العناصر تقودهم.

خلال الحرب، ركز الاتحاد العام لنساء العراق على الترويج لأيديولوجية النظام في الإعلام، في العالم العربي والإسلامي، وعلى الصعيد الدولي، وتابع في الوقت نفسه عمله في صفوف النساء العراقيات، وخصوصاً نساء الأرياف. وشارك الاتحاد أيضاً في حملة الحكومة لمحو الأمية، وهي الحملة التي كانت تُعتبر من حكايات النجاح الرائعة التي سطرها نظام البعث(٦٥).

---

(٦٤) «Paramilitary Forces,» in: Metz, ed., *Iraq: A Country Study*, <http://countrystudies.us/iraq/95.htm>.

(٦٥) Karim Hamza, «Evaluating the Status of Iraqi Women in Light of the Beijing Platform for Action,» United Nations Development Fund for Women (UNIFEM) (2004), <http://www.iknowpolitics.org/en/node/35>.

مع طول أمد الحرب، واجهت الحكومة معضلة تتعلق بالتعليم. فبالرغم من النقص في القوة البشرية إبان الحرب، لم يكن النظام راغباً في تجنيد طلاب الجامعات، وحجته في ذلك أن هؤلاء الشبان والشابات هم أمل العراق في المستقبل. وكانت الحكومة منذ سنة ١٩٨٨ تستثني الطلاب من الخدمة العسكرية إلى حين التخرّج، وهذه سياسة تمسكت الحكومة بها بقوة(٦٦).

في حزيران/يونيو ١٩٨٠ أُجريت أول انتخابات برلمانية منذ ثورة ١٩٥٨، واجتمعت الجمعية الوطنية الأولى في نهاية ذلك الشهر. وكما كان متوقعاً، فاز مرشحو حزب البعث بـ ٧٥ بالمئة من المقاعد، أي ١٨٧ مقعداً من مجموع ٢٥٠ مقعداً. وفازت بالـ ٢٥ بالمئة الباقية أحزاب متحالفة مع البعث. وفي انتخابات الجمعية الوطنية الثانية في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٤، انتُخبت ٣٣ امرأة في الجمعية. وبقيت السلطة السياسية الفعلية في قبضة حزب البعث المحكمة.

في نهاية الأمر كانت الحرب مدمرة. فقد استخدم كلا الجانبين أسلحة وتكتيكات وحشية، وأقدم نظام البعث على التمثيل بخصومه السياسيين والفارين من ميدان القتال وإعدامهم. وأُجبرت عائلات الذين أُعدموا على دفع ثمن رصاصات الإعدام كي تتسلم جثث أبنائها (كما حدث لابن عمتي فؤاد ضياء العزاوي). ونتج من ذلك آلاف من الشبان المعوقين والأرامل والأيتام وأسرى الحرب، وتدهور الاقتصاد والتنمية البشرية، وجيل من الرجال والنساء والأطفال المصابين بأمراض نفسية.

في التسعينيات، حدث تبدل بارز في مشاعر الشعب العراقي ومواقفه تجاه حزب البعث وصدام حسين. حتى ذلك الحين، كان البعث يضم أكثر من مليون عضو؛ وكان بعض الأعضاء مؤمنين صادقين، بينما الباقون يسمون «بعثيون بالتوقيع»، أي أولئك الذين كانوا يضطرون إلى توقيع استمارات العضوية كي يحصلوا على وظائف عمل أو مناصب رسمية أو تعيينات جامعية أو منافع أو مكاسب شخصية. كان العراقيون منهكين من الحرب الإيرانية العراقية التي استمرت ثماني سنوات، لكن سرعان مازجّ بهم في حرب أخرى مدمرة عقب غزو الكويت، من دون أن تتاح لهم الفرصة لاستعادة قواهم. فقد اتهمت الحكومة العراقية الكويت ودول الخليج بتنفيذ أجندة أمريكية لإضعاف العراق في

(٦٦) «Education and Welfare,» in: Metz, ed., Ibid., <http://countrystudies.us/iraq/45.htm>.

أعقاب «انتصاره» في الحرب الإيرانية ـ العراقية. كما اتُهمت الكويت بإغراق السوق العالمية بالنفط وإنتاج النفط بصورة غير شرعية من حقل الرميلة، بالإضافة إلى مطالبتها باستعادة ما دفعته من أموال كان يُظن أنها هبات.

عشية الغزو، استدعى صدام حسين السفيرة الأمريكية آبريل غلاسبي إلى مكتبه. وخلال اللقاء، أشارت غلاسبي إلى أن الولايات المتحدة لن تعارض خططه. وقالت غلاسبي: «إني معجبة بجهودك غير العادية لإعادة بناء بلدك. أعلم أنك بحاجة إلى الأموال. نحن نتفهم ذلك، ورأينا هو أنه ينبغي أن تحظى بالفرصة لإعادة بناء بلدك. لكن لا رأي لنا في الصراعات العربية ـ العربية مثل خلافك بشأن الحدود مع الكويت»[٦٧].

رداً على الغزو، قصفت الولايات المتحدة العراق مدة ستة أسابيع، فدمرت محطات الطاقة ومصافي النفط ومعامل معالجة المياه ومعامل تكرير مياه المجارير، ولوثّت البلد بالقنابل المعزّزة باليورانيوم المنضب. وفرض قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٦٦١ العقوبات الاقتصادية التي استمرّت ثلاث عشرة سنة، أو «الحصار»، كما سماها العراقيون، في ٦ آب/أغسطس ١٩٩٠[٦٨]. وقد ألحق الحصار الأذى بكل مناحي الحياة العراقية، فكان سبباً للموت والمرض والتردي الاقتصادي السريع، ووضع حداً تقريباً لكل ضروب التنمية البشرية. وتراجعت أجور الرعاية الصحية والأجور الأكاديمية مما كان متوسطه ٢٠٠ دولار شهرياً قبل الحصار إلى ٣ ـ ١٠ دولارات خلاله، أي ما يعادل ثمن كيلوغرام واحد من اللحم أو بضع كيلوغرامات من الطحين. ولكي يحافظ العراقيون على معيشتهم، اضطروا إلى بيع كل شيء مادي ذي قيمة. وبحلول منتصف التسعينيات، كان نصف مليون طفل قد ماتوا، وهذه جريمة اعتبرها الكثيرون إبادة منظمة[٦٩]. وعندما ووجهت مادلين أولبرايت، سفيرة الولايات المتحدة إلى الأمم المتحدة في

---

(٦٧) «Persian Gulf War: Set up of Iraq,» Iraq Resource Information Site, <http://www.geocities.com/iraqinfo/gulfwar/setup.html>.

(٦٨) تضمنت العقوبات حظراً تاماً على التجارة منعت فيه الواردات من العراق والصادرات إليه، باستثناء المؤن الطبية والمواد الغذائية ومواد أخرى لحاجات إنسانية فقط، كما قضت لجنة العقوبات التابعة للأمم المتحدة، التي أُنشئت بموجب القرار رقم ٦٦١.

(٦٩) قال دنيس هاليداي، المساعد السابق للأمين العام للأمم المتحدة، والمنسق الإنساني الدولي لبرنامج النفط مقابل الغذاء من أيلول/ سبتمبر ١٩٩٧ إلى أيلول/ سبتمبر ١٩٩٨، إن العقوبات ضد العراق تعادل «الإبادة». انظر: Mark Siegal, «Former UN Official Says Sanctions against Iraq amount to «Genocide»,» *Chronicle Online*, 30/9/1999, <http://www.news.cornell.edu/chronicle/99/9.30.99/Halliday_talk.html>.

ذلك الوقت، بمثل تلك الإحصاءات سنة ١٩٩٦، صرحت بأن تغيير نظام صدام «يستحق الثمن»[٧٠]. وقدرت اليونيسف أن سنوات العقوبات الخمس الأولى على العراق أسفرت عن وفاة هؤلاء النصف مليون طفل عراقي وهم دون الخامسة من العمر. وأجبر الاحتجاج العام الدولي المندد بظلم العقوبات التي فرضها مجلس الأمن الدولي على إطلاق برنامج النفط مقابل الغذاء في أيار/مايو ١٩٩٦. وقد أتاح البرنامج للعراق بيع النفط لشراء ما يحتاج إليه بموجب نظام توزيع تحت إشراف الأمم المتحدة. وقد أحسنت الحكومة تنظيم التوزيع وساعد في التخفيف من البؤس، لكنه لم يكن كافياً.

ولتلبية حاجات الشعب الأساسية اليومية، نظمت الحكومة حصصاً غذائية شهرية حيث «لكل فرد الحق في الحصول على الحصة التموينية بصرف النظر عن الوسائل وكان سعر الحصة واحداً في أنحاء البلد كافة»[٧١]. وكانت الحصة التموينية وسيلة حاسمة للحؤول دون تفاقم حالات الموت جوعاً وانتشار المجاعة، رغم أنها بالكاد سدت ٣٥ بالمئة من الحاجات الغذائية للأسرة.

كان للعقوبات تأثير مدمر على حالة الشعب الصحية، وبخاصة الأطفال والنساء. فقد لاحظ أطباء استشاريون في مختلف أرجاء البلد، ولا سيما في المنطقة الجنوبية، زيادة ملحوظة في حالات الإجهاض، والأورام (وعلى الأخص سرطانات الثدي والرحم والدم)، وتشوّه الأجنة والإملاص وفقر الدم والسكري والحمل[٧٢].

وقد أجرى أطباء وعلماء عراقيون أبحاثاً مستفيضة في أسباب الزيادة غير

---

(٧٠) في أيار/مايو ١٩٩٦، سألت ليزلي ستال، مراسلة «ستون دقيقة» (60 Minutes) السفيرة الأمريكية إلى الأمم المتحدة مادلين أولبرايت: «سمعنا أن نصف مليون طفل ماتوا [نتيجة العقوبات]. أقصد أن عددهم يفوق عدد الأطفال الذين ماتوا في هيروشيما. فهل هذا يستحق الثمن؟» أجابت أولبرايت: «أعتقد أن الخيار قاس جداً، لكن ذلك، في اعتقادنا، يستحق الثمن». واستمرت العقوبات سبع سنوات تقريباً، أي إلى حين وقوع الغزو سنة ٢٠٠٣.

(٧١) وفقاً لمركز الحقوق الاقتصادية والاجتماعية، «كان ثمة شك في الخارج بأن النظام العراقي لتوزيع الحصص يستغل بشكل انتقائي كأداة للثواب والعقاب في يد النظام العراقي ضد مختلف قطاعات السكان. ولم تجد زيارة تمت سنة ١٩٩١ دليلاً على هذا الشك. بالعكس، وجد أن حتى أولئك الذين كانوا يجاهرون بمعارضتهم للنظام تلقوا حصصاً وكانوا راضين عن عمل نظام توزيع الحصص». انظر: Peter Boone, Haris Gazdar and Athar Hussain, «Sanctions against Iraq: Costs of Failure,» Center for Economic and Social Rights (November 1997).

(٧٢) Hamza, «Evaluating the Status of Iraqi Women in Light of the Beijing Platform for Action».

العادية في حالات السرطان في أعقاب القصف الأمريكي والبريطاني باليورانيوم المنضب في سنة ١٩٩١، ثم بعد استخدام هذه المادة بشكل متكرر خلال هجوم «الصدمة والترويع» سنة ٢٠٠٣. ويشير دليلهم القاطع إلى أن استخدام اليورانيوم المنضب هو سبب السرطان الوبائي الجديد، مع أن هذا الدليل قوبل بالنفي التام من جانب كلا البلدين[٧٣].

امتدت معاناة المرأة العراقية من المعاناة الجسدية إلى المعاناة النفسية. فقد عانت ٥٧ بالمئة من النساء العراقيات من الاكتئاب، والأرق، ونقص الوزن، والصداع بسبب الصدمات الناجمة عن القصف، وموت الأطفال، والقلق، وعدم اليقين في المستقبل. وكان هناك زيادة في الاستخدام المفرط للمهدئات[٧٤].

انخفض دخل النساء العاملات، اللواتي كن في أغلبيتهن موظفات في القطاع العام الفقير، بشكل ملحوظ بعد أن أصبحت قيمة العملة أقل من واحد بالمئة مما كانت عليه قبل سنة ١٩٩١. وتخلت كثيرات من النساء المهنيات في المدن، بمن فيهن المدرّسات والعاملات في مجال الرعاية الصحية، عن وظائفهن بسبب عجزهن عن تحمل مصاريف النقل، وصرن يمارسن العمل في بيوتهن.

وابتداء من مطلع التسعينيات، تراجع كثيراً عدد التلامذة، من الذكور والإناث وفي المراحل كافة، لأن عدداً كبيراً منهم أُرغموا على ترك المدرسة والانضمام إلى القوة العاملة. كما أن عدم حصول المدارس العراقية على أحدث الكتب والمعدات جعلها تتخلف ببطء عن ركب مدارس البلدان الأخرى في المنطقة من حيث مستوى التعليم.

كان نصف تلامذة المدارس العراقيين تقريباً بلا مقاعد في صفوفهم وانخفضت ميزانية التعليم في العراق من ٥٠٠ مليون دولار قبل حرب الخليج ١٩٩١ إلى أقل من ١٠ بالمئة من ذلك المبلغ سنة ١٩٩٨ نتيجة الحصار[٧٥]. ولم يكن يُسمح بدخول الكتب والمجلات العلمية إلى البلد، وتوقف تقريباً البحث العلمي ونشر الدراسات، وفُرضت القيود على استيراد الحواسيب وحُدّ كثيراً من

---

(٧٣) Souad N. Al-Azzawi, «Depleted Uranium Radioactive Contamination in Iraq: An Overview,» Global Research, 31 August 2006, <http://www.globalresearch.ca/index.php?context=viewArticle&code=AL-20060831&articleId=3116>.

(٧٤) Hamza, Ibid.

(٧٥) «UNICEF: Sanctions Hurt Iraq Schools,» Associated Press, 10/12/1998.

التدرّب على استخدامه. وأجبر انعدام المواد التعليمية العديد من المدرسين على ارتجال طرق وأساليب جديدة لمواصلة تعليم الأطفال.

ولتوضيح قسوة الحصار الجائر، اليكم هذا المثال: في ٦ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٥، أرسلت إلى أبناء وبنات إخوتي في الموصل مغلفاً مبطناً فيه علبة أقلام رصاص وثلاث مماحٍ وثلاث مبارٍ وستة أقلام حبر وقلما تأشير وإصبعا صمغ وقلمان جافان. وكتبت على المغلف عبارة «هدية للأطفال». وأُعيد المغلف إليّ ممهوراً بعبارة: «بسبب العقوبات الدولية على العراق، لا يمكننا إرسال رزمتك إلى العنوان المذكور». وقيل لي أن أتصل بدائرة التجارة والصناعة البريطانية للحصول على المزيد من المعلومات.

كان تأثير العقوبات على الجامعات بالقدر نفسه من الشدة. فقد حظرت لجنة الأمم المتحدة للعقوبات استيراد معظم المواد التعليمية، وخصوصاً المستخدمة في الكيمياء والفيزياء والعلوم الأخرى. ودرجت لجنة الأمم المتحدة الخاصة بالعراق (UNSCOM)، التي «كانت مهمتها كشف برامج الأسلحة العراقية التي استمرت بعد حرب الخليج ١٩٩١»[٧٦]، على تفتيش مختبرات الجامعات لمصادرة كتب الكيمياء وحرقها. وكان الطلاب العازمون على متابعة دراستهم يواجهون أيضاً خطر تجدد القصف والاعتداء العسكري الأمريكيين[٧٧].

في سنة ١٩٩٣، بدأ صدام حسين رسمياً «الحملة الإيمانية»، وفهم العراقيون على نطاق واسع أن الحملة دليلاً على محاولة النظام التعامل مع واقع العقوبات القاسي واتباع الاتجاه القائم في العراق، وفي المنطقة ككل، وفي الولايات المتحدة في واقع الأمر، بالتحوّل نحو السياسة القائمة على الدين. فتحت وطأة العقوبات، كان الناس يبحثون عن الأمن في التقاليد. وكان هناك الكثير من الأسباب الاستراتيجية والأيديولوجية لقيام النظام بالتخلص من آرائه العلمانية المتطرفة بالتدريج منذ نهاية الحرب في سنة ١٩٨٨، وانحسار ذلك التهديد الإسلامي بالتحديد. وأخذت الحركة العروبية العراقية تنفتح على الإسلاميين، وأضاف صدام حسين بخط يده كلمتي **الله أكبر** إلى العلم العراقي، كرد رمزي على الخصوم مثل إيران والمملكة العربية السعودية اللتين يوجد على علميهما أيضاً

---

(٧٦) Tim Weiner, «U.S. Spied on Iraq under U.N. Cover, Officials Now Say,» *New York Times*, 7/ 1/1999, <http://why-war.com/news/1999/01/07/usspiedo.html>.

(٧٧) Michael Wolff, «The Students of Mustansiriya University: How Sanctions Destroy Iraqi Education,» *CounterPunch* (22 February 2003), <http://www.counterpunch.org/wolff02222003.html>.

كتابات إسلامية. وساعد ذلك في حشد دعم مسلمي العالم المادي والمعنوي خلال حرب ١٩٩١ وسنوات العقوبات[٧٨] .

أنشأ النظام جامعة للعلوم الإسلامية، وجعل لها فروعاً في المناطق لتدريب رجال الدين المسلمين. وخُصّصت كلية أخرى لحزب البعث نفسه بحيث يمكن تدريب جميع كبار مسؤولي الحكومة. وعلى المستوى الجماهيري، أصبحت دراسة القرآن إلزامية في المدارس كافة. وخُصّصت محطة إذاعة لبث تلاوات من القرآن مدة ست عشرة ساعة في اليوم، وزيدت نسبة ما كان يخصص للدين في وسائل الإعلام كلها. وتولت الحكومة الإشراف على الدورات غير الرسمية في المساجد التي تعلم القرآن والتفسير، وبنت المئات من المساجد الجديدة بمشاركة محسنين قدموا الهبات، ونظمت مباريات لحفظ القرآن. وكانت كل هذه الأنشطة متاحة لكلا الجنسين. ولقي إدخال الدورات للغة العربية والشعر وفن الإلقاء شعبية بالنسبة إلى البنات بقدر شهرتها بالنسبة إلى الفتيان، حتى في الأسر التي لم يكن لديها اهتمام خاص بالدين نفسه.

كان في هذا الاستغلال للدين مصلحة أمنية واضحة للنظام، إذ عادت المساجد إلى وظائفها الأصلية كقاعات وأماكن تجمع عامة ذات منفعة مميزة، وخصوصاً بعد ضعف الدولة. وكان النظام يحاول إضعاف سيطرة المدرسة الدينية الشيعية والمدرسة الدينية السنية باستعادة الإسلام وحيزه العام، المسجد، اللذين استغلتهما جماعات معارضة دينية وغير دينية، والترويج لبعض الصيغ الحديثة منهما تحت إشراف الدولة، وتقبل قرارات الشريعة المشتركة بينهما. فجرى منع سباق الخيل، وهو الشكل الوحيد من أشكال المقامرة المقبول تقليدياً، وكذا مبيع الكحول علانية. وأشركت النساء في هذا النشاط الديني كله الذي كان تحت إشراف الدولة، لكن بمرور الوقت، أخذ الحجاب الإلزامي، الذي عارضه النظام بعنف خلال الثمانينيات، ينتشر بالتدريج، وإن كان من دون تأييد رسمي محدد.

حاول نظام البعث أن يخفف العبء الاقتصادي عن الشعب العراقي من

---

(٧٨) كان هناك صراع مرير بين الإسلاميين والقوميين العرب العلمانيين والحركات اليسارية في العالم العربي، وقد تمثل في إعدامات وأعمال اضطهاد ضد جماعات إسلامية في مصر وسورية والعراق. وفي سنة ١٩٨٩، عقد مركز دراسات الوحدة العربية، الذي يرأسه الدكتور خير الدين حسيب، حلقة دراسية من أجل حوار ديني قومي عربي، أسفر عن تشكيل لجنة تحضيرية لإنشاء لقاء قومي (عربي) إسلامي. وضم ذلك معظم مفكري الاتجاهين، بمن فيهم الماركسيين والليبراليين الوطنيين. انظر: **الحوار القومي ـ الديني: أوراق عمل ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية** (بيروت: المركز، ١٩٨٩).

خلال المبادرات من الدولة والأفراد. وحقق النجاحات في جهود مدعومة بصورة علنية لإعادة بناء البنية التحتية؛ إذ قام مهندسون عراقيون مخلصون بإصلاح شبكة الكهرباء وإعادة بناء الجسور المدمرة في أشهر قليلة، وهو أمر يعتزّ به العراقيون حتى اليوم.

بعد تدمير البرنامج النووي، نُقل العلماء إلى مختلف دوائر الدولة ليساعدوا في إصلاح المرافق العامة المتضررة. وخلافاً لما أُشيع في الإعلام، زاد النظام النفقات في القطاع الصحي بعد سنة ١٩٩٦، وفي سنة ١٩٩٧ وقع عقود تموين وخدمات لوجستية بقيمة ٢,١ مليار دولار. وأسست وزارة الشؤون الإسلامية صندوقاً لجمع الزكاة وتوزيعها على المحتاجين من الأفراد والعائلات «المتعففة». وأُنشئت أيضاً صناديق للتعاضد الاجتماعي في كثير من الوزارات والدوائر من خلال مبادرات عفوية وغير رسمية. وكان راتب رعاية الأسرة، الذي صدر بموجب القانون رقم ١٢٦ لسنة ١٩٨٠، القانون الأهم الذي ما زال معمولا به حتى اليوم. وحاول الاتحاد العام لنساء العراق أن يغير دوره من مجرد أداة دعائية للدولة موجهة إلى النساء إلى منظمة مستقلة جزئياً تعمل مع النساء. وجرى اتخاذ بعض الخطوات بمساعدة من برنامج الأمم المتحدة الإنمائي (UNDP) وصندوق تنمية المرأة التابع للأمم المتحدة (UNIFEM).

وتم إطلاق برنامج تعاضد اجتماعي واسع النطاق نسبياً لمساعدة النساء الفقيرات وعائلاتهن وتقديم الملابس والمواد الغذائية والمعالجة الطبية للأطفال ذوي الأمراض المزمنة. وخصصت معونة للأرامل والمطلقات اللواتي كن يعتنين بأسرهن، وكذلك للأطفال الذين يعانون من سوء التغذية. وبمقتضى اتفاق مع برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، أطلقت وزارة العمل والشؤون الاجتماعية في سنة ١٩٩٦ برنامج القروض الصغيرة في محاولة للتخفيف من وطأة فقر النساء وبدأت برنامجاً تجريبياً في مدينتين رئيسيتين، شمل ثلاثين مشروعاً منها مزارع للدجاج، وتصنيع المواد الغذائية، والأعمال الخزفية، والطباعة، وكرة القدم، والصناعة، والخياطة، والتطريز. وأُنشىء أيضاً صندوق ائتماني للنساء اللواتي يردن إقامة مشاريع منزلية صغيرة، واللواتي يردن متابعة تحصيلهن العلمي، وكان الاتحاد مصدر ٥٠ بالمئة من رأس مال الصندوق فيما ساهمت النساء كأفراد بالنسبة المتبقية[٧٩].

(٧٩) لمزيد من التفاصيل عن مكانة المرأة العراقية وعمل الاتحاد العام للمرأة العراقية والتدقيق المعمق فيهما، انظر: Hamza, «Evaluating the Status of Iraqi Women in Light of the Beijing Platform for Action».

وقد وضِعت خطة لاستراتيجية وطنية من أجل الارتقاء بمكانة المرأة العراقية، وأُصدرت منشورات مستقلة معنية بالثقافة وقضايا المرأة، مثل مجلة **شهرزاد** في سنة ٢٠٠٠، وصحيفة **الجندر** في سنة ٢٠٠١، و*Bulletin* في سنة ٢٠٠١ (من وحدة أبحاث المرأة في جامعة بغداد)، والمجلة الأدبية **آفاق** في سنة ٢٠٠٢. ولكي يعيد الاتحاد العام لنساء العراق الحيوية إلى عمله بين النساء والمثقفين، أنشأ فرعين جديدين له: المهنيات، والمنتدى الثقافي للمرأة. وقد تمتع الأخير بشيء من الحرية في تنظيم مناسبات ثقافية، وأمسيات شعرية، ومعارض، ومجموعات دراسية(٨٠).

بيد أن هذه الجهود كانت في نظر أغلبية النساء قليلة جداً ومتأخرة جداً. وان طرأ تغيير طفيف بطبيعة الحال على السياسة بعد توقيع مذكرة التفاهم مع الأمم المتحدة سنة ١٩٩٦، وعقب تقلص أموال الدولة واستعدادها لرفع العبء الاقتصادي عن كاهل النساء تحت وطأة العقوبات.

وقد قام الدكتور نبيل النوّاب في دراسته، التي وضعها سنة ٢٠٠٠ وقيم فيها نشاطات الاتحاد، بإبراز صعوبة اعتبار الاتحاد العام لنساء العراق منظمة مجتمع مدني. فهذه المنظمة، التي ضمت أكثر من مليون عضوة ومكاتب في جميع المحافظات وفروعاً في معظم المناطق، وتولت أدواراً شتى مع الدولة، كانت تعادل وزارة لشؤون المرأة. وربما كان الأحرى أن تُعتبر شبيهة بالاتحادات والمنظمات الجماهيرية السوفياتية، مع ما كان لها من خليط من وظائف الرفاه الاجتماعي، والقدرة التعبوية، ومنابر لنشر السياسات الاجتماعية. كما ركز النوّاب الانتباه على موارد الاتحاد المحدودة بسبب العقوبات، وعلى حاجة الاتحاد إلى تطوير بنيته التنظيمية، وتعزيز اللامركزية، والتفاعل بشكل أفضل مع المستفيدين منه.

كان تحقيق تلك المهمة صعباً، إذ بقي الاتحاد العام في نظر العراقيين ذراعاً دعائية لنظام مستبد، ولم تكن تغييراته أكثر من تغييرات تجميلية. وقد قابل الاتحاد، مثله مثل المنظمات النسوية الممولة من الأمريكيين تحت الاحتلال، معاناة النساء تحت نظام البعث بالصمت، مبرراً سياسات البعث ضد الخصوم السياسيين حتى عندما كان الحزب يصدر المراسيم السيئة ضد حقوق النساء الأساسية، مثل منع

(٨٠) نبيل النوّاب، «تقرير عن المهمة الاستشارية إلى الاتحاد العام لنساء العراق: مقترح برنامج تطوير قطاع المرأة،» لجنة الأمم المتحدة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا (الإسكوا) (٢٠٠٠).

المرأة من السفر إلى الخارج إلا إذا رافقها أخوها أو أبوها، أو إصدار مرسومه الرئاسي سنة ١٩٩٠ الذي يمنح الحصانة للرجل الذي يرتكب جريمة شرف، وهذا ارتداد إلى عادة قبلية تعطي الذكور في العائلة الحق في قتل الإناث اللواتي يتصور أنهن جلبن العار بتورطهن (أو الاشتباه بتورطهن) في علاقة جنسية غير مشروعة.

في التسعينيات، بدا النظام عارياً تقريباً أمام شعبه بسبب القسوة التي مارسها ضد الانتفاضات في الجنوب والشمال، وبسبب منطقتي حظر الطيران (اللتين فرضتهما الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا دون تفويض من الأمم المتحدة، وهو تدخل برر بأنه جهد إنساني لحماية المسلمين الشيعة في الجنوب والأكراد في الشمال)، وبسبب الافتقار إلى الأموال اللازمة للمشاريع التطويرية والتحسينات المادية، تناقص عدد مؤيديه. وعلاوة على ذلك، ربط الناس في أذهانهم بين قسوة العقوبات ووجود نظام البعث. وصار التخلص من النظام شرطا للخلاص من الحصار الجائر، ولم يبق من العراقيين المستعدين للدفاع عن النظام إلا القليل.

أجبر الفقر والجوع والركود الفكري، كثيراً من الناس على الفرار من البلد، منهم الكتّاب والفنانون والشعراء والأكاديميون. ومن المفارقات أن الخروج الجماعي في التسعينيات، باستثناء أولئك الذين انخرطوا في انتفاضة الجنوب، تم لأسباب اقتصادية وفي وقت كانت قبضة النظام الجائرة تتراخى. فالحرمان الاقتصادي والفساد أسفرا عن تدهور في التعليم والصحة والخدمات العامة. وكما حدث في السبعينيات، فقد أثبت الاقتصاد واستخدام العائدات مرة أخرى أنهما العامل الرئيسي في تقرير ولاء الشعب لنظام البعث أو رفضه له.

الفصل الثاني

غــزو العــراق

ـ ١ ـ

قلما سُمع في الولايات المتحدة وبريطانيا عن محنة النساء العراقيات في عهد نظام صدام حسين قبل أن يبلغ التحضير للحرب مراحله النهائية. فقد جرى على العموم تجاهل معاناة الشعب العراقي من القمع والحصار والغارات الجوية الأمريكية ـ البريطانية، باستثناء القليل من المنظمات الإنسانية والدولية والصحافيين المستقلين.

استمر الوضع كذلك حتى تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢ حين تبنت الإدارة الأمريكية قضية المرأة العراقية ودعت إلى تحريرها. فأنشئت عدة منظمات نسوية عراقية بتمويل أمريكي قبل الغزو وبعده مباشرة. وكانت في بعض الحالات، ملحقة بجماعات وأحزاب معارضة قائمة، وفي حالات أخرى مستقلة تسمّي نفسها منظمات غير حكومية. وقد أدت هذه المنظمات غير الحكومية دوراً بارزاً في حشد الدعم الجماهيري والسياسي للحرب على العراق. وبعد الحرب، واصلت القيام بدور مهم اعلاميا ـ في الولايات المتحدة أكثر منه في العراق ـ كمؤيدة للسياسة الأمريكية في العراق.

لقد اثبت الواقع العراقي أن عمل ما تقوم به الولايات المتحدة و«النسوة الاستعماريات» (Colonial Feminists) لا علاقة له بأغلبية النساء العراقيات، بل انها قامت بعرقلة العمل الملح للمنظمات النسوية الحقيقية المستقلة[١]. فليس للحديث المنمق عن تمكين المرأة، وتدريب حفنة من «النساء القياديات» على مبادئ الديمقراطية وممارساتها في مؤتمرات نُظمت خارج العراق، صلة بالحياة اليومية للنساء اللواتي يعشن في فقر مدقع أو شرّدن من بيوتهن أو يعشن في الخيام، وهن

(١) انظر مدونة فايزة العرجي عن تجربتها كناشطة عراقية في مؤتمر «الديمقراطية في العراق» الذي استضافه عدد من المنظمات الأمريكية في الأردن: Faiza al-Arji, «A Family in Baghdad,» 17 April 2005, <http://afamilyinbaghdad.blogspot.com/2005_04_17_afamilyinbaghdad_archive.html#111376172909912353>.

يفتقرن إلى الطعام والحاجات الصحية الأساسية. وقد بلغت الأمية بين الإناث في العراق أعلى مستوى منذ الثلاثينيات، وتهدّد الخصخصة الخدمات العامة المجانية. وفي غمرة فوضى سفك الدماء اليومي، تعاني النساء من الإساءة إلى حقوقهن، سواء من قبل «الحكومة» أو من العنف المحلي المتزايد على قاعدة الجنوسة. كما عزّزت البطالة حالات لجوء المرأة إلى الدعارة، وحالات الإجهاض المستترة، و«جرائم الشرف»، والعنف المنزلي. وتتراوح مواقف النسوة الاستعماريات في نظام الحكم العميل بين التهكم والتعامي عن التباينات الحادّة بين كلامهم المنمق وواقع المرأة العراقية. وتماشياً مع مسلَّمة الإدارة الأمريكية، «لا أحد يقول بأنّ الانتقال من الدكتاتورية إلى الديمقراطية سيكون سهلاً»[٢]، تبرر النسوة الاستعماريات عدد الضحايا الهائل بأنه ضرورة لا يمكن تجنّبها.

لفهم طبيعة نشاطات هذه المنظمات النسائية ومشاريعها داخل العراق وخارجه، لا بد لنا من أن نتفحص أولاً مصادر التمويل، وثانياً، التغيّرات التي طرأت على السياسة الأمريكية تجاه المنظمات غير الحكومية بعد ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١[٣].

بعد إعلان بوش موقفه الحاسم: «إما أن تكونوا معنا أو ضدنا»، تم تحويل دور المنظمات غير الحكومية لتلبية متطلبات «الحرب على الإرهاب». وقد أوجز وزير الخارجية السابق كولن باول الرؤية الجديدة حين قال، مخاطباً المنظمات غير الحكومية سنة ٢٠٠١: «المنظمات غير الحكومية الأمريكية، مثلها مثل دبلوماسيينا وعسكرييننا، موجودة هناك للخدمة والتضحية على خطوط الحرية الأمامية. والمنظمات غير الحكومية عامل مضاعف لقوتنا وجزء مهم من فريقنا المقاتل»[٤].

---

(٢) U. S. Department of State, «Human Rights and Women in Iraq: Voices of Iraqi Women,» Foreign Press Center Briefing, Washington, DC, 6 March 2003, <http://www.state.gov/g/rls/rm/2003/18477.htm>.

(٣) في ما يلي تطوير لعملي بشأن منظمات غير حكومية ومنظمات نسوية أمريكية التمويل، انظر: Haifa Zangana: «The Three Cyclops of Empire Building: Targeting the Fabric of Iraqi Society,» in: Amy Bartholomew, ed., *Empire's Law: The American Imperial Project and the «War to Remake the World»* (London; Ann Arbor, MI: Pluto; Toronto: Between the Lines, 2006), and «Colonial Feminists from Washington to Baghdad: Women for a Free Iraq as a Case Study,» in: Jacqueline S. Ismael and William W. Haddad, eds., *Barriers to Reconciliation: Case Studies on Iraq and the Palestine-Israel Conflict* (Lanham, MD: University Press of America, 2006).

(٤) Colin L. Powell, «Remarks to the National Foreign Policy Conference for Leaders of NGOs,» Washington, DC, 26 October 2001.

وأفصح أندرو ناتسيوس، مدير الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية (USAID)، التي كانت تنسق إعادة أعمار العراق، عن الرؤية نفسها بشكل صريح. فقد أبلغ قادة المنظمات الإنسانية الدولية بأن «المنظمات غير الحكومية والمقاولين هم ذراع للحكومة الأمريكية»، وأن على وكالات الغوث أن تقدم نفسها كمتلقية للدعم المالي الأمريكي من أجل خدمة أهداف واشنطن السياسية والعسكرية»[٥]. وفي معرض تبريره هذا التصرف، قال: «إن العمل الذي نقوم به الآن، قد يعتبر، ذا تأثير على بقاء الولايات المتحدة القومي». ونظراً لأن جميع المنظمات الأمريكية غير الحكومية تقريباً تتلقى أكثر من نصف تمويلها من مصادر حكومية، فإن تعبير ناتسيوس الفظ لم يؤخذ باستخفاف[٦].

من أبرز المنظمات غير الحكومية الأمريكية التمويل، التي توجهت إلى العراق فور إعلان «انتهاء المهمة»، هي منظمة «نساء من أجل عراق حر» (WFFI)، و«تحالف المرأة من أجل الديمقراطية في العراق ـ وافدي» (WAFDI)، و«المعهد العراقي»، و«المؤتمر الإسلامي الأمريكي» (AIC)[٧]. وكان مصدر تمويلها بشكل رئيسي وزارة الخارجية الأمريكية والوكالة الأمريكية للتنمية الدولية والمؤسسة الجمهورية الدولية (IRI)، والمؤسسة الديمقراطية القومية (NDI) التي ترأسها مادلين أولبرايت، و«معهد المرأة المستقلة» (IWF).

داخل العراق، بلغت الميزانية المرصودة للمنظمات النسوية غير الحكومية بضعة ملايين من الدولارات الأمريكية. ووفقاً لبول بريمر، في ٣٠ حزيران/ يونيو ٢٠٠٤، عشية تسليم السيادة إلى حكومة إياد علاوي[٨] المؤقتة، تمّ «تخصيص نحو ٧٥٠ مليون دولار من الميزانيتين الأمريكية والعراقية. وكان جزء كبير من

---

(٥) خطاب أندرو ناتسيوس (Andrew Natsios) في اليوم الأخير لندوة استغرقت ثلاثة أيام بتاريخ ٩ حزيران/ يونيو ٢٠٠٣.

(٦) Abby Stoddard, «With Us or against Us?: NGO Neutrality on the Line,» Global Policy Forum (December 2003), < http://www.globalpolicy.org/ngos/fund/2003/1200against.htm > .

(٧) وفقاً لاستمارة المجموعة رقم ٩٩٠ لسنة ٢٠٠٢، تلقت «مؤسسة العراق الحر» ١,٦٦ مليون دولار كدعم لسنة ٢٠٠١: وقد جاء ٩٩,٩٧ بالمئة من ذلك الرقم من مصادر تمويل عامة. وفي سنة ٢٠٠٠، كان دخل المجموعة مليون دولار: لسنة ١٩٩٨ ولسنة ١٩٩٩: ٢٦٥٠٠٠ دولار و٥٨٠٠٠٠ دولار على التوالي. انظر: «Iraq Foundation,» Source Watch, < http://www.sourcewatch.org/index.php?title = Iraq_Foundation > .

(٨) إياد علاوي هو رئيس «حركة الوفاق الوطني العراقي»، وهي منظمة في المنفى عملت على الإطاحة بصدام. وكانت المنظمة تحت رعاية وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) الأمريكية منذ سنة ١٩٩٢. انظر: Jon Lee Anderson, «A Man of the Shadows: Can Iyad Allawi Hold Iraq Together?,» *New Yorker* (24 January 2005), < http://www.newyorker.com/archive/2005/01/24/050124fa_fact1 > .

البرنامج يرمي إلى بناء المؤسسات والمنظمات التي تشكل ما نسميه نحن في الغرب المجتمع المدني»[٩]. وأوضحت جودي فان رِسْتْ (Judy Van Rest) لعلاوي «إننا نقيم هذه المؤسسات في جميع أنحاء العراق. . . وقد أشرفت مكاتبنا في المحافظات على ولادة عشرات المراكز لحقوق الإنسان والمنظمات غير الحكومية والهيئات القانونية وحتى مجالس الآباء والأمهات والمعلمين. وكان لدينا الأموال لإقامة مراكز للنساء في المحافظات الثماني عشرة كافة، تسعة منها في بغداد وحدها»[١٠]. في الواقع، لقد أنفقت معظم هذه الأموال على تنظيم المؤتمرات، خارج العراق في الغالب، وعلى تدريب عدد من النساء المختارات ليكن قياديات في موضوع «الديمقراطية». وبناء على ورقة حقائق صادرة عن مكتب كبير منسقي قضايا المرأة الدولية في وزارة الخارجية الأمريكية في ٢٢ حزيران/ يونيو ٢٠٠٥، «خصصت الولايات المتحدة نحو نصف مليار دولار لدعم برامج بناء الديمقراطية في العراق ـ بما فيها برامج تساعد النساء تحديداً في التنظيم الديمقراطي وتأييد الديمقراطية»[١١].

إن تتبع تاريخ تأسيس بعض هذه المنظمات يلقي الضوء على دورها كمنظمات مجتمع مدني يراد لها أن تكون «المحتل الناعم» (Soft Occupiers) بعد «التحرير». ففي ٤ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٢، وفي حدث رسمي حظي بتغطية إعلامية كبيرة، عقد في نادي الصحافة الوطنية في واشنطن باسم «أصوات النساء العراقيات غير المسموعة»، دُعي الحضور للاستماع إلى شهادات عن ظلم صدام للنساء كما ترويها «سبع نساء عراقيات من خلفيات مناطقية وعرقية ودينية مختلفة»[١٢]. وكان الحدث برعاية «التحالف الدولي من أجل العدالة» (IAJ) الذي يموّله الكونغرس، وكان بين الحضور، فضلاً عن صبرية مهدي نعمة ونضال شيخ شلال وهتاو ابراهيم أحمد وبيمان هلمت، صفية طالب السهيل، مسؤولة الشرق الأوسط والعالم الإسلامي في التحالف العالمي من أجل العدالة. وضمّت

---

(٩) L. Paul Bremer and Malcolm McConnell, *My Year in Iraq: The Struggle to Build a Future of Hope* (New York: Simon and Schuster, 2006), p. 385.

(١٠) المصدر نفسه. إن جودي فان رست واحدة من مسؤولي سلطة الائتلاف المؤقتة السياسيين.

(١١) U.S. Department of State, «U.S. Commitment to Women in Iraq,» Office of the Senior Coordinator for International Women's Issues, Washington, DC, 22 June 2005, <http://www.state.gov/g/wi/rls/48464.htm>.

(١٢) Lindsey Brooks, «Iraqi Women Speak Out about Life under Saddam's Dictatorship, October 4, 2002,» Washington File, 9 October 2002, <http://www.usembassy.it/file2002_10/alia/a2100906.htm>.

النساء السبع أيضاً زكية إسماعيل حقي، وهي محامية ورئيسة سابقة للمنظمة النسوية الكردية، وكاترين ميخائيل، عضو المعارضة العراقية في واشنطن، الناجية من احدى الهجمات الكيميائية التي شنها صدام حسين على الأكراد في حزيران/ يونيو ١٩٨٧، «ولا تزال تعاني من ذلك القصف، حتى اليوم» حسب شهادتها في المؤتمر الصحافي.

في مقابلة أُجريت في ١٢ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٢، أي قبل خمسة أشهر فقط من الغزو، شرحت كاترين ميخائيل، التي انضمت في سنّ المراهقة إلى رابطة المرأة العراقية[١٣] وعاشت في الولايات المتحدة منذ سنة ١٩٩٧، كيف تجاهلت الإدارة الأمريكية حقوق المرأة العراقية. وكان هدف ميخائيل «جعل نساء العراق مرئيات لدى الجمهور الأمريكي مثلما كانت نساء أفغانستان قبل ذلك بعام واحد، حين انتقدت إدارة بوش طالبان على موقفها القمعي من نساء البلد وبناته»[١٤]. والأهم من ذلك أنها أرادت أن تلفت انتباه الإدارة إلى وجود نساء ضمن المعارضة. وكانت الأدوار الرئيسية على مسرح الحرب قد تمت المصادقة عليها في ذلك الحين. بينما منحت الإناث الأدوار الثانوية وفق ما تقتضي الحاجة. وقد انعكس هذا التقسيم للادوار بصورة سيئة على النسوة الاستعماريات حالما «تم إنجاز المهمة» داخل العراق، عندما بلغ اقتسام غنائم الحرب ذروته بين الأحزاب الطائفية والعرقية.

وشكت ميخائيل من الدور الصغير الذي أُسند للنساء على الرغم من تزايد نشاطاتهن السياسية وارتفاع نسبتهن المئوية بين السكان، قائلة: «في الأشهر الأربعة الأخيرة، نشطت جماعات المعارضة العراقية في واشنطن، إذ اجتمعت مرات عدة مع وزارة الخارجية. لكن أين نساء المعارضة»[١٥]؟

اتخذت خطوات مماثلة في لندن. فعقب إدراك واشنطن في فترة التحضير للغزو أن في وسعها استغلال معاناة النساء العراقيات لحشد الدعم الشعبي

---

(١٣) المنظمة النسوية للحزب الشيوعي، التي منحت ترخيصاً للعمل علانية خلال إقامة الجبهة التقدمية الوطنية التي تألفت من حزب البعث الحاكم والحزب الشيوعي في الفترة ١٩٧٣- ١٩٧٩.

(١٤) Jane Ciabattari, «Survivor of Attacks Speaks for Iraqi Women,» Women's News, 10 December 2002, <http://www.womensenews.org/article.cfm/dyn/aid/1140/context/archive>.

(١٥) المصدر نفسه. استمرت ميخائيل في البكاء على محنة النساء قائلة: «يلتقي قادة المعارضة اليوم في لندن مع وزارة الخارجية الأمريكية لمناقشة مستقبل العراق في مرحلة ما بعد صدام حسين. وليس متوقعاً أن يكون هناك نساء بين هؤلاء القادة».

للحرب، عقد طوني بلير لقاء مع نساء عراقيات في مقره في داوننغ ستريت. وكان رئيس الوزراء قد التقى في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢، أي بعد شهر واحد من حدث «أصوات النساء العراقيات غير المسموعة» في واشنطن، مجموعة من سبع نساء عراقيات في لندن، وقد بكت اثنتان منهن فيما كانتا ترويان له حكاياتهما[١٦]. ان مما لاشك فيه هو أن بعض حكايات النساء العراقيات كانت صحيحة، وأن بعض النساء اللواتي سردن شهاداتهن في مناسبات تم تنظيمها في فترة ما قبل الحرب كنّ يأملن بسذاجة بأن تكون حكايات حياتهن في عهد صدام عوناً في التخلص من نظام صدام وبناء مستقبل أفضل للعراقيين كافة.

إلا أن نساء أُخريات لم يكن بهذا القدر من السذاجة؛ بل كن، كما يدل انتماؤهن السياسي، واعيات جيداً للدور المهم الذي سيلعبنه في تعبئة الدعم الشعبي والسياسي للحرب على بلدهن. وقد اخترن فيما كن يروين «حكاياتهن غير المحكية» «استخدام قضية حقوق الإنسان لدعم التدخل العسكري في العراق»[١٧]، يوم كانت الحجة لصالح شن الحرب واهية. هكذا، اخترن أن يكن الوجه الأنثوي للغزو، وبات معظم العراقيين يرونهن كنسويات استعماريات[١٨].

في الفترة الممهدة للغزو، حين شارك ملايين الأشخاص من جميع انحاء العالم في التظاهرات المناوئة لشن الحرب الاستباقية على العراق، لا دفاعاً عن نظام صدام أو تغاضياً عن جرائمه، ولكن حرصا على سلامة الشعب العراقي، لم تلتفت النسويات الاستعماريات كثيراً إلى ما ستعانيه أخواتهن، على الرغم من ان الحرب كانت، في نتائجها، حرباً على النساء العراقيات.

قبل الغزو بشهر واحد، في شباط/فبراير ٢٠٠٣[١٩]، جمع «معهد الدفاع

---

(١٦) Jeevan Vasagar and Brian Whitaker, «Exiles Cited by PM are Backed by Iran,» *Guardian*, 19/2/2003, <http://politics.guardian.co.uk/foreignaffairs/story/0,,898354,00.html>.

(١٧) Foundation for Defense of Democracies [FDD], «Women for a Free Iraq Campaign,» <http://www.defenddemocracy.org/programs/programs_show.htm?doc_id=192125&attrib_id=10014>.

(١٨) انظر: Zangana, «Colonial Feminists from Washington to Baghdad: Women for a Free Iraq as a Case Study».

(١٩) في اليوم نفسه، قرأ طوني بلير مجموعة من الرسائل البريدية العادية والرسائل الإلكترونية من منفيين عراقيين كدليل على أن العراقيين يؤيّدون الحرب لإزاحة صدام. انظر: Vasagar and Whitaker, «Exiles Cited by PM are Backed by Iran».

عن الديمقراطيات» (FDD)[٢٠] خمسين امرأة عراقية (معظمهن مواطنات أمريكيات) لتأسيس «نساء من أجل عراق حر» (WFFI)، وهي منظمة شقيقة لـ «التحالف الدولي من أجل العدالة». وكانت تمول أيضاً من «لجنة تحرير العراق» (CLI). وسرعان ما احتضنت إدارة بوش المنظمة الجديدة. وجرى تعميد منظمة «نساء من أجل عراق حرّ» في لقاء حضره نائب الرئيس ديك تشيني، ومستشارة الأمن القومي كوندوليزا رايس، ونائب وزير الدفاع بول وولفويتز، ووكيلة وزارة الخارجية للشؤون الدولية بولا دوبريانسكي، والسفير من أجل عراق حر زلماي خليل زاد. حيث روت النساء العراقيات أثناء التعميد تجاربهن تحت نظام صدام المرعب[٢١].

في اليوم نفسه، في ٦ آذار/مارس ٢٠٠٣، أعلنت باولا دوبريانسكي تأسيس منظمة «نساء من أجل عراق حر»، وذلك في مركز الصحافة الأجنبية في واشنطن. وحضر حفل الإعلان أعضاء بارزات في المنظمة: تانيا كلي، مديرة برامج الديمقراطية في معهد الدفاع عن الديمقراطيات، وزينب السويج ومهى العطار، وإسراء نعمة التي كان مسؤولون في البيت الأبيض قد استقبلوها في وقت سابق من ذلك اليوم. وقد نشأت مهى العطار في بغداد ثم سافرت إلى الولايات المتحدة وهي في الثالثة عشرة من العمر. وهي رئيسة المنتدى العراقي من

---

(٢٠) معهد الدفاع عن الديمقراطيات (Foundation for Defense of Democracies) معهد فكري يزعم أنه يجري «بحثاً وتثقيفاً في ما يتعلق بالإرهاب الدولي . . . التهديد الأمني الأخطر على الولايات المتحدة وأمم حرة ديمقراطية أخرى». وبحسب جيفري بلانكفورت (Jeffrey Blankfort)، وهو ناشط يهودي مناهض للصهيونية في كاليفورنيا (المحرر السابق لـ *(Middle East Labor Review)*)، فإن «معهد الدفاع عن الديمقراطيات» هو «واحد من أكثر جماعات الضغط الصهيونية نفوذاً وقوة، وقد غير اسمه وبدأ العمل بعد ١١/ ٩ مباشرة». وكان من مديري مجلس إدارته ستيف فوربس (Steve Forbes) وجاك كمب (Jack Kemp) وجين كيركباتريك (Jeanne Kirkpatrick) ونيوت غينغريتش (Newt Gingrich) وجميس وولسي (James Woolsey) وريتشارد بيرل (Richard Perle) وبيل كريستول (Bill Kristol)، وقد عملوا كلهم كمستشارين. انظر: «Foundation for the Defense of Democracies,» Source Watch, <http://www.sourcewatch.org/index.php?title=Foundation_for_the_Defense_of_Democracies>.

وكان راندي شونيمان (Randy Scheunemann)، وهو مستشار سابق لرامسفيلد قد ساعد في وضع مسودة لـ «قانون التحرير لسنة ١٩٩٨»، حيث أُجيزت مساعدة أمريكية لمجموعات منفية عراقية بقيمة ٩٨ مليون دولار، الرئيس المؤسس لـ «لجنة تحرير العراق». وهو يقدم الآن مساعدة إلى دول من الكتلة السوفياتية السابقة كي تنال مشاريع في العراق. انظر: «War Profiteering,» <http://www.sourcewatch.org/index.php?title=War_profiteering>.

(٢١) U.S. Department of State, «Iraqi Women under Saddam's Regime: A Population Silenced,» Office of International Women's Issues, Washington, DC, 20 March 2003, <http://www.state.gov/g/wi/rls/18877.htm>.

أجل الديمقراطية، وهو منظمة غير ربحية «لتعزيز الديمقراطية في العراق». تقيم مهى حالياً في كارولينا الشمالية. وكانت اسراء نعمة في العاشرة من عمرها حين غادرت العراق بعد حرب الخليج. وبعد الغزو، وظّفتها في كانون الأول/ ديسمبر٢٠٠٣ إيلين بادبرغ، التي طلبت منها شركة كاتز وشركاه الاستشارية في سان دييغو المساعدة في تنظيم «مكون عمل نسوي صغير «ضمن عقد لإدارة إعادة اعمار شركة الماء في العراق بقيمة ٤,٤ مليارات دولار[٢٢]. وتلت تانيا كلي بيان منظمة «نساء من أجل عراق حر»، الذي لم يذكر شيئاً عن سكوت الإدارة [الأمريكية] المتعمد على امتداد عقود عدة عن محنة الشعب العراقي، ودعمها نظام صدام حسين، وخصوصاً خلال حرب إيران ـ العراق، والعقوبات الاقتصادية المسنودة من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة ضد الشعب العراقي. بل صرحت: «نحن نساء فررنا من العراق لننجو من الاضطهاد الذي كان نظام صدام حسين يمارسه. وجئنا معاً للمجاهرة بمعاناة الشعب العراقي تحت حكم نظامه وبتوق هذا الشعب إلى الحرية».

وامتدح بيان «نساء من أجل عراق حر» الإدارة الأمريكية. وعرض تقديم الدعم إلى «الرئيس بوش على قيادته القائمة على المبادىء»، وحيًّا «عزم الحكومة الأمريكية على نزع سلاح صدام، والتزامها المساعدة في تحرير الشعب العراقي». وأصبح البيان برنامجا لعمل «القياديات» العراقيات ومسودة لكل تصريحاتهن كلما زرن الولايات المتحدة بعد الغزو.

لعبت منظمة «نساء من أجل العراق» دوراً كبيراً في مؤازرة نهج إدارة بوش لشن الحرب على العراق، وإظهار أنّ صدام حسين يشكّل تهديداً خطيراً على الشعب الأمريكي لتبرير اتخاذ إجراء فوري ضده. وحذّرن من أن «ثمن التراخي والاسترضاء سيكون غالياً جداً بالنسبة إلى الشعبين الأمريكي والعراقي على السواء؛ وحتى بالنسبة إلى الشرق الأوسط... ونحن نعرف من تجربتنا الشخصية أن صدام لا يمكن احتواؤه وسيكون دوماً خطراً على العالم»[٢٣].

---

(٢٢) للاطلاع على لمحات عن «القائدات» العراقيات الثلاثين، كما قدمها «المنتدى النسوي المستقل»، انظر: Independent Women's Forum, «A Quest for Political, Economic and Social Participation in a Democratic Iraq,» 16 August 2004, <http://www.iwf.org/iraq/iraq_detail.asp?ArticleID=625>, and Nick Schou, «Going to Bed with a $300,000 Price on your Head,» *OCWeekly* (24 February 2005), <http://www.ocweekly.com/news/news/going-to-bed-with-a-300000-price-on-your-head/19098/>.

(٢٣) «Foundation for the Defense of Democracies».

وعلى غرار الإدارة الأمريكية، لم يظهر «معهد الدفاع عن الديمقراطيات» أي اهتمام بمعاناة النساء العراقيات قبل التحشيد للغزو. وقد فسّر المعهد نفسه اهتمامه الآني بمحنة النساء العراقيات، كما ذكر في موقعه الالكتروني: «عندما كان الرئيس جورج دبليو بوش يفكر في التدخل في العراق، أدرك «معهد الدفاع عن الديمقراطيات» غياب أصوات مهمة عن النقاش ـ أصوات العراقيين ذوي التجارب الشخصية في ظل ما مارسه صدام حسين من قمع ووحشية وإبادة. فجمع المعهد عدداً من النساء العراقيات اللواتي يمكنهن مساعدة الأمريكيين في فهم ما يجري في العراق ـ وما هي المخاطر هناك»(٢٤).

في ٢٠ آذار/مارس ٢٠٠٣، شنت الولايات المتحدة السلسلة الأولى من الغارات الجوية على بغداد. وكان على الشعب العراقي أن يقاسي مما أحدثته القوة الجوية الأمريكية من «صدمة ورعب» وأن يعيش من جديد مأساة الحرب والموت اليومية. وكانت النساء العراقيات، اللواتي ذقن الأمرّين في سنوات الحصار والحرب الثلاث عشرة، في حالة من الذعر والارتباك الشديد وهن يكافحن للحفاظ على سلامتهن وسلامة عوائلهن. وكن في الأسابيع التي سبقت موجات القصف الأولى قد قمن بحفر الآبار في حدائق بيوتهن، ووقفن في صفوف طويلة للحصول على حصصهن من المواد الغذائية المحددة للأشهر الستة التالية، والتي قامت الحكومة بتوزيعها مسبقاً تحسباً لحالة الحرب، وقمن بتخزين ما استطعن الحصول عليه من مواد غذائية صالحة للحفظ والحليب المجفف، وكدسن أسطوانات الغاز المنزلي وحاويات البنزين على الرغم مما يشكله ذلك من أخطار. وقررت بعض العائلات، وخصوصاً في بغداد، ترك بيوتها في المدن الرئيسية واللجوء إلى بيوت الأقارب والأصدقاء في المدن الاخرى والقرى. وفي ظل الخشية من النقص في المواد الطبية والقلق من عدم التمكن من الوصول إلى المستشفيات في الوقت المناسب، اصطفت النساء الحوامل للخضوع لعمليات ولادة قيصرية مبكرة وقبل موعد الولادة. وكانت ابنة أخي لمى، البالغة من العمر أربعاً وعشرين سنة، واحدة من مئات النساء اللواتي قمن بذلك. وكان قد بقي على موعد الولادة شهر آخر.

من المفارقات التي تستحق الذكر فيما يخص ادعاءات الإدارة الأمريكية عن

---

(٢٤) Foundation for the Defense of Democracies [FDD], «Success Stories,» <http://www.defenddemocracy.org/about_FDD/about_FDD_show.htm?doc_id=257042&attri_id=7615>.

«حماية حقوق المراة العراقية وتحريرها» أنها في اليوم ذاته الذي قصفت فيه العراق، أصدر مكتب قضايا المرأة الدولية في وزارة الخارجية الأمريكية كتيّباً بعنوان «النساء العراقيات تحت حكم نظام صدام: مجتمع تمّ إخراسه»، تضمن إبراز الدعم الأمريكي للنساء العراقيات وإضفاء المزيد من الصفات الشيطانية على نظام صدام. وفيما كانت بغداد تهتز تحت وطأة قنابل القاذفات B52، وبينما كانت القوات التي تقودها أمريكا تستخدم ضد السكان آلاف الأطنان من قنابل اليورانيوم المنضب والقنابل العنقودية التي دمرت الكثير من البنى التحتية المدنية التي أُعيد بناؤها بعد حرب ١٩٩١، ظهرت عضوات «نساء من أجل عراق حر» في وسائل الإعلام أكثر من مئتي مرة، منها مقابلة مع باربرا ولترز، لـ «تقديم دعمهن إلى الرئيس بوش على قيادته القائمة على المبادىء»[٢٥]. وبمساعدة من «معهد الدفاع عن الديمقراطيات»، قمن بزيارة البيت الأبيض مرتين لعقد لقاءين والتقاط صور مع الرئيس ونائب الرئيس ومستشارة الأمن القومي. وفيما كانت النساء العراقيات يتفجعن على موت أحبتهن وتدمير بلدهن، كانت نساء منظمة «نساء من أجل عراق حر» ناشطات في حشد الدعم من أجل «تحرير العراق». وعبرت إحداهن، وهي إسراء نعمة، عن ذلك في تصريح للصحافة: «نود أن نشكر الرئيس بوش والجنود المنتشرين في الصحراء. شكراً لكم على مساعدة شعبي وعلى الذهاب لتحرير بلدي»[٢٦].

ولقد فرّخت منظمة «نساء من أجل عراق حر» منظمات أخرى أيضاً[٢٧]. وكانت عدة مجموعات نسائية عراقية أمريكية التمويل قد تأسست قبيل الغزو أو بعده مباشرة. ففي ٢١ نيسان/أبريل، أي بعد أيام قليلة من إعلان بوش «انجاز المهمة»، حضرت تسع عشرة امرأة أعضاء في «نساء من أجل عراق حر» اجتماعاً لتشكيل «تحالف المرأة من أجل الديمقراطية في العراق ـ وافدي» كي يصبحن مؤهلات للحصول على الدعم المادي الدولي. ويوصف «وافدي» بأنه «منظمة دولية غير حزبية لحقوق المرأة ولا تتوخى الربح، ومكرسة من أجل عراق حر

(٢٥) وفقاً لموقع مؤسسة الدفاع عن الديمقراطيات على الإنترنت، قُدر أن الحملة الإعلامية شملت ما يزيد على خمسين مليون أمريكي.

(٢٦) Women's Alliance for a Democratic Iraq, «Background History,» <http://www.wafdi.org/background>.

(٢٧) بقيت المجموعة ناشطة تحت الاحتلال، إذ ثمة ثلاث عضوات يتولين مناصب وزارية في الحكومة المؤقتة (نسرين برواري ومشكاة مؤمن وباسكال وردة)، وامرأة أخرى تمثل العراق في الأمم المتحدة (رند الرحيم فرانكي).

وديمقراطي تتمتّع فيه النساء بحقوق كاملة ومتساوية». وانتقل بعض أعضاء «وافدي» مع قوات الاحتلال داخل العراق لوضع «مشاريع تعزّز مشاركة المرأة في إعادة بناء المجتمع المدني العراقي»[٢٨].

ثمة منظمة أخرى وثيقة الصلة بمنظمة «نساء من أجل عراق حرّ» و«معهد الدفاع عن الديمقراطيات» وهي «المؤتمر الأمريكي الإسلامي»، الذي أسسته بعد ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ امرأة عراقية ـ أمريكية تدعى زينب السويج، وهي نفسها عضوة مؤسسة في «نساء من أجل عراق حر». وقد انتقلت السويج إلى العراق مع قوات الاحتلال لتنشط في مشاريع «إعادة اعمار العراق»، زاعمة بأنها «تمثل النساء العراقيات اللواتي أدين في الماضي دوراً صغيراً في الشؤون السياسية العراقية».

بعد «التحرير»، بادر «معهد الدفاع عن الديمقراطيات» مجدداً إلى قيادة نشاطات «بناء المجتمع المدني العراقي»؛ فأنشأ منظمة راعية للمنظمات العراقية غير الحكومية أمريكية التمويل أطلق عليها اسم «الائتلاف الأمريكي ـ العراقي للحرية» (IAFA)، وتصف هذه المنظمة نفسها بأنها «مجموعة غير حزبية من المنظمات والأفراد العراقيين والأمريكيين الذين يعملون على إبلاغ الرأي العام الأمريكي عن التغيّرات الإيجابية الجارية في العراق. وأننا بفضل الجيش الأمريكي وسواه من الأمريكيين الشجعان نربح الحرب على الإرهاب وندعم العراق الحر». ومن أعضائها «نساء من أجل عراق حر» و«تحالف المرأة من أجل الديمقراطية في العراق» و«المؤتمر الأمريكي الإسلامي» و«المعهد العراقي» الذي أسسه سنة ١٩٩١ كنعان مكية ورند رحيم فرانكي. وكنعان مكية عضو في مجلس إدارة «المؤتمر الأمريكي الإسلامي»، وشخصية بارزة في حزب المؤتمر الوطني الذي يتزعمه أحمد الجلبي. وهو مشهور بتوقّعه أمام الرئيس بوش عشية الغزو بأن «العراقيين سيستقبلون الأمريكيين بالحلوى والورود». أما رند رحيم فرانكي، فإنها المديرة التنفيذية لـ «المعهد العراقي» الذي تفرع عنه مشروع «مؤسسة الذاكرة العراقية».

على الرغم من أن هذه المنظمات وسواها من المنظمات التي أسست في بريطانيا مسجلة تحت أسماء شتى ولديها على ما تزعم أهداف وبرامج مختلفة، الا

(٢٨) Women's Alliance for a Democratic Iraq, «US-Iraqi Business Sorority Program,» <http:// www.wafdi.org/projects>.

إنها أسست في واقع الأمر وأدارتها الحفنة نفسها من النساء العراقيات[٢٩].

ـ ٢ ـ

بعد الغزو، استغلت الإدارة الأمريكية النسويات الاستعماريات والمنظمات غير الحكومية المنبثقة عنها عند الحاجة إلى تبرير سياساتها والاحتلال العسكري المستمر، وللتستر على الفوضى التي أحدثتها الحرب وفشلها في القتال ضد «الإرهاب والأصولية الإسلاموية».

وقد قام كل من «الائتلاف الأمريكي العراقي للحرية» (IAFA) و«معهد الدفاع عن الديمقراطيات» (FDD) بدور في حملة ٢٠٠٤ للانتخابات الرئاسية الأمريكية. وكانا نشيطين على نحو غير عادي في صيف وخريف ٢٠٠٤، إذ نظما جولات خطابية لاثنتي عشرة «قيادية» عراقية من داخل العراق، توّجت بالتقاط صور فوتوغرافية مع الرئيس جورج بوش[٣٠]. وكررت النساء حكايات الاضطهاد الذي مارسه نظام صدام حسين وعبّرن عن امتنانهن لتحريرهن. وخاطبن الجماهير ووسائل الإعلام المحلية في عشرين مدينة في مختلف أنحاء الولايات المتحدة، وزرن عدداً من القواعد العسكرية بغية تقديم الشكر إلى الجنود الأمريكيين على «تضحياتهم»، ورسمن صورة وردية لمهمة بوش في العراق. وظهرت أخبارهن في وسائل إعلام مقروءة ومرئية أكثر من خمسمئة مرة[٣١].

عمل «تحالف المرأة من أجل الديمقراطية في العراق ـ وافدي» (WAFDI) بصورة وثيقة مع نائب وزير الدفاع بول ولفويتز «لوضع أجندة مشتركة للحزبين

---

(٢٩) شاركت السيدة آلاء طالباني، عضو الاتحاد الوطني الكردستاني، مثلاً، في تأسيس منظمة «نساء من أجل عراق حر»، ثم المجلس الأعلى للنساء العراقيات في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٣، ثم الشبكة النسائية العراقية سنة ٢٠٠٤. وقد انتقلت رند رحيم فرانكي، المديرة التنفيذية لـ «المعهد العراقي»، لتشارك في تأسيس «نساء من أجل عراق حر». كما إن تانيا غيلي (Tanya Gilly)، مديرة «برامج الديمقراطية» في معهد الدفاع عن الديمقراطيات، عضو مؤسس في منظمة «نساء من أجل عراق حر» و«تحالف المرأة من أجل الديمقراطية في العراق». أما زينب السويج وصفية طالب السهيل ونساء أخريات، فإنهن ناشطات في أكثر من ثلاث منظمات غير حكومية في آن معاً.

(٣٠) «انضم إلى النساء في مكتب الرئيس في البيت الأبيض جنود أمريكيون عادوا لتوّهم من العراق. وكن تائقات لشكر الجنود على «الحرية والتضحيات التي قدموها بالنيابة عن الشعب العراقي»، على حد قول راز رسول، المديرة التنفيذية «للائتلاف النسوي من أجل عراق ديمقراطي». وقد وصفت لقاءها مع الرئيس بالقول: «التقينا بالجنود الشجعان، الجنود الأمريكيين».

(٣١) Foundation for the Defense of Democracies [FDD], «Promoting Democracy Activists,» <http://www.defenddemocracy.org/programs/programs_show.htm?doc_id=308432&attrib_id=10014>.

الجمهوري والديمقراطي لعرض العملية السياسية بصورة نموذجية بدءاً من المستوى المحلي وصعوداً إلى البيت الأبيض»[٣٢]. وكانت لولفويتز ملاحظات أبداها أمام وفد من «القياديات العراقيات» اللواتي كن في الولايات المتحدة للتدرب عملياً على طرق عمل الديمقراطية، وفي ملاحظاته تلك حضهن على توجيه الشكر إلى الجنود الذين شاركوا في تحريرهن. وبعد أن أُعيد انتخاب الرئيس بوش، واصل «معهد الدفاع عن الديمقراطيات» تقديم الدعم والمال إلى «نساء من أجل عراق حر» و«وافدي» وسواهما، وعمل على تنظيم جهودها كلما دعت الحاجة في خدمة السياسة الأمريكية. فقد أجرى «المعهد»، مثلاً، الترتيبات لكي تقوم نساء عراقيات مختارات «بالتحدّث في البيت الأبيض وأمام أعضاء الكونغرس، وتنظيم حملات كتابة رسائل إلى السفير بريمر ومجلس الحكم العراقي وإنشاء ائتلافات من أجل النساء العراقيات تضم مجموعات من النساء الأمريكيات الليبراليات والمحافظات»[٣٣]. واحتوت رسائلهن إلى المسؤولين الأمريكيين عبارات من قبيل «يجب أن نواصل جميعاً مقاتلة الشر»، وهي مكتوبة تحت عنوان «رسالة أمهات وبنات العراق الجديد»[٣٤].

لم يكن «معهد الدفاع عن الديمقراطيات» الممول الوحيد لهذه المنظمات، بل كانت هذه الأخيرة، ولا تزال، تتلقى أموالاً من مصادر أخرى. وكان المعهد قد تلقىّ منحة بموجب «برنامج تعليم المرأة العراقية» الذي أطلقته وزارة الخارجية الأمريكية لإدارة «برنامج النسوة القياديات». وعملت «مؤسسة المرأة العراقية التعليمية» (IWEI) في شراكة مع «المؤتمر الأمريكي الإسلامي» و«منتدى المرأة المستقلة» (IWF). وعندما أعلنت وكيلة وزارة الخارجية للشؤون الدولية بولا دوبريانسكي عن منحة العشرة ملايين دولار، قالت: «سنعطي النساء العراقيات الأدوات. وسنقدم المعلومات والخبرات التي يحتجن إليها للمشاركة في الانتخابات، وسنمارس الضغوط من أجل المعاملة المنصفة في مؤسسات العراق

---

(٣٢) < http://www.georgiabizupdate.com/pdf/white-house-women-0408.pdf > (site discontinued).

(٣٣) Foundation for the Defense of Democracies [FDD], «About the Foundation,» < http:// www.defenddemocracy.org/about_fdd/about_fdd_list.htm?attrib_id = 7615 > .

(٣٤) رسالة إلى بول بريمر من «تحالف المرأة من أجل الديمقراطية في العراق». والمجموعة التابعة لها، أي «نساء من أجل عراق حرّ»، بتاريخ ٢٣ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٤، وفيها مطالبتهما الولايات المتحدة بوجوب الاهتمام بالتهديد المتزايد الموجه إلى حقوق النساء وحريتهن الدينية من أحزاب إسلاموية ورجال دين يسعون لإقامة حكم إسلامي في العراق على نحو أكثر عدوانية. «إننا نخشى أن تخفق الولايات المتحدة في الاستراتيجية الراديكالية للحرية في الشرق الأوسط الكبير، وهي الاستراتيجية التي تشكل حجر الزاوية لرئاسة الرئيس بوش».

الناشئة». ولم يؤتَ على ذكر أن المال سيعطى في الغالب لمنظمات ذات صلات قوية بالإدارة الأمريكية، مثل «منتدى المرأة المستقلّة» الذي أسسته لين تشيني، زوجة ديك تشيني، أو ذكر أن دوبريانسكي نفسها عملت أيضاً في مجلس مسشاري «المنتدى»[٣٥].

استمرت هذه المؤتمرات التدريبية بالتزامن مع العملية السياسية التي تديرها الولايات المتحدة في العراق، وتسليم السيادة، والانتخابات، ووضع مسودة للدستور، على سبيل المثال. ففي نيسان/أبريل ٢٠٠٥، استضافت «مؤسسة المرأة العراقية التعليمية» مؤتمراً للقياديات العراقيات في الأردن. وكان المؤتمر برعاية «منتدى المرأة المستقلة» و«المؤتمر الأمريكي الإسلامي» و«معهد الدفاع عن الديمقراطيات»، وبتمويل من «المؤسسة الجمهورية الدولية» (IRI) و«المؤسسة الديمقراطية الوطنية» (NDI)، اللتين قيل إنهما تسلّمتا ٨٠ مليون دولار من أجل الانتخابات العراقية.

اقتصر دور المنظمات النسوية غير الحكومية في المجتمع العراقي على دعم العملية السياسية وإطلاق الحملات للحفاظ على حقوق المرأة في دستور العراق الجديد. وفي ٤ آب/أغسطس ٢٠٠٥، توجّهت ممثّلات مجموعتين نسويتين إلى واشنطن دي سي لحشد التأييد لقضيتهن. وقد ظهرت زينب السويج، المديرة التنفيذية لـ «المؤتمر الأمريكي الإسلامي»، وبسمة فكري من «تحالف المرأة من أجل الديمقراطية في العراق ـ وافدي»، في حدث «إخباري» في نادي الصحافة القومي، لتمثيل منظمتين أُخريين أُنشئتا حديثاً: حملة «أكثر من مصدر واحد»[٣٦] و«شبكة المرأة العراقية» (أمل). وكان من قيادات الحملة في العراق، الوجوه القديمة ذاتها، رند رحيم فرانكي وصفية طالب السهيل[٣٧]. وأيدت تانيا كلي من «معهد الدفاع عن الديمقراطيات» ضرورة السعي في طلب الدعم الخارجي لقضية المرأة العراقية.

في سنة ٢٠٠٥، أطلق «معهد الدفاع عن الديمقراطيات» «مركز معلومات

---

(٣٥) Jim Lobe, «Politics-US: Foe of «Radical Feminism» to Train Iraqi Women,» Inter Press Service, 5 October 2004.

(٣٦) شكلت للاحتجاج على صيغة مسودة الدستور التي تجعل الإسلام المصدر الوحيد للقانون العراقي.

(٣٧) إن مؤسسة المرأة العراقية التعليمية مشروع مشترك بين المؤتمر الأمريكي الإسلامي ومعهد الدفاع عن الديمقراطيات ومنتدى المرأة المستقلة. انظر: Independent Women's Forum, «Iraqi Women Fighting to Save Rights in Draft Constitution,» 3 August 2005, <http://www.iwf.org/iwfmedia/show/18990.html>.

الديمقراطية العراقي»، وهو دليل على موقع على شبكة الإنترنت لمواد تعليمية عن الديمقراطية يقوم بتوزيعها شريكه، «المؤتمر الأمريكي الإسلامي»، في العراق. كما قدم الدعم إلى منظمة «أصدقاء الديمقراطية» (FOD)، الذي أسسته في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٤ منظمة «روح أمريكا» (Spirit of America)، وهي منظمة لا تتوخى الربح وتعنى في الغالب بالنساء والطلاب. وتهدف المنظمة الأمريكية غير الحكومية «أصدقاء الديمقراطية» إلى «تقديم الدعم للذين يعملون في الخطوط الأمامية: العسكريون والموظفون المدنيون الأمريكيون والناس الذين يطلبون مساعدة الأمريكيين في نضالهم من أجل الحرية»[٣٨]. وغني عن البيان أن مشاريع «روح أمريكا» في العراق هي تكريس للسياسة الخارجية الأمريكية. وهي تعتبر الاحتلال، والوجود العسكري الأمريكي، وجرائمه المتواصلة ضد السكان العراقيين السبيل إلى إقامة الديمقراطية.

انظروا إلى طريقة تعامل «روح أمريكا» مع ضعف سلطة الائتلاف المؤقتة في حرب الأفكار والصور والعلاقات العامة، وذلك حين تولت المنظمة مشروع تحديث سبع محطات تلفزيونية عراقية متوقّفة عن العمل في محافظة الأنبار غرب العراق في السنة الثانية للاحتلال:

> *إذا استطاع جيم هيك (مقاول ناجح في مضمار التكنولوجيا يعمل مع مشاة البحرية ـ المارينز) جمع ١٠٠,٠٠٠ دولار، فإن [منظمته] «روح أمريكا» ستشتري المعدات في الولايات المتحدة، وتشحنها إلى مشاة البحرية في العراق ويبدأ إرسال التلفزيون العراقي قبل موعد تسليم السيادة في حزيران/ يونيو.*
>
> *وإذا استطاع مشاة البحرية إعادة تشغيل هذه المحطات الخربة، فإن المنطقة التي سيغطيها البث تتضمن الفلوجة والرمادي. ويملك عراقيون أكفاء تأكد الجيش من صلاحيتهم للعمل معه المحطات ذات التردد العالي جداً/ التردد فوق العالي كجمعيات تعاونية.*
>
> *تبث بعض المحطات ما تبثه «الجزيرة» لعدم وجود برامج أخرى. وفي مقابل إجراءات التحديث، سيُطلب من مشغّلي المحطات العراقيين شيئان: الانتقاد مسموح، لكن الدعاية المعادية للتحالف ممنوعة، والسماح لمشاة البحرية*

(٣٨) Spirit of America, «Join Us and Make Freedom Win,» <http://www.spiritofamerica.net/site>.

بشراء فترة بث لإذاعة بيانات خاصة بالخدمات العامة، مثل إعادة فتح مدارس أو عيادات ـ أو حتى، العمليات العسكرية وشبكة الوقوع[٣٩].

في العراق، تقوم «روح أمريكا» بالترويج للديمقراطية حسب التوصية، الخاضعة للرقابة الدقيقة للتأكد من مطابقتها لمواصفاتها الخاصة ـ أي، ديمقراطية بلا مواطنة ـ هكذا تغرق المنظمة عموم الشعب بمعلومات تروّج بها لنفسها فقط بينما تهمّش المعارضين.

وقد فشلت هذه المنظمات غير الحكومية التي ترعاها الحكومتان الأمريكية والبريطانية في تقدير مواقف الشعب العراقي الوطنية ومشاعره العميقة المناهضة للاحتلال. وقد اتضح للعراقيين أن هذه المنظمات غير الحكومية ليست سوى مقاولين ثانويين يعملون لحساب قوات الاحتلال لاختراق وتقويض المجتمع العراقي الشرعي وما فيه من منظمات جماهيرية نابعة من حاجة المجتمع نفسه. لقد خلطت النسويات الاستعماريات ما بين الحاجة إلى التخلص من نظام جائر وفرض نظام استعماري جديد[٤٠]. وعن طريق صف النساء وراء أهداف تقدمية بالاسم، يحول الاحتلال الانتباه عن القضية الرئيسية وهي الاستقلال، ويعرقل في الوقت نفسه نمو منظمات نسوية أهلية تهدف إلى أن تكون جزءاً من عملية إقامة الديمقراطية.

ـ ٣ ـ

بينما تتجاهل الولايات المتحدة وحكومتها المحلية العميلة انتهاكات حقوق الإنسان في العراق، ليس هناك نقص في المبادرات «لتثقيف» النساء العراقيات عن دورهن في «بناء الديمقراطية» تحت الاحتلال. في إحدى هذه المبادرات، أعلنت وزارة التنمية الدولية ووزارة الخارجية البريطانية عن «الحاجة الملحة إلى مكان تلتقي فيه النساء في بغداد مع إعلان عملاً بـ القرار رقم ١٣٢٥»[٤١]. وحاولت باتريشيا

---

(٣٩) Daniel Henninger, «Wonder Land: Spirit of America: Here's a Way You Can Help the Cause in Iraq,» *Opinion Journal* (16 April 2004), <http://www.opinionjournal.com/columnists/dhenninger/?id=110004958>.

(٤٠) كتبت الأستاذة ليلى أحمد في هارفرد «لقد عملت أفكار أنصار المرأة الغربيين، أكانت لدى الرجال الأبويين أم أنصار المرأة، كي تبرر أساساً وعلى الصعيد الخلقي الهجوم على المجتمعات الأهلية وتدعم فكرة تفوق [الولايات المتحدة] وأوروبا». انظر: Ghali Hassan, «Colonial Violence against Women in Iraq,» Countercurrents, 31 May 2004, <http://www.countercurrents.org/iraq-hassan310504.htm>.

(٤١) اعتُمد قرار مجلس الأمن رقم ١٣٢٥ بالإجماع في ٣١ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٠. وهو يتناول بالتحديد تأثير الحرب على النساء، ومساهمة النساء في حل الصراع وإحلال سلام مستدام.

هيويت، الوزيرة البريطانية لشؤون النساء والمساواة، إقامة مجلس أعلى للنساء العراقيات. وفي ٦ آذار/ مارس ٢٠٠٣، قالت: «إذا حاربنا فعلاً في العراق، فستكون حربنا من أجل دعم القانون الدولي والتخلص من أسلحة الدمار الشامل، بيد أن هزيمة صدام حسين ستكون أيضاً تحريراً للمرأة العراقية». وافتتحت كوندوليزا رايس مركزاً لحقوق المرأة في الديوانية. وفي كلمة الافتتاح ـ التي ألقتها عبر الأقمار الاصطناعية ـ أكدت للنساء العراقيات «أننا معكن روحاً». وحضر الافتتاح قادة وجنود من قوات الاحتلال وعدد قليل جداً من النساء العراقيات. وفي الوقت ذاته، في الديوانية نفسها، عجز المزارعون (وكثير منهم نساء) عن بدء موسم الزراعة الشتوي بسبب القنابل العنقودية غير المنفجرة في أراضيهم.

وفي غضون ذلك، تمت مكافأة العديد من النسوة الاستعماريات عن طريق تعيينهن في مناصب مختلفة في حكومات الاحتلال الثلاث المتعاقبة أو في وقت لاحق. ما مدى أهمية هذا التطور؟ لقد بقيت المشاركة السياسية اسمية، كما كانت في عهد نظام صدام، رغم أنها أعلى مستوى من المشاركة في أي بلد عربي آخر بسبب نظام المحاصصة. فقد كان هناك عضوتان من خمسة وعشرين عضواً في مجلس الحكم[٤٢]، الذي أعد مخطط التقسيم الطائفي والإثني والجنوسي للحكومة المؤقتة التي تلت: الحكومة «المنتخبة»، وعضوية البرلمان، ووضع مسودة الدستور. وكان كل أعضاء المجلس التسعة الذين تناوبوا شهرياً على رئاسة العراق من الذكور بطبيعة الحال[٤٣].

في ٣٠ حزيران/ يونيو ٢٠٠٤، سلم بول بريمر «السيادة» إلى حكومة إياد علاّوي الانتقالية، التي ضمّت ست نساء بين الوزراء الثلاثين المعينين. وعملاً بالجدول الزمني الذي وضعه وفرضه بريمر للعملية السياسية، استبدلت الحكومة

---

(٤٢) كانت الدكتورة رجاء خزاعي من أصحاب الحظوة لدى الإدارة الأمريكية. وقد قال بوش في إحدى خطبه: «أريد أن أشكر صديقتي الدكتورة رجاء خزاعي التي هي معنا اليوم. هذه هي المرة الثالثة التي نلتقي فيها. في لقائنا الأول دخلت المكتب البيضوي... وفُتح الباب، قالت، «يا محرري»، وأجهشت بالبكاء... (ضحك)... وبكيت أنا أيضاً (تصفيق)». انظر: White House Office of the Press Secretary, «President, Mrs. Bush Mark Progress in Global Women's Human Rights: Remarks by the First Lady and the President on Efforts to Globally Promote Women's Human Rights,» Press Release, 12 March 2004, <http://www.whitehouse.gov/news/releases/2004/03/20040312-5.html>.

(٤٣) كانت حكومة العراق المؤقتة، من ١٣ تموز/ يوليو ٢٠٠٣ إلى ١ حزيران/ يونيو ٢٠٠٤ من تشكيل سلطة الائتلاف المؤقتة وكان عملها تحت إشراف هذه السلطة التي تقودها الولايات المتحدة. وقد شمل التقسيم الإثني والديني للمجلس ١٣ من الشيعة و٥ من العرب السنة و٥ من الأكراد (سنة أيضاً) و١ من التركمان و١ من المسيحيين الآشوريين.

في أيار/ مايو ٢٠٠٥ بالحكومة العراقية المؤقتة، التي استبدلت في ٢٠ أيار/ مايو ٢٠٠٦ بالحكومة الدائمة الأولى. وهناك أربع نساء في الوزارة المؤلفة من سبعة وثلاثين عضواً[٤٤]. وجرى لأول مرة إنشاء وزارة لشؤون المرأة. وفي الحكومات الثلاث، خُصت النساء بوزارات خدماتية.

ما مدى فعالية النساء في المناصب الرسمية الرفيعة؟ يمكن استخدام صورة صفية طالب السهيل ـ وهي عضوة مؤسسة في «نساء من أجل عراق حر» ومستشارة لوزارة الخارجية العراقية والتي عينت سفيرة في مصر ولم ينفذ القرار وعضوة في البرلمان ـ وهي تعانق السيدة جانيت نوروود التي قُتل ابنها في العراق، كمثال لإيضاح الفجوة بين استغلال الإعلام لصور النساء والواقع، وبين النساء العراقيات والنسويات الاستعماريات اللواتي يدعين التكلم باسمنا. ففي ٢ شباط/ فبراير ٢٠٠٥، دُعيت صفية طالب السهيل لحضور خطاب بوش عن حالة الاتحاد، وكان الإعداد المسرحي المتقن قد تم تحضيره لترويج صورة رئيس باتت سياسته في العراق موضع نفور متزايد في الولايات المتحدة. وقد وصفت صحيفة **واشنطن تايمز** اللقاء المسرحي بهذه الكلمات: «حلت اللحظة العظيمة الأثر، التي تمثل لقطة خاطفة عن تضحيات الأمريكيين لتحرير العراق من الدكتاتور صدام حسين، في نهاية خطاب الرئيس تقريباً، حين استدارت صفية طالب السهيل وتقدّمت نحو السيدة نوروود. تعانقت المرأتان وسط تصفيق علا دويه بالتدريج. ورفع الرئيس، الذي بدا عليه التأثر، بصره عن المنصة فيما الثواني تمتد دقيقة كاملة ـ في أطول تصفيق تشهده تلك الأمسية. وكان ابن السيدة نوروود قد قُتل في ١٣ تشرين الثاني/ نوفمبر برصاصة قناص خلال الهجوم على الفلوجة، معقل الإرهابيين في العراق»[٤٥].

أما حقيقة ما حدث في الفلوجة وكيف أثر ذلك على النساء العراقيات، فكانت مختلفة جداً. ففي ٨ تشرين الثاني/ نوفمبر٢٠٠٤، وبعد أكثر من شهرين من القصف الجوي، شنت الولايات المتحدة هجومها الكبير الثاني على الفلوجة، فأحدثت دماراً واسعاً وأودت بحياة مئات المدنيين. وقد دعمت قوات بريطانية الهجوم بمئات من الجنود الذين أُعيد نشرهم ليشكلوا جزءاً من «طوق فولاذي» حول المدينة.

---

(٤٤) إنهن نرمين عثمان (البيئة)، وبيان دزه ئي (الإسكان والتعمير)، ووجدان ميخائيل (حقوق الإنسان)، وفاتن محمود (شؤون المرأة).

(٤٥) < http://www.washingtontimes.com/national/20050203-125019-2769r.htm > . (site discontinued).

كان حجم الهجوم وتأثيره على المدنيين غير مسبوقين في التاريخ الدموي للغزو والاحتلال[٤٦]. فقد تعرض قسم كبير من الفلوجة للتدمير، ونزح مئات الآلاف من سكانها وأصبحوا لاجئين. وفي ٧ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٥، عرضت محطة تلفزيون فضائية إيطالية فيلماً أثبتت فيه استخدام الولايات المتحدة الفوسفور الأبيض. وأجرى البرنامج، وهو بعنوان «الفلوجة: المجزرة الخفية»، ومن إعداد مراسل قناة راي نيوز (RAI News) سيغفريدو رانوتشي، مقابلات مع عسكريين أمريكيين، قال واحد منهم، وكان قد قاتل في الفلوجة: «سمعت الأمر بالانتباه لأنهم سيستخدمون الفوسفور الأبيض ضد الفلوجة. وهذه المادة معروفة في المصطلحات العسكرية باسم ويلي بيت... والفوسفور يحرق الأجسام، وفي الواقع يذيب اللحم حتى العظم... وقد رأيت أجسام نساء وأطفال محروقة. والفوسفور ينفجر ويشكل غمامة ويهلك أي شخص ضمن محيط قدره ١٥٠ متراً»[٤٧].

وقد أجرى ظاهر جمايل، الصحافي الأمريكي في وكالة إنتربرس سيرفيس (Inter Press Service)، مقابلة مع طبيب قام بتصوير شهادة فتاة في سن المراهقة: «يقول الطبيب عن إحدى الشهادات التي صورها بالفيديو مؤخراً، تحكي إحدى الحكايات مراهقة في السادسة عشرة، مكثت ثلاثة أيام مع جثث عائلتها التي قُتلت في منزلها. حين دخل الجنود كانت في بيتها مع أبيها وأمها وشقيقها البالغ من العمر ١٢ سنة وشقيقتيها. شاهدت الجنود وهم يدخلون ويطلقون النار على أمها وأبيها مباشرة، من دون أن ينبسوا بكلمة».

تمكنت الفتاة من الاختباء خلف الثلاجة مع أخيها وشهدت جرائم الحرب بشكل مباشر. وقال الطبيب: «ضربوا شقيقتيها ثم أطلقوا النار على رأسيهما». وبعد هذا استبد الغضب بأخيها فجرى باتجاه الجنود وهو يصيح فيهم، فأردوه قتيلاً». ظلت الفتاة مختبئة بعد انصراف الجنود وبقيت مع شقيقتيها لأنهما كانتا تنزفان ولا تزالان على قيد الحياة. منعها الخوف من أن تصرخ طلباً للعون لأنها خشيت أن يعود الجنود ويقتلوها أيضاً. وظلت على تلك الحال ثلاثة أيام بلا ماء ولا طعام. وفي النهاية رآها أحد القناصة الأمريكيين وأخذها إلى المستشفى».

---

(٤٦) Remember Fallujah, <http://www.rememberfallujah.org>.

(٤٧) Peter Popham, «US Forces «Used Chemical Weapons» during Assault on City of Fallujah,» *Independent*, 8/11/2005, <http://news.independent.co.uk/world/middle_east/article325560.ece>.

يقول جمايل إن الطبيب روى له حكاية أخرى قام بتوثيقها، عن أُم كانت في بيتها خلال الحصار. «في اليوم الخامس من الحصار تعرض بيتها للقصف، وانهار السقف على ابنها فقُطعت ساقاه. ولبثت ساعات عاجزة عن الخروج من البيت لأنهم أعلنوا أن كل من يسير في الشارع سيتعرض لإطلاق النار. وكل ما استطاعت أن تفعله الأم هو تغطية ساقيه ومراقبته وهو يموت أمام عينيها»(٤٨).

بعد الهجوم بسنة، وصفت صحيفة **نيويورك تايمز** مدينة الفلوجة بأنها «دولة بوليسية في واقع الأمر»، حيث تنتشر نقاط التفتيش العشوائية ودوريات جنود مشاة البحرية (المارينز) والجنود العراقيين. ووجدت مراسلة صحيفة **صنداي تايمز** هلا جابر أن «من المستحيل ألا يصاب المرء بالصدمة لمرأى الدمار، حيث تمتد مساحات الأنقاض على مدى النظر». وفي تموز/يوليو ٢٠٠٥، كانت الأنقاض لا تزال على حالها وكانت المدينة لا تزال تنتظر عودة ما يقدر بخمسين ألف نسمة من سكانها الذين أجبروا على النزوح إليها.

لقد قُتل أكثر من ٦٠٠ عراقي في الفلوجة منذ أن بدأ المارينز حصارهم عليها، وكان معظم القتلى نساء وأطفالاً وشيوخاً. وتم دفن الجثث في ملعبين لكرة القدم زار أحدَهما مراسل «الأسوشييتد برس»، وقد مُلِيء بصف تلو آخر من القبور(٤٩). وحول الفلوجة، أُنشئت المخيمات لإيواء النساء والأطفال المشردين. لم يسمح للذكور بين الخامسة عشرة والخمسين بمغادرة المدينة، لذا لبثت ١٥٠ ألف امرأة ينتظرن في كرب لا مثيل له أخباراً عن آبائهن وأبنائهن وأزواجهن. وكان قيام جندي من مشاة البحرية الأمريكية بقتل جريح عراقي داخل أحد مساجد الفلوجة، في عملية إعدام فوري صورها تلفزيون NBC، واحدة من جرائم قتل كثيرة، وفقاً لشاهد أجرى تلفزيون «الجزيرة» مقابلة معه(٥٠).

منذ الهجوم على الفلوجة، استمرت الولايات المتحدة في مهاجمة بلدات ومدن أخرى في العراق، بما فيها الرمادي وهيت وبغداد والحديثة والقائم وكربلاء وتلعفر وسامراء. وخلال الفترة الممتدة من ١ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٥ إلى ٦

---

(٤٨) Dahr Jamail, «Stories from Fallujah,» Dahr Jamail's Weblog, 8 February 2005, <http://dahrjamailiraq.com/weblog/archives/dispatches/000196.php>.

(٤٩) انظر: «Fallujah Death Toll for Week More than 600,» *USA Today*, 11/4/2004, <http://www.usatoday.com/news/world/iraq/2004-04-11-fallujah-casualties_x.htm>.

(٥٠) «U.S. Probes Shooting at Fallujah Mosque: Video Shows Marine Killing Wounded Iraqi,» MSNBC, 16 November 2004, <http://www.msnbc.msn.com/id/6496898>.

شباط/ فبراير ٢٠٠٦، هاجمت الطائرات الحربية الأمريكية العاملة تحت إشراف القيادة الوسطى الأمريكية ما لا يقل عن ٢٢ مدينة عراقية ـ ضعف العدد الذي ضُرب خلال الأشهر الخمسة نفسها قبل ذلك بسنة واحدة[٥١]. ومع ذلك رحّب جميع أعضاء الحكومات المتوالية في المنطقة الخضراء، بمن فيهم الوزيرات، بمعاناة المدنيين العراقيين، الذين أمطرت مدنهم بوابل من قنابل النابالم والقنابل الفوسفورية والعنقودية، بعبارات خطابية منمقة عن «التدريب على ممارسة الديمقراطية».

تظهر عدة وثائق نشرها «الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية» (ACLU) في ٧ آذار/ مارس ٢٠٠٥ وجود ثلاث عشرة امرأة تعرضن لحالات الانتهاك والاغتصاب اثناء احتجازهن. وتبين الوثائق أنه لم يجر اتخاذ أي إجراء في حق أي جندي أو مسؤول مدني نتيجة تلك الحالات. كما تقدم الوثائق دليلاً إضافياً على قيام جنود أمريكيين بإتلاف أدلة على إساءة المعاملة وأعمال التعذيب بغية تلافي تكرار فضيحة سجن أبو غريب.

إن أحد العيوب الرئيسية المميزة لمن تولين المناصب الرسمية في حكومات الاحتلال المتعاقبة هو فشلهن في تمثيل هموم النساء العراقيات وما يعانينه من قسوة الحياة اليومية تحت الاحتلال. فهن انتقائيات إلى حد بعيد في استجابتهن لمحنة النساء العراقيات، بحكم التزامهن بسياسات أحزابهن وبأجندة السياسة الأمريكية في العراق. وقد وضح هذا الأمر إبان الضجة السياسية التي ثارت حول محاولة مجلس الحكم المؤقت تبني الشريعة الإسلامية من خلال القرار رقم ١٣٧، وفي وضع مسودة الدستور. كما إن رد المجلس كان متأثراً بواقع أن معظم الوزيرات والعدد القليل ممن يشغلن مناصب رسمية رفيعة كن، في الوقت نفسه، مديرات المنظمات النسوية الممولة من الولايات المتحدة، وهي المنظمات التي أدت دوراً فاعلاً في تعبئة الرأي العام لشن الحرب على العراق في المقام الأول.

في آب/ أغسطس٢٠٠٥، التقت مجموعة من النساء العراقيات اللواتي ساندن الغزو الأمريكي ـ البريطاني السفير الأمريكي زلماي خليل زاد، في محاولة للضغط على السياسيين الذين يصوغون دستور العراق كيلا يحدّوا من حقوق المرأة. وخشيت منظمات نسوية غربية وبعض الناشطات العراقيات أن تستخدم الشريعة الإسلامية، في حال اعتبارها المصدر الرئيسي للتشريع، لتقييد حقوقهن، وبخاصة في ما يتعلق بالزواج والطلاق والإرث. وتزعم الولايات المتحدة أنها تشاطرهن

(٥١) <http://www.rememberfallujah.org>.

هذا القلق، لكن النساء العراقيات، عموماً، لا يرين ذلك، لأن أولوياتهن في ظل الصراع اليومي من أجل البقاء لا يتيح لهن الفرصة لخوض الصراع على دستور يكتب تحت الاحتلال.

وقد تعزز هذا الموقف حين قدمت الولايات المتحدة إلى حكومة إياد علاوي المؤقتة مسودة لدستور أعدّه أستاذ مساعد في جامعة نيويورك اسمه نُوح فلدمان. ولما علم الراحل إدوارد سعيد بهذا التعيين، كتب:

> *أُعلن في الصحافة الأمريكية مؤخراً أن أستاذاً مساعداً في القانون في جامعة نيويورك عمره ٣٢ عاماً، وهو المدعو نوح فلدمان، سيكون مسؤولاً عن وضع دستور عراقي جديد. وذكرت الروايات الإعلامية كافة عن هذا التعيين المهم أن فلدمان خبير ألمعي بالشريعة الإسلامية، وأنه درس اللغة العربية منذ أن كان في الخامسة عشرة من عمره ونشأ كيهودي أرثوذكسي. لكنه لم يزاول المحاماة في العالم العربي قط، ولم يذهب إلى العراق في يوم من الأيام، ويبدو أنه ليس لديه خلفية عملية حقيقية عن مشكلات العراق ما بعد الحرب. يا له من احتقار سافر لا للعراق نفسه فحسب، بل أيضاً للاعداد الكبيرة من العقول العربية والإسلامية المختصة بالقوانين التي كان في وسعها أن تقوم بعمل مقبول تماماً في خدمة مستقبل العراق. لكن لا، فأمريكا تريد أن يقوم بهذا العمل شاب غض لتتمكن من القول «أعطينا العراق ديمقراطيته الجديدة»*(٥٢).

هاكم بعض الحقائق الجديرة بالذكر: كان عدد النساء الأعضاء في اللجنة الدستورية تسع نساء فقط من مجموع واحد وسبعين عضواً، وكان اختيار أعضاء اللجنة مبنياً على التقسيم الطائفي والإثني الذي ميّز الحكومة المؤقتة. وقد تم التصويت على الدستور في منطقة حرب، في بلد مهدد بحرب أهلية. وقد صمّمت عملية كتابته بحيث لا يمثل حاجات الشعب العراقي وإنما تطابقاً مع جدول زمني مفروض بهدف إضفاء الشرعية على الاحتلال. ومارست الولايات المتحدة ضغطاً شديداً على العراقيين المنخرطين فيما يسمى بالعملية السياسية كي يلتزموا بالمهلة التي تحددت نهايتها بالخامس عشر من آب/ أغسطس ٢٠٠٥، معتبرة أن أي تأخير سيكون انتكاسة للجهود الأمريكية الرامية إلى الحفاظ على الزخم السياسي لمكافحة «التمرد».

---

(٥٢) Edward Said, «The Arab Condition,» *Al-Ahram Weekly* (22 May 2003).

قامت وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس بزيارة مفاجئة للعراق، وحضت «الحكومة العراقية» الوليدة على التصدي للتمرّد والإسراع في وضع مسودة دستور شامل. وطالب وزير الدفاع دونالد رامسفيلد العراقيين صراحة بأن يفرغوا من وضع دستورهم الجديد في الوقت المحدد عندما وصل إلى بغداد في إحدى زياراته غير المعلنة. وفي دعوته اللجنة المكلفة بكتابة الدستور إلى التزام نهاية المهلة، أي ١٥ آب/أغسطس، قال بلهجة تهديد «حان الوقت لإحراز تقدم». وحذا طوني بلير وجاك سترو حذوه. وتبين بعد نشر الدستور أنه وثيقة تقسيم بدل أن يكون وثيقة توحيد، إلى حد أن واضعه الأمريكي اضطر إلى إسداء النصيحة التالية: «كلما ابتعد الدستور عن القضايا الخلافية، ازداد احتمال المصادقة عليه»(٥٣).

ما قيمة وجود الدستور إذا لم يطبق؟ في عهد صدام حسين، كان للعراق دستور وصف على نطاق واسع في العالم العربي بأنه دستور تقدمي وعلماني. كان مستنداً في العديد من البنود على الدستور المؤقت الذي وضع في ١٦ تموز/يوليو ١٩٧٠، وجرى تعديله عدة مرات. وقد أعلن أن العراق «جمهورية ديمقراطية شعبية ذات سيادة». وأُعلن أن الإسلام دين الدولة، لكن مع ضمان حرية المعتقدات والشعائر الدينية. وأن العراق مكون من قوميتين رئيسيتين: هما العربية والكردية. ونص تعديل للدستور تم في آذار/مارس ١٩٧٤ على منح الأكراد حكماً ذاتياً في المنطقة التي يشكلون فيها أغلبية السكان. وفي هذه المنطقة كانت اللغتان العربية والكردية لغتين رسميتين على صعيدي الإدارة والتعليم. بيد أن الدستور قضى أيضاً بأن تكون ممارسة الأكراد لـ «الحقوق القومية» وممارسة جميع الأقليات لـ «الحقوق الشرعية» ضمن إطار الوحدة العراقية، واشترطت الوثيقة عدم إمكانية التخلي عن أي جزء من العراق.

وأوضحت المواد ١٩ ـ ٣٦ من الدستور الحقوق والواجبات الأساسية بالتفصيل. وضمنت للمواطنين كافة الحق في محاكمة عادلة بالطرق القانونية، وعدم انتهاك حرمة الشخص والسكن، وخصوصية المراسلات، وحرية السفر. وكفل الدستور للمواطنين أيضاً حقهم في الحرية الدينية، وحرية التعبير، والنشر، والتجمع، وتشكيل أحزاب ونقابات وجمعيات مهنية. ووجه الدستور الدولة لمحو الأمية وضمان حق المواطنين في التعليم المجاني، من المرحلة الابتدائية

(٥٣) Noah Feldman, «The Way We Live Now: Foundering?,» *New York Times Magazine* (31 July 2004).

وصولاً إلى المرحلة الجامعية. وطلب الدستور من الدولة أيضاً تأمين فرصة عمل وعناية صحية لكل مواطن. ونصت المادة ٢٥ من الدستور على «ضمان حرية الدين والمعتقد وحرية ممارسة الشعائر الدينية، على ألاّ يتعارض ذلك مع أحكام الدستور وأن يمتثل للنظام والآداب العامة». وأتاحت المواد ٤٧ ـ ٥٦ من الدستور تشكيل جمعية وطنية منتخبة، على أن يحدّد مجلس قيادة الثورة صلاحياتها. وقد أجريت انتخابات خاصة بالجمعية لأول مرة في حزيران/يونيو ١٩٨٠. وتوالت انتخابات الجمعية الوطنية بمعدل مرة واحدة كل أربعة أعوام، وكان ١٥ بالمئة من الأعضاء المنتخبين نساء.

هذا الدستور، بما فيه من مواد إيجابية كثيرة عن المواطَنة، لم يمنع نظام صدام من انتهاك حقوق الإنسان. وهو الوضع نفسه القائم الآن. فبموجب الدستور الجديد، تمارس مليشيات الأحزاب التي تترأس الحكومة الانتهاكات اليومية الواسعة لحقوق المواطنين بمباركة الاحتلال الذي تقوده الولايات المتحدة. لهذا السبب تشعر معظم النساء العراقيات بأن الدستور ليس قضيتهن. إذ ينبغي أن يكون الدستور تطويراً لدساتير سابقة وضِعت في ظل دول عراقية مختلفة منذ أن وضع الدستور الأول سنة ١٩٢٥. وللقيام بذلك، يجب أن يكون المرء متحرراً من المخاوف الراهنة وقادراً على التمتع بحقوق الإنسان الأساسية مثل السير في الشوارع باطمئنان، وهو ما لا يستطيعه العراقيون في الوقت الحاضر. يضاف إلى ذلك ضرورة أن تكون جدولة كتابة الدستور من وضع الشعب نفسه ووفق حاجاته وليس مفروضاً من قوات الاحتلال.

في ضوء هذا، لنتفحص اهتمامات المنظمات النسوية الأمريكية والبريطانية التمويل، حسنة النية ظاهرياً، ولنتفحص أيضاً القضية الرئيسية التي تشن هذه المنظمات حملاتها من أجلها في ما يتعلق بالدستور. فالمنظمات هذه، مثل «تحالف المرأة من أجل الديمقراطية في العراق»[٥٤] و«شبكة النساء العراقيات» و«أصدقاء الديمقراطية»، تعارض إدخال الشريعة في قانون الأسرة وتدعو إلى إزالة المادة ٤١ من الدستور العراقي، وهي مادة تنص على أن «جميع العراقيين أحرار في التزام نظام للأحوال الشخصية وفق دياناتهم أو طوائفهم أو معتقداتهم أو خياراتهم، التي ينظمها القانون».

(٥٤) يتمثّل تحالف المرأة من أجل الديمقراطية في العراق حالياً بستة أعضاء في الجمعية الوطنية (من بين ٧٠ امرأة والعدد الإجمالي للممثلين، أي ٢٧٠ ممثلاً).

إن معظم، إن لم يكن جميع، الدساتير في البلدان العربية، بما فيها البلدان الأكثر علمانية، إما تستند صراحة إلى الشريعة، أو تنص على ألاّ يتعارض شيء مع الشريعة. وهذا موقف يتعلّق بالهوية الثقافية، وله في حد ذاته القليل من التطبيقات الملموسة. فالأحكام الشرعية تطبق وفق تفسيرات متعددة ومتباينة، وتختلف اختلافاً شديداً من المملكة العربية السعودية إلى تونس، ولا تقدم مصدراً واحداً للتفسير لأن للإسلام مدارس اجتهاد متعددة. وتتفاوت الاجتهادات بين السلفيين والإخوان المسلمين المعتدلين. فالأولى تدعو إلى العودة إلى إسلام السلف الصالح، وتملي بأن مكان المرأة هو البيت كي تنجب وترعى الأطفال والزوج. والأخرى تشجع النساء على المشاركة في الحياة العامة، بما في ذلك المشاركة في العمل السياسي.

وتحاول معظم النساء العراقيات التعامل بحساسية مع مصيبة الاحتلال من جهة وتزايد الممارسات الرجعية ذات التأثير السلبي على حقوقهن وطريقة عيشهن من جهة ثانية. والمشكلة في العراق اليوم ليست الإسلام. بل إن لدينا على الأرض اليوم أحزاباً سياسية تتعاون مع الاحتلال من وراء حجاب؛ وهي عبدة لسياسة الإمبراطورية وادعاء الولاء الديني، لا للإسلام بقدر ما هو للانقسامات الطائفية. ومن المفارقات المريرة أن يرتدي حتى الحزب الشيوعي هذا الحجاب.

لنبدد بعض الخرافات عن العلمانية والرموز مثل اللباس. غالباً ما يوصف العراق بأنه بلد علماني. وكان هذا الوصف مقبولاً جداً بمعناه الظاهري في إثر ثورة ١٩٥٨، التي أكسبت الحزب الشيوعي الشعبية. والحقيقة هي، بعيداً عن حركات المد والجزر السياسية المباشرة، أن العراقيين كانوا وسيبقون حَمَلة لواء الإسلام الفخورين، لكن بتفسيرهم الخاص بهم والذي يمكن وصفه بثقافة الإسلام[٥٥]. وينطبق هذا عبر الأطياف السياسية والطبقية، على اليسار العلماني والإسلاميين والقوميين سواء بسواء. وبالنسبة إلى أغلبية العراقيين، لم يكن الإسلام قط شعاراً أو راية. ولم يكونوا بحاجة لا إلى العمامة ولا إلى الحجاب كي يثبتوا هويتهم أو دينهم أو طائفتهم. ولا يزال الإسلام أساس هويتهم الثقافية. وعلى غرار التاريخ، يحمله العراقيون بين جوانحهم كجزء من حياتهم، وغالباً من دون الحاجة إلى الإعلان عنه بشكل لحية أو غطاء للرأس.

(٥٥) إن ٩٥ بالمئة من العراقيين مسلمون، والباقون مسيحيون ويزيديون.

إن القرآن الكريم، الذي يرتكز الإسلام عليه، هو أكثر من مجرد كتاب مقدس. إنه أيضاً الآصرة الثقافية المتينة التي توحد بين أكثر من مليار مسلم، أي نحو خُمس سكان الأرض. ومن خلال لغته، يتعارف ٣٠٠ مليون ناطق بالعربية ويتواصلون، ويجري ذلك بصورة متزايدة من خلال مشاهدة القنوات الفضائية والاتصال عبر الإنترنت.

لقد حفظ القرآن الكريم جمال اللغة وحماها، وأنتج الإسلام حضارة ذات جمال أخاذ ودفع بإنجازات البشرية إلى الأمام على كافة مستويات ومناحي الحياة. وخلافاً لبعض الأفكار الخاطئة في الغرب، يوطد الإسلام قيماً إنسانية شاملة تدعو إلى احترام الكبار في السن رجالاً كانوا أم نساء، ورعاية الأمهات واحترامهن، ويحض على سلوك سبل الحكمة والكرم والتسامح والمعرفة. ويجل الرحمة والمغفرة والقيم الأخلاقية الفطرية، ويحرم قتل غير المحاربين: النساء والأطفال والشيوخ، وحتى قطع الأشجار. هذه هي القيم، وليس العقوبات وقواعد اللبس، التي يمثلها الإسلام بالنسبة إلى الكثير من العراقيين.

بالتأكيد، ينصح القرآن الكريم النساء المسلمات أن يكن متواضعات في تصرفهن ولباسهن، إلا أن هذه القيود تطبق على الرجال أيضاً. وهناك آية واحدة فقط تشير إلى حجاب المرأة[٥٦]، إذ تنص أن على زوجات النبي (ﷺ) أن يكن خلف حجاب حين يتحدث إليهن ضيوفه من الرجال. ويزعم بعض الحداثيين أن هذا الأمر لا ينطبق على عموم النساء بل يقتصر على وضع معين كان يقتضي تعليم المسلمين الأوائل إبداء الاحترام لحرمة حياة النبي (ﷺ) الخاصة. ويرد ذكر العقل في القرآن الكريم ٤٩ مرة، والعلم ١٠٨ مرات، والرحمة أكثر من ٣٠٠ مرة. إذاً، لماذا يجري تجاهل جميع هذه المآثر وتركيز النقاش على صورة واحدة ومسألة واحدة فقط، هي مسألة الحجاب؟

أما تعدد الزوجات، وقبوله مشروط بالعدل في القرآن، فقد جُعل في غاية الصعوبة في دستور ١٩٥٨ العراقي. كما أن ذلك الدستور منح المرأة الوصاية على

---

(٥٦) ﴿**وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون**﴾ [**القرآن الكريم**، «سورة النور،» الآية ٣١].

الأولاد في حال حدوث طلاق، وحظر الطلاق والزواج دون سن السادسة عشرة. إن قوانين الإرث متشابهة في جميع البلدان العربية والإسلامية، إذ يضمن لجميع أفراد العائلة نصيبها من الإرث. ونسبة الإرث محكومة بقواعد صارمة تقضي بأن يكون للأنثى نصف نصيب الذكر، حتى بعد الزواج، وبأن ترث الزوجة نصيباً ثابتاً من أملاك الزوج المتوفى. وكان هذا تقدماً جذرياً لمصلحة المرأة في زمن النبي محمد، يوم كانت النساء محرومات من الإرث كلياً. وهو يعني أيضاً، على سبيل المثال، أن ثلث الثروة على الأقل في أي بلد مسلم، في أي وقت كان، تملكها النساء. يضاف إلى ذلك أن الشريعة الإسلامية تفرض ومنذ أكثر من خمسة عشر قرناً، ضمانا لاحتفاظ المرأة بما لها من أموال أو ممتلكات، بانها ليست ملزمة بأن تقاسم رجال أسرتها هذه الأموال أو الممتلكات. وعلى نحو ذلك، فإن أجر المرأة عن أي عمل تقوم به أو راتبها ملك لها ولا يمكن للزوج الحصول عليه إلا برضاها.

إلا أن هذا ليس تبريراً للممارسات السيئة ضد المرأة في بلدان تدّعي الإسلام كمصدر للقانون. وفي الواقع، هناك نقاش حيوي ومهم يدور بين الإسلاميات والنسويات المدافعات عن تحرير المرأة وآخرين يهدف إلى استعادة موقف الإسلام الحقيقي من المرأة من خلال الحوار الايجابي. وإني أتفق مع عالمة الاجتماع العراقية سناء الخياط من أن «الإسلام، نظرياً على الأقل، ليس ديناً معادياً للمرأة، أو ديناً يتعارض مع مصالح المرأة على مختلف الاصعدة. إن تزييف الإسلام أو إفساده هما اللذان يعملان ضد مصالح المرأة بحيث أصبح الدين أداة في أيدي الراغبين في السيطرة على المرأة»(٥٧).

صحيح أن بعض الاجتهادات الفقهية تساهم في تقوية التقاليد الاجتماعية المتوارثة التي تميز بين الجنسين، وذلك للحفاظ على النظام الأبوي للعائلة والمجتمع. ولكن لفهم نضال المرأة داخل المجتمع العراقي، من الضروري التذكر بأن الإسلام جزء أساسي من هويتنا الثقافية ويجب أن يستمر في كونه جزءاً لا يتجزأ من التطور العضوي للمجتمع ككل.

إن وحشية الاحتلال، واعتماده على أحزاب عميلة تستغل الإسلام الطائفي

---

(٥٧) Sana Ayoub Sabri al-Khayyat, «The Position of Iraqi Women within the Family: With Particular Reference to Married Women,» (Ph. D. Dissertation, University of Keele, 1985).

السلفي كغطاء (استخدم مصطلح «السلفية» لوصف الأصوليين السنّة والشيعة، مع أنه يُقرن عادة بالسنّة)، وانهيار الدولة، وسفك الدماء وجو الإرهاب ـ ساهمت جميعاً في تدهور حقوق المواطَنة تدهوراً سريعاً. لذا، يستحيل التعامل مع الشريعة في ما يتعلق بحقوق المرأة وحدها، بصرف النظر عن مقدار أهمية حقوق المرأة. ولا بد من التعامل معها ضمن الواقع القاسي الذي يعيشه العراق المحتل والانقسام الطائفي الإسلامي الذي يُستغل سياسياً لشل وتخريب جميع مقدرات المجتمع، وخصوصاً ما يتعلق منها بالنساء.

إن النساء العراقيات يعرفن أن العدو ليس الإسلام. وهناك نفور شديد من أي شخص يحاول تجنيد قضايا المرأة في «الحرب على الإرهاب»، أي الحرب العنصرية الموجهة ضد العالم الإسلامي. ومعظم النساء العراقيات لا يعتبرن المجتمع التقليدي، المجسد بالحي والعائلة الممتدة، هو العدو، مهماً يكن مقيِّداً من حين إلى آخر. بل إنّه من الناحية العملية، في الظروف الاستثنائية تحت الاحتلال، حامي النساء والأطفال وحامي سلامتهم ومتطلباتهم المعيشية الاساسية، على الرغم مما يفرضه المجتمع، عادة، على أفراده من متطلبات جماعية بشأن قواعد اللباس والسلوك الشخصي. إن العدو هو انهيار الدولة والمجتمع المدني. والمجرم هو الغزو العسكري الأجنبي والاحتلال.

الفصل الثالث

الحيــاة تحـت الاحتــلال

ـ ١ ـ

الحياة تحت الاحتلال قاسية وموحشة. فتفكّك الدولة، وعجز الحكومة واقتصارها على المنطقة الخضراء الحصينة، وغياب النظام والقانون، وما ينتج من ذلك من فوضى يجعل فكرة المواطَنة هنا مستحيلة، وصناعة الموت هي السائدة.

لقد قامت ناشطات عراقيات مستقلات، مثل الكثير من المدافعات عن حقوق المرأة في بلدان عربية أخرى، باستغلال إطار المواطَنة دائماً كأداة فعالة للتعامل مع اشكالية عدم مساواة المرأة في حق الوصول إلى المجالات العامة. وقد أثبت مرور خمس سنوات من الاحتلال أن حقوق المرأة العراقية قد تدهورت على نحو مأساوي ومتزايد. فالنساء اللواتي ناضلن ضد الدكتاتورية عقوداً عديدة يقلن من أن اليوم أسوأ من الأمس، وأن الأمس أسوأ من اليوم الذي سبقه. وهن لسن، في أغلب الأحوال، بعثيات ولا متطرفات ولا أصوليات. غير انهن يشعرن بالغضب والمرارة حين يرين موارد البلد تُنهب فيما يعانين من الفقر المدقع، ويفتقرن إلى أدنى حقوق إبداء الرأي في العملية السياسية. كما يشعرن باليأس والقنوط لعدم الوضوح الذي يكتنف حياتهن.

إن نهب البلد من قبل شركتي هاليبرتون وبكتل وشركات متعاقدة أخرى، وعلى أيدي متعاقدين محليين ثانويين ومرتزقة، جار على نطاق واسع، ويشارك في النهب الكثير من السياسيين، ومنهم نساء. تدرج منظمة الشفافية الدولية (Transparency International)، وهي منظمة مقرها برلين وتتولى مراقبة الكسب الرسمي غير المشروع والمحسوبية والرشوة، العراق في المرتبة الثالثة، بعد هايتي وميانمار، على لائحة الدول الأكثر فساداً في العالم. بل إنّ رئيس لجنة النزاهة في العراق، وهو قاض مرموق أثنى الأمريكيون عليه بوصفه واحداً من النقاط القليلة المبشرة بالنجاح في البلد، يخضع لتحقيق دقيق يتعلق بالفساد. وكان قد طالب

بإلحاح بمقاضاة عدة وزراء سابقين، بينهم وزيرات ومسؤولات. فالفساد يكلف البلد مليارات الدولارات. وحكومة اقليم كردستان، التي يستشري فيها الفساد والرشوة والمحسوبية والمنسوبية، مثال واضح على الفجوة المتسعة بين الأحزاب السياسية التي تدّعي تمثيل الشعب من جهة، والشعب نفسه من جهة أخرى. لقد خُصص لحكومة اقليم كردستان ١٧ بالمئة من عائدات العراق لسنة ٢٠٠٧ والبالغة ٤١ مليار دولار. وتلقت منذ سنة ٢٠٠٣ مليارات الدولارات من العائدات الوطنية العراقية ومن مانحين دوليين، ومع ذلك فشلت في أن تؤمن لسكان المنطقة حاجاتهم الأساسية، فمعظم السكان يحصلون على ساعتين فقط من التيار الكهربائي يومياً[١].

في السنة الخامسة من الاحتلال، تعني «العملية الأمنية» العمليات العسكرية التي تنفذها القوات الأمريكية، والقصف الجوي، وإطلاق النار العشوائي على المدنيين، وعمليات السطو المسلح، وخطف الابرياء من قبل العصابات الإجرامية (يرتدي افرادها أحياناً لباس الشرطة أو الجيش)، بالإضافة إلى مداهمة البيوت من قبل رجال مقنَّعون يستقلون سيارات رسمية لاقتياد أفراد أسرة ما أو قتلهم في الحال. إنها تعني اجبار العوائل على النزوح من مناطق سكنهم كجزء من أعمال التطهير العرقي أو الطائفي أو السياسي، الأمر الذي حول مئات الآلاف من أبناء الشعب إلى لاجئين. إنها تعني أن العراقيين يعيشون بلا حماية أو تعويض قانوني، في جو عام من العداء بين الأحزاب السياسية المنخرطة في عملية الاحتلال السياسية سواء كانت داخل حكومة الاحتلال أو خارجها.

أدناه، تدلي شيستا عزيز (Shaista Aziz)، الموظفة في واحدة من منظمات الإغاثة الدولية بشهادتها عن الحال في مدينة بغداد المحتلة وتقدم صورة قلما تجدها في صحف نيويورك ولندن. وشيستا متزوجة من الدكتور سلام إسماعيل، الذي كان يعمل في مستشفى الفلوجة العام عندما شنت الولايات المتحدة هجومها الوحشي على المدينة. وانتقلت مع زوجها إلى بغداد في كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٧ لمساعدة حماتها، التي قتلت الميليشيات أخاها الوحيد، وأصبح ابن عمها في عداد المفقودين:

---

(١) «Kurdish Youth have Lost Trust in KRG,» Kurdish Aspect, 15 January 2007, <http://www.kurdishaspect.com/doc0115KA.html>.

بغداد تشبه مدينة أشباح، فمعظم سكانها اليائسين البالغ عددهم ستة ملايين ونصف المليون نسمة مسجونون في بيوتهم، إذ من الخطورة بمكان الخروج من البيت، وبالكاد يخرج أحد من بيته بعد غروب الشمس. ويحصل بعض الناس من شركة الكهرباء الوطنية على تيار كهربائي بمعدل ربع ساعة ـ ساعة واحدة في اليوم؛ ونحن محظوظون بتمكننا من شراء مولد كهربائي، لكن الكثير من الناس مضطرون إلى تمضية أيامهم بهذا المقدار المحدود من التيار الكهربائي وتمر أيام من السنة يحل فيها البرد القارس في بغداد ولا يملك بعض الناس وسيلة لتدفئة بيوتهم.

في الليل يُسمع دوي العيارات النارية والقذائف الصاروخية. وتحلّق طائرات الهليكوبتر الأمريكية في الأجواء ليلاً ونهاراً، وتطير في بعض المناطق على علو منخفض جداً بحيث لا تفصلها عن أسطح المنازل سوى بوصات قليلة، الأمر الذي يجعل المنازل تهتز باستمرار. وفي أثناء تحليقها يلقي الجنود الأمريكيون أجساماً كاشفة للحرارة في محاولة لحرف الصواريخ التي يُطلقها باتجاهها المقاومة والمقاتلون وأفراد المليشيات وآخرون.

لم تمر دقيقة واحدة في اليوم شعرت فيها بأمن أو أمان؛ فالمليشيات تطلق النار على البيوت، وفي وسع جنود الجيش الأمريكي أو الجيش العراقي أن يدخلوا بيتك في أي وقت كان ليعتقلوا ابنك أو أخاك أو أباك ولا تعرف إذا ما كنت ستراهم ثانية.

في إحدى الليالي وصلت مجموعة من الجنود الأمريكيين إلى بيتنا من دون سابق إنذار. كانوا يحاولون التحقق مما إذا كنا من المليشيا أو إذا كان لدينا أسلحة. أشار والد زوجي العجوز إلى النوافذ حيث كان أفراد احدى المليشيات قد قاموا قبل أسابيع قليلة بإطلاق ذخيرة حية عليها وكادت إحدى الرصاصات تصيب رأس شقيقة زوجي النائمة. ثم سأل الجنود حماي ما إذا كان يريد سلاحاً وأصروا على القول إنهم مستعدون لإعطائه سلاحاً. فقال لهم إن كل ما يريده هو أن يتركوه وعائلته وشأنهما[٢].

لفهم أولويات النساء العراقيات تحت الاحتلال، من المهم فهم تعقيدات وضعهن الخاص وتقييمه بعيداً عن وجهة نظر النسويات الغربيات.

---

(٢) رسالة إلكترونية من شيستا عزيز إلى المؤلفة بتاريخ ٢٧ شباط/ فبراير ٢٠٠٧.

فمن النادر بالنسبة إلى المرأة العراقية، مهماً كانت درجة استقلالها الاقتصادي، أن تعيش وحدها بمحض اختيارها. فالأنثى البالغة هي دائما تقريبا عضو في أسرة مكونة من خمسة إلى عشرة أفراد من مختلف الأعمار، وغالباً ما تكون مركزها. فالوحدة الأساسية للعائلة التقليدية العراقية هي العائلة الممتدة، التي تُلحق بها العائلة النووية. وكانت مكاسب تعليم المرأة وفرص العمل خارج البيت خلال معظم القرن العشرين تقود باتجاه نموذج غربي من العائلات النووية والصغيرة. غير أن تيارات ثقافية قوية موازنة نشأت، وأدّى حصار التسعينيات إلى عكس هذا التوجه كلياً. فالعائلة الممتدة تسمح للنساء بأن ينجبن المزيد من الأطفال، حتى لو واصلن العمل خارج البيت، إذ إن العمات والخالات والجدات يشاركن في العناية بالأطفال. وتبقى العائلة وحدة الولاء الرئيسية رغم أنه قد يكون لأفرادها خلفيات طائفية وإثنية وسياسية مختلفة.

اليوم، تترمّل أكثر من تسعين امرأة، يومياً، نتيجة استمرار العنف في جميع انحاء العراق[٣]. وتقول وزارة شؤون المرأة إن هناك في الوقت الحاضر ما لا يقل عن ثلاثمئة ألف أرملة في بغداد وحدها، ومليون أرملة في أنحاء البلد، وإن الأعداد في ازدياد كل يوم بسبب استمرار اختفاء الرجال، وترك العائلات بلا معيل؛ وليس في حيازة الأرامل سوى النزر اليسير من الموارد.

لقد قُتل أكثر من ٦٥٠ ألف مدني عراقي منذ إعلان الرئيس بوش أن «المهمة أُنجزت» سنة ٢٠٠٣. وما زال بقاء العائلات في عشرات المناطق مهدداً بالمجازر الجماعية، وبالعمليات العسكرية للقوات التي تقودها الولايات المتحدة، وبهجمات الجماعات المسلحة[٤].

وأصاب رشاش العنف والملاحقات اللاجئين الفلسطينين. فاضطرّ بعضهم إلى النزوح مرة ثانية. وكان الفلسطينيون قد حلوا في العراق في ثلاث موجات ـ في سنتي ١٩٤٨ و١٩٦٧ وفي التسعينيات ـ وجرى منحهم مساكن مدعومة وحق العمل، كما عوملوا كالعراقيين من ناحية الحصول على التعليم والرعاية الصحية المجانيين. وتحت الاحتلال، استهدفتهم المليشيات، وهوجمت

(٣) Integrated Regional Information Networks [IRIN], «Iraqi Widow Numbers Rise in Wake of Violence,» Democracy Rising, 28 April 2006, <http://democracyrising.us/content/view/477/164>.

(٤) Amnesty International [AI], «Iraq: Decades of Suffering, Now Women Deserve Better,» 22 February 2005, <http://web.amnesty.org/library/Index/ENGMDE140012005>.

بيوتهم، واعتُقل منهم رجال ونساء وعُذبوا وقُتلوا. وتذكر مفوضية الأمم المتحدة لحقوق الإنسان أن الفلسطينيين أُجبروا على دفع آلاف الدولارات لقوات الأمن العراقية كرشوة لقاء حمايتهم. وقد انتهت صلاحية أوراقهم الثبوتية، والحكومة العراقية ترفض تمديد فترة إقامتهم، لأن «الفلسطينيين يُعتبرون متمردين أو مثيري متاعب»(٥).

ـ ٢ ـ

لقد باتت المجازر، أو «الأخطاء» كما يصفها المسؤولون الأمريكيون والبريطانيون شائعة، تحت الاحتلال، وتتبع عموماً النمط نفسه: اقتل، حاول التستر على الجريمة، ثم أصدر بياناً يلقي اللوم على «المتمردين». وهاكم بعض الأمثلة على عدد من الجرائم التي لم يعاقب عليها أحد:

> ***مجزرة حفلة الزفاف في القائم:*** *في أيار/مايو ٢٠٠٤، قصف الأمريكيون قرية مكر الذيب، فقتلوا اثنين وأربعين فرداً من أسرتي ركاد وصباح(٦). وكانت السيدة شهاب، البالغة من العمر ثلاثين سنة، في عداد القليل من الناجين في دار صباح في تلك الليلة. وقد قالت وهي راقدة على سرير في غرفة الطوارىء في مستشفى الرمادي العام الذي يبعد مسافة ستين ميلاً غربي بغداد: «بدأ القصف في الساعة الثالثة فجراً. خرجنا من البيت وبدأ الجنود الأمريكيون يطلقون النار علينا. كانوا يطلقون النار على ارتفاع منخفض ويستهدفوننا الواحد تلو الآخر». وركضَتْ وهي تحمل أصغر أطفالها بين ذراعيها وتبعها طفلاها علي وحمزة. وما إن عبرت الحقول حتى انفجرت قذيفة بالقرب منها، فأصيبت بكسور في ساقيها وهوت على الأرض. وفيما هي مستلقية أصابت قذيفة ثانية ذراعها اليمنى. وفي تلك اللحظة كان ولداها قد سقطا على الأرض. قالت: «تركتهما حيث هما لأنهما كانا ميتين». ورأت أن أحدهما مقطوع الرأس بفعل القذيفة. «سقطت في*

---

(٥) قالت أستريد فان جيندرين (Astrid van Genderen)، الناطقة باسم مفوض الأمم المتحدة السامي للاجئين، أنه كان هناك نحو ٣٤٠٠٠ فلسطيني في العراق سنة ٢٠٠٣، وبقي منهم [في العراق] نحو ١٥٠٠٠ فلسطيني. انظر: Ammar Alwan, «Palestinian Refugees in Iraq Stuck in «Catch 22»,» Reuters, 16 March 2007, <http://www.alertnet.org/thenews/newsdesk/PAR646035.htm>.

(٦) بمن فيهم علي وحمزة شهاب، ابنا حليمة شهاب الصغيران؛ ومحمد، زوج حليمة شهاب؛ وحسين العلي، أحد المطربين المشهورين في غرب العراق؛ وفاطمة معاثي (٢٥ سنة) وابناها الصغيران، رعد (٤ سنوات ورائد (٦ سنوات)؛ وسمية، زوجة حاج راكات، وابنتاها؛ وحمدة سليمان. انظر: <http://debatebothsides.com/archive/index.php/t-25593.html>.

الوحل وجاء جندي أمريكي وركلني. تظاهرت بأني ميتة كيلا يقتلني. وكان طفلي الأصغر لا يزال حياً بالقرب مني»[٧].

وحين سأل الصحافيون العميد مارك كيميت، نائب مسؤول عمليات الجيش الأمريكي في العراق، عن عدد القتلى، قال «نقدر أن نحو أربعين شخصاً قُتلوا، لكننا قمنا بالعملية ضمن قواعد الاشتباك المعتمدة لدينا»[٨].

***مجزرة حديثة**: قال بيان أصدره ناطق باسم مشاة البحرية الأمريكية (المارينز) من قاعدة المارينز في الرمادي بتاريخ ٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٥: «قُتل أمس جندي من المارينز وخمسة عشر مدنياً بانفجار عبوة ناسفة مزروعة على جانب الطريق في حديثة. وعقب الانفجار، هاجم مسلحون القافلة بنيران أسلحة خفيفة. ورد جنود من الجيش العراقي والمارينز على النار فقتلوا ثمانية متمردين وجرحوا عدداً آخر».*

غير أن الحقيقة بانت بعد شهرين. وقد وصف ما حدث في حديثة بانّه ماي لاي العراق[*]، حيث تتعارض تفاصيل قتل عدد من المدنيين مع التفاصيل التي أوردها بيان الجيش الأمريكي. فقد كان بين الضحايا «أطفال ونساء كن يحاولن حمايتهم، وكانت الفتيات اللواتي قُتلن داخل بيت خفيف في سن الرابعة عشرة والعاشرة والخامسة والواحدة، وفقاً لشهادات الوفاة»[٩].

ووفقاً لشهود عيان، ثارت ثائرة جنود مشاة البحرية في حديثة، وهي بلدة زراعية يقطنها نحو تسعين ألف نسمة على ضفاف الفرات شمالي غرب بغداد، بعد أن قُتل أحد رفاقهم. كما إن صحافياً عراقياً، قام بتصوير ما أعقب المجزرة وهو في صحبة منظمة حمورابي لحقوق الإنسان، وسجل روايات شهود عيان. فقد قالت الفتاة صفاء يونس، البالغة من العمر اثنتي عشرة سنة، والتي كانت تعيش في أحد البيوت الثلاثة التي دخلها الجنود وقتلوا ثمانية أفراد بلا تمييز، كان بينهم

---

(٧) «كان إلى جانبها في القسم أمس ثلاث بنات من أسرة راكات إصاباتهن بالغة: خلود محمد، عمرها سنة واحدة فقط وتعاني ضيقاً في التنفس، ومعزَّة راكات، عمرها ١٢ سنة، وإقبال راكات، عمرها ١٥ سنة، وقد بتر أطباء قدمها اليمنى». انظر: Rory McCarthy, «US Soldiers Started to Shoot Us One by One,» *Guardian*, 21/5/2004, <http://www.guardian.co.uk/world/2004/may/21/iraq.rorymccarthy>.

(٨) المصدر نفسه.

(*) نسبة إلى مجزرة ماي لاي التي ارتكبها جنود أمريكيون في حرب فييتنام (المترجم).

(٩) Ellen Knickmeyer, «In Haditha, Memories of a Massacre,» *Washington Post*, 27/5/2006, <http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2006/05/26/AR2006052602069.html>.

إخوة صفاء الخمسة الذين راوحت أعمارهم بين السنتين والأربع عشرة سنة:

«دقوا على باب بيتنا ونهض أبي ليفتحه. أطلقوا النار عليه من وراء الباب فقتلوه ثم أطلقوا النار عليه مرة أخرى. ثم دخل أحد الجنود الأمريكيين وأطلق النار علينا جميعاً. تظاهرت بأني ميتة فلم يلاحظني».

وفي بيت آخر، قُتل سبعة أشخاص، بمن فيهم طفل وجدّه السبعيني. ومات في بيت ثالث أربعة إخوة راوحت أعمارهم بين الرابعة والعشرين والحادية والأربعين. وقال شهود عيان إن القتلى حشروا في خزانة ملابس عنوة وأطلق عليهم الرصاص. وفي الشارع، يقال إن جنوداً أمريكيين قتلوا أربعة طلاب وسائق سيارة أجرة بعد أن أوقفوا عند نقطة تفتيش أقيمت بعد حادثة التفجير(١٠).

***مجزرة الإسحاقي**: على مبعدة ستين ميلاً تقريباً شمالي بغداد، وفي ١٠ آذار/ مارس ٢٠٠٦، جمع الجنود الأمريكيون أحد عشر شخصاً وأطلقوا النار عليهم عمداً في أحد البيوت، وكان من بين القتلى خمسة أطفال وأربع نساء، وذلك قبل أن يقوموا بنسف البيت، بحسب قول الشرطة العراقية وشهود عيان*(١١). *وقد زعم الجيش الأمريكي في بيانه الأولي أن المبنى انهار بفعل نيران كثيفة فيما كان الجنود يستهدفون أحد المؤيدين للقاعدة، فقُتل أربعة أشخاص. وأظهر شريط فيديو ما يناقض هذه الرواية. وتحت ضغط الرأي العام، وخصوصاً بعد مجزرة حديثة، أجري تحقيق أمريكي خلص إلى أن «آمر القوة البرية كان يعمل، أثناء أسره وقتله الإرهابيين، وفقاً لقواعد الاشتباك التي تتبعها قواتنا المقاتلة في العراق»*(١٢).

هناك المزيد من جرائم القتل الجماعية غير المبلّغ عنها الناتجة عن القصف الجوي الأمريكي العشوائي، وغالباً بسبب العمليات بعيدة المدى. ففي تشرين الثاني/ نوفمبر٢٠٠٦، ذكر مسؤولون صحيون في الرمادي أن القصف الجوي

---

(١٠) Martin Asser, «What Happened at Haditha?,» BBC News, 21 December 2006, <http:// news.bbc.co.uk/1/hi/world/middle_east/5033648.stm>.

(١١) كشفت قناة بي بي سي (BBC) عن الدليل - الفيديو الذي طعن في رواية الجيش الأمريكي بشأن الأحداث التي جرت في بلدة الإسحاقي في آذار/ مارس. انظر: British Broadcasting Corporation, «New «Iraq Massacre» Tape Emerges,» BBC News, 2 June 2006, <http://news.bbc.co.uk/1/hi/world/middle_east/5039420.stm>.

(١٢) المصدر نفسه.

أودى بحياة واحد وثلاثين مدنياً، معظمهم من النساء والأطفال[١٣]. ومن الواضح أن المرتزقة وفرق الموت والمليشيات، العاملة بالنيابة عن الأحزاب السياسية الطائفية والعرقية المشاركة في العملية السياسية «الديمقراطية»، مسؤولون أيضاً عن قتل المدنيين على نطاق واسع[١٤]. حيث يعثر على جثث الضحايا في مختلف أنحاء البلد وهي في الغالب مقيدة الأيدي ومعصوبة العيون ومنخورة بالطلقات النارية. وكثيراً ما يتعذر التعرف على أصحابها عند العثور عليها مرمية على جوانب الطرق. ولأن ثلاجات الطب العدلي في بغداد لم تعد تستوعب العدد المتزايد من الجثث، لذا يتم دفن الجثث على الفور بعد أن يتم تصويرها لعرضها على النساء الثكالى الباحثات عن أزواجهن وآبائهن وإخوتهن المفقودين. وفي تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٦، وهو شهر تميز بدمويته وعدد ضحاياه من المدنيين، تسلّمت دائرة الطب العدلي في بغداد نحو ١٦٠٠ جثة، وفقاً لمدير الدائرة الدكتور عبد الرزاق العبيدي. ويوجد في مشارح المدينة، التي بنيت لاستيعاب ١٣٠ جثة كحد أقصى، أكثر من ٥٠٠ جثة في أي وقت معين. وفي مدن أخرى، ترفض المشارح قبول المزيد من الجثث. ويقوم الرجال بوشم أفخاذهم بأسمائهم وأرقام هواتفهم خشية أن يدفنوا، في حال تعرضهم للقتل، قبل أن يتعرف عليهم أحد[١٥].

ـ ٣ ـ

قُتل ما مجموعه ٢٥٤ صحافياً ومستخدماً إعلامياً منذ بداية الحرب، وبلغ عدد الذين خُطفوا منهم ٥١[١٦]. وبحلول حزيران/يونيو٢٠٠٧ وصل عدد القتلى

---

(١٣) Associated Press, «Iraq-Day: Deadly Incidents Reported Tuesday,» *International Herald Tribune*, 14/11/2006, <http://www.iht.com/articles/ap/2006/11/15/africa/ME_GEN_Iraq_Day.php>.

(١٤) يوجد في العراق ٤٤٠٠٠ متعاقد أمني خاص، وهم يشكلون ما وصفه مجلس الشيوخ الأمريكي بـ «أكبر جيش خاص في العراق». ونحو ٢١٠٠٠ من هؤلاء الحراس الخاصين بريطانيون ويشكلون قرابة ثلاثة أضعاف مجموع القوات البريطانية في البلد. ويوجد أيضاً أعداد كبيرة من الأمريكيين الشماليين والجنوب أفريقيين والزيمبابويين والغوركا. انظر: Kim Sengupta, «Security Staff Who Make up a Private Army in Iraq,» *Independent*, 30/5/2007, <http://news.independent.co.uk/world/middle_east/article2594165.ece>.

وبشأن فرق الموت، انظر: Michael Hirsh and John Barry, «The Salvador Option: The Pentagon May Put Special-Forces-led Assassination or Kidnapping Teams in Iraq,» *Newsweek* (14 January 2005).

(١٥) <http://www.freep.com/apps/pbcs.dll/article?AID=/20061113/NEWS07/611130351/1009/NEWS07> (site discontinued).

(١٦) «Iraqi Media Professionals Killed in Iraq under US Occupation,» <http://www.brusselstribunal.org/Journalists.htm>.

من الأطباء ٢٢٠ طبيباً، وفرَّ من العراق أكثر من ١٠٠٠٠ طبيب. وأُكره على مغادرة البلد آلاف الأكاديميين ذوي المستوى العلمي الرفيع والأطباء والمهنيين الآخرين، حاملين معهم الرأسمال الفكري المؤهل لبناء دولة حرة تتمتع بالاستقرار والديمقراطية. ولم تتخذ الحكومة الحالية منذ توليها الحكم أي أجراء لضمان سلامتهم[١٧]. ولا يزال الإبلاغ عن الجرائم التي ترتكب في حق المهنيين والمختصين والمثقفين أمراً نادراً، لكن في ما يلي بعض الحالات:

- في بلدة حويجة الشمالية، القريبة من كركوك، وفي ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٦، اقتحم مسلحون منزل حليمة أحمد حسين الجبوري، التي تبلغ الثامنة والثلاثين من العمر، وأردوها قتيلة أمام أطفالها الثلاثة. وكانت حليمة رئيسة منظمة الأمومة والطفولة المعنية بحقوق الإنسان[١٨].

- في منطقة الدورة في بغداد، وفي ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٤، قُتلت مقدمة البرامج في تلفزيون **الشرقية** الإعلامية لقاء عبد الرزاق مع رضيعها ابن الشهرين.

- وجدت الصحافية العراقية رائدة محمد وجيه وزان ميتة في ٢٥ شباط/فبراير ٢٠٠٥، أي بعد خمسة أيام من قيام مسلحين مقنَّعين في وسط مدينة الموصل الشمالية بخطفها مع ابنها. وكانت رائدة، العاملة في محطة تلفزيون **العراقية**، قد لقيت مصرعها برصاصة أطلقت على رأسها.

- في ٢٣ حزيران/يونيو ٢٠٠٤، قُتلت عميدة كلية الحقوق في جامعة الموصل ليلى السعد.

- في ٣ تموز/يوليو ٢٠٠٥، قُتلت مهى إبراهيم، رئيسة تحرير في تلفزيون بغداد، بنيران الجيش الأمريكي.

- في٢٢ شباط/فبراير ٢٠٠٦، قتل مسلحون الروائية ومراسلة تلفزيون العربية أطوار بهجت فيما كانت تعد تقريرها من سامراء أثر تفجير مسجد الامام العسكري.

---

(١٧) «Professors' Associations Decry Violence against Academic Colleagues in Iraq,» Middle East Studies Association (MESA), 5 July 2006, <http://mesa.wns.ccit.arizona.edu/about/statements.htm#IraqJuly2006>.

(١٨) <http://news.yahoo.com/s/afp/20061028/wl_mideast_afp/iraqunrestwomen_061028112402> (site discontinued).

■ في ١٣ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٦، عُثر في مدينة الصدر، شرقي بغداد، على جثة الصحافي في جريدة **الوطن** صفاء إسماعيل عناد[١٩].

■ في ٢٩ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٦، قُتلت مقدّمة البرامج في محطة **أطياف** الناطقة باللغة الكردية نقشين حمه رشيد فيما كانت تقود سيارتها في وسط مدينة بغداد[٢٠].

■ في ١٥ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٦، قتل مسلحون فاديا محمد علي وسائقها فيما كانت متوجهة إلى عملها في الموصل.

لم تجر قوات الاحتلال أو النظام العميل تحقيقاً في أيٍّ من هذه الجرائم. فجنود الاحتلال والمتعاقدون والدبلوماسيون وكل من يعمل لحسابهم يتمتعون بالحصانة من إجراءات المقاضاة بموجب القانون العراقي الجديد، ووفقاً للأمر رقم ١٧، وهو الأمر الذي أصدره مكتب رئيس سلطة الائتلاف المؤقتة (CPA) في ٢٦ حزيران/ يونيو ٢٠٠٣، والذي ينص على أنه «انسجاماً مع القانون الدولي، لا تخضع سلطة الائتلاف المؤقتة وقوات الائتلاف والعسكريون والمدنيون المرافقون لهم للقانون المحلي أو للاختصاص القضائي للمحاكم المحلية. . . وتتمتع بعثات الارتباط الأجنبية وعناصرها البشرية بالحصانة من الإجراءات القانونية العراقية».

لم تتحقّق منذ «التحرير» حرية الصحافة والتعبير الموعودة من قبل الإدارة الأمريكية. بل أصبح إسكات الصحافيين، في الواقع، الضمانة الأفضل للتستر على الجرائم والإساءات وانتهاكات حقوق الإنسان. فقد اعتُقلت الصحافية كلشان البياتي، مراسلة صحيفة **الحياة** في تكريت، في ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٦ بسبب انتقادها الاحتلال الأمريكي للعراق في مقالاتها[٢١] وتم إغلاق عدد من الصحف

---

(١٩) المصدر نفسه.

(٢٠) Reporters without Borders, «Journalists Fall Victim to Ethnic and Sectarian Violence, US Troops Carry out More Unlawful Arrests,» 31 October 2006, <http://www.rsf.org/article.php3?id_article=19497>.

(٢١) تم الإفراج عنها بعد يومين إثر إخضاعها لاستجواب مطول حول ارتباطها بجماعات مسلحة. وكان ردها أن عملها كصحافية يوجب عليها إقامة صلات مع مختلف الناس، بمن فيهم أفراد في الجيش وضباط في الشرطة العراقية وأعضاء في جماعات المقاومة. وأعيد اعتقالها بعد أسبوعين ثم أُطلق سراحها مؤقتاً بعد احتجازها بصورة غير قانونية لمدة شهر من قبل سلطات الأمن العراقية. انظر: Reporters without Borders, «Tikrit-based Reporter Released Provisionally, Banned from Leaving Country,» 18 October 2006, <http://www.rsf.org/article.php3?id_article=19340>.

ومحطات التلفزيون بحجة أنها «تحرض على العنف». ومن تلك المحطات «الجزيرة» و«العربية» والقناة العراقية «الشرقية». من الواضح أن إدارة الاحتلال تعتبر التقارير المتعلقة بالجرائم تحريضاً على العنف.

في الحقيقة، يعتبر الإبلاغ عن الفساد في الإقليم الكردي، الذي لايعاني من حالات العنف كما هو الحال في بقية أنحاء العراق، بمثابة جريمة. فحرية الصحافة في ظل الحكومة الإقليمية الكردية حرية صورية، والصحافيون لا يسائلون أو ينتقدون الحكومة التي يسيطر عليها الحزبان القوميان، وذلك خوفاً من مقاضاتهم. فقوات الأمن التابعة للحزب الديمقراطي الكردستاني والاتحاد الوطني الكردستاني سريعة في إسكات أصوات المنشقين. ففي ١ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٥، تبنت منظمة العفو الدولية قضية الكاتب الكردي الدكتور كمال سيد قادر، الذي خطفته قوات الاستخبارات «باراستين» التابعة للحزب الديمقراطي الكردستاني في أربيل في ٢٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٥، وجرى احتجازه بصورة غير قانونية. وحُكم عليه في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٥ بالسجن ثلاثين عاماً بتهمة «التشهير». وكان قد نشر مقالات عبر الإنترنت انتقد فيها قيادة الحزب[٢٢]. ولم يُطلق سراحه إلا بعد حملة عالمية قادها عراقيون مستقلون (لا أكراد فقط). وفي أربيل، اعتقلت الشرطة الصحافيين شاهو خالد وديلمان صلاح بسبب كتابتهما عن إضراب الطلاب في حي سيتاقان. وبعد أن أُفرج عنهما طالبا باعتذار من الشرطة التي زعما أنها هاجمتهما[٢٣]. واقترحت نقابة صحافيي كردستان برنامجاً جديداً لصون كرامة الصحافيين، لكن لا يزال صحافيون كثيرون يشكون من أن النقابة لا تحمي حقوقهم في وجه المعاملة القاسية التي يلقونها من الحكومة. وقد قال رحمن غريب مراسل صحيفة **هاولاتى** المعروفة في كردستان لوكالة إنتر برس سيرفيس: «أعتقد أنه إذا كانت نقابة صحافيي كردستان موجودة لحماية حقوقي كصحافي والدفاع عني، فهي إذاً غير موجودة تقريباً، لأنها تمثل في الدرجة الأولى الأحزاب السياسية في الإقليم»[٢٤]. وفي أثناء تغطية تظاهرات حاشدة

---

(٢٢) «Middle East and North Africa: Iraq,» in: Amnesty International [AI], *Amnesty International Report*, 2006 (London: AI Publications, 2007), <http://web.amnesty.org/report2006/irq-summary-eng>.

(٢٣) United Nations Assistance Mission for Iraq [UNAMI], «Human Rights Report, 1 November - 31 December 2006,» <http://www.uniraq.org/FileLib/misc/HR%20Report%20Nov%20Dec%202006%20EN.pdf>.

(٢٤) Mohammed Salih, «Bloody Years for Journalists in Iraq,» Antiwar.com (from Inter Press Service), 3 January 2007, <http://www.antiwar.com/ips/salih.php?articleid=10257>.

وإضرابات عمت أنحاء واسعة من كردستان سنة ٢٠٠٦، اعتُقل غريب مرة لمدة ثلاث ساعات وتعرض للضرب على أيدي رجال من الأمن المحلي في مناسبتين. وكانت التظاهرات قد نظمت للاحتجاج على فشل الحكومة الإقليمية في تأمين الخدمات الأساسية. وكان عبد عارف، رئيس تحرير **هاولاتي**، قد اعتقل أثر رفع جلال الطالباني، رئيس الجمهورية، دعوى قضائية ضده لأن صحيفة **هاولاتي** نشرت في الثالث عشر من كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٨ تقريراً مترجماً عن اللغة الإنكليزية للأمريكي مايكل روبن، أوردت فيه معلومات عن وجود فساد إداري ومالي في إقليم كردستان، إضافة إلى أرقام تتعلق برؤوس الأموال التي يملكها قادة أكراد. وتم الافراج عنه مؤقتاً بكفالة مالية قدرها مليون دينار عراقي(*).

ـ ٤ ـ

منذ أربع سنوات حتى اليوم، والمنظمات العراقية المستقلة تنشر التقارير عن سوء معاملة النساء العراقيات وتعذيبهن واغتصابهن، بالإضافة إلى انتشار البغاء في أوساط الفتيات العراقيات في سوريا، ولاتتجاوز أعمار بعضهن سن الثانية عشرة، مع استمرار تدهور وضع العائلات الاقتصادي، وتزايد الهجرة القسرية إلى خارج العراق(٢٥).

لقد صرحت وزارة حقوق الإنسان في الحكومة الإقليمية الكردية بأن ٢٣٩ امرأة حرقن أنفسهن في الأشهر الثمانية الأولى من سنة ٢٠٠٦. ووثّقت السلطات في السليمانية في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٦ أعلى عدد من حالات الاحتراق الشديد الشهرية. وذكر مصدر في أحد مستشفيات السليمانية في أن مثل هذه الحالات لايتم التبليغ عنها خوفاً من الفضيحة ووصمة العار الاجتماعية واحتمال تورط أحد أفراد الأسرة في ارتكاب جريمة الشرف. وجرى التحقيق في معظم الحالات بوصفها إما كحوادث أو محاولات انتحار. ويقر مسؤولون حكوميون بأن التقاليد القبلية والتفسيرات الشوفينية المتعصبة للإسلام ولامعقولية ما يتوقعه المجتمع من المرأة هي بعض الأسباب الأساسية لجرائم الشرف(٢٦).

(*) اسماعيل حمدي، «الإفراج عن رئيس تحرير صحيفة «هاولاتي» الكردية بكفالة مالية،» وكالة الأنباء العراقية، ٤/ ٢/ ٢٠٠٨، <http://www.iraq4allnews.dk/index.php?sec=news&act=view_news&id=28831> (المراجع).

(٢٥) مستشهداً بتقرير للمفوضية العليا للاجئين (UNHCR)، انظر: Hugh Macleod, «Despair of Baghdad Turns into a Life of Shame in Damascus,» *Guardian*, 24/10/2006.

(٢٦) UNAMI, «Human Rights Report, 1 November - 31 December 2006».

شرعت بعض المسؤولات اللواتي تركن مناصبهن الرسمية في التحدث صراحة عن الجرائم المرتكبة ضد النساء. فعايدة عسيران، النائبة السابقة لوزير حقوق الإنسان تعترف قائلة، «طبعاً الاغتصاب مستمر. ونحن نلقي باللائمة على المليشيات. لكننا حين نتكلم عن المليشيات، نعرف أن كثيرين من أفرادها هم من رجال الشرطة. وباتت كل عائلة لديها ابنة جميلة تتردد في إرسال ابنتها إلى المدرسة أو الجامعة، ولا تسمح لها بالخروج من المنزل من دون حجاب. هذه أسوأ فترة تعيشها النساء العراقيات. فباسم الدين والصراع الطائفي يُخطفن ويُقتلن ويُغتصبن. ولا يأتي أحد على ذكر هذا الأمر»[٢٧].

وعلى الرغم من صحة ماذكرته عسيران إلا أنها اختارت عدم ذكر مسؤولية سلطة الاحتلال عن إقامة حكومة طائفية فاسدة تسيطر عليها المليشيات. كما إنها اختارت ألاّ تذكر الاغتصاب الجماعي الذي تعرضت له عبير قاسم حمزة الجنابي من قبل جنود أمريكيين. عبير فتاة في الرابعة عشرة من العمر، وكانت تعيش مع أسرتها في مزرعة صغيرة في المحمودية الواقعة على بعد عشرين ميلاً جنوبي بغداد. وحدث أنها لفتت انتباه جنود أمريكيين عند نقطة تفتيش قرب بيتها. وقال أحد جيران العائلة، وهو يصف الفتاة، «كان ذووها قد أمروها بالتوقف عن الذهاب إلى المدرسة بسبب سوء الوضع الأمني. . . وراحت تمضي معظم وقتها في البيت تنظف وتساعد أمها وتعمل في الحديقة فشاهدها الجنود الأمريكيين عدة مرات. كانت فتاة جميلة، وقالت لي زوجتي إن الأمريكيين واصلوا مراقبتها. وحين أبلغتُ أباها بهذا الأمر، قال إنها مجرد فتاة صغيرة»[٢٨]. جزعت عبير وأخبرت أمها عندما أخذ الجنود يتوددون إليها. ظنت الأم أن الجنود الأمريكيين سيغيرون على منزلها في تلك الليلة، لذا ارتأت أن تنام عبير في بيت جارتها، لكن بعد فوات الأوان؛ إذ وقعت جريمة القتل في منتصف ذلك النهار. في ١٢ آذار/مارس ٢٠٠٦، في الساعة الثانية من بعد الظهر، عُثر على جثث أم عبير، فخرية طه محسن (٣٤ سنة)، وأبيها، قاسم حمزة رحيم (٤٥ سنة)، وشقيقتها هديل قاسم

---

(٢٧) Peter Beaumont, «Hidden Victims of a Brutal Conflict: Iraq's Women,» *Observer*, 8/10/ 2006, <http://observer.guardian.co.uk/world/story/0,,1890260,00.html>,
مستشهداً بعايدة عسيران، النائبة السابقة لوزير حقوق الإنسان، وهي حالياً واحدة من النساء في مجلس الممثلين.

(٢٨) Akeel Hussein and Colin Freeman, «Two Dead Soldiers, Eight More to Go, Vow Avengers of Iraqi Girl's Rape,» *Telegraph*, 7/10/2006, <http://www.telegraph.co.uk/news/main.jhtml?xml=/news/2006/07/09/wirq09.xml>.

حمزة (٥ سنوات)، وكلها محروقة حتى الموت. وكانت جمجمة عبير مهشمة واحترق ساقاها وجذعها. كان أخواها الصغيران في المدرسة وقتذاك. وقال عمها إنه وجد عبير ممددة جثة هامدة في زاوية، وقد أكلت النار شعرها وعثر على وسادة بالقرب منها، وفستانها مرفوع حتى رقبتها[٢٩].

بداية، نسب الناطق العسكري الأمريكي جريمة القتل إلى «متمردين من العرب السنّة الناشطين في المنطقة»، وذلك خلافاً لروايات شهود عيان. وفي ١٠ تموز/يوليو، صرحت السلطات العسكرية بأنها ستوجه إلى أربعة من الجنود الخمسة الذين كانوا في الخدمة في المنطقة، تهمة القتل والاغتصاب المتعمد. وتم التحقيق بعد أن كشف رقيب في الفصيل نفسه عن الجريمة خلال جلسة علاج نفسي عقب وفاة جنديين آخرين في الفوج ذاته. وحُكم على اثنين من الجنود بالسجن المؤبد في شباط/فبراير ٢٠٠٧ بعد اعترافهما بالمشاركة في اغتصاب عبير.

كُشِفَ في المحكمة عن أن الجنود المتهمين ارتكبوا جريمتهم الشنيعة تحت تأثير الويسكي الممزوج بعقارات منشطة. و«قال كورتيز للمحكمة إن الجنود رأوا أن عبير هدف سهل «لممارسة الجنس مع أنثى عراقية» لأن أباها كان الرجل الوحيد في المنزل»[٣٠]. وبرزت خلال الاستجواب في المحكمة تفاصيل أخرى مريعة. وقد وصف المحقق العسكري الأحداث التي وقعت في المحمودية في الثاني عشر من آذار/مارس، وذلك بالاستناد إلى مقابلة أجراها المحقق مع أحد الجنود المتهمين.

وذكر الجندي بنجامين بيرس كيف وصف العريف جيمس باركر طريقته في وضع والدي عبير وشقيقتها الأصغر في غرفة أخرى، بينما أُبقيت الفتاة المراهقة في غرفة الجلوس. وقال باركر إنه أمسك بيدي الفتاة فيما كان الرقيب بول كورتيز يغتصبها أو يحاول اغتصابها. ثم تبادل باركر وكورتيز الأدوار وحاول اغتصاب الفتاة، لكنه قال إنه غير متأكد مما إذا كان قد فعل ذلك، على حد ما

(٢٩) «Soldier Gets 90 Years in Iraqi Rape Case: Spc. James Barker Pleads Guilty to Rape of Girl, Killing of her and her Family,» Associated Press, 17 November 2006, <http://www.msnbc.msn.com/id/15733192>.

(٣٠) «U.S. Soldier Gets 100 Years in Prison for Rape, Murder of Iraqi Girl,» Yahoo! News, 23 February 2007, <http://news.yahoo.com/s/afp/20070223/ts_alt_afp/usiraqjusticetrial_070223145608> (site discontinued).

قاله الجندي لجلسة الاستماع. وجرى إطلاق بعض الأعيرة النارية في الغرفة الأخرى وظهر المجند ستيفن غرين وهو يقول، «ماتوا كلهم، لقد قتلتهم لتوي». ووضع غرين بندقيته من طراز AK-47 على الأرض ثم اغتصب الفتاة في ما كان كورتيز يمسك بها، حسب ما سمعت المحكمة. وبعد ذلك، قال بيرس أن غرين تناول السلاح بيده وأطلق النار على الفتاة مرة، وتوقف قليلاً، ثم أطلق النار عليها عدة مرات. وسكب الجنود النفط على الفتاة وقام أحد ما ـ لم يتضح من هو ـ بحرقها(٣١).

لم يكن اغتصاب عبير ومقتلها حادثاً عرضياً ولا شاذاً. (أُعلن في المحكمة ان ماحدث كان من جراء إصابة أحد الجنود بأعراض «فقدان التوازن الشخصي»). بل إنه عبارة عن جانب من سلوك نمطي رأيناه في أبو غريب، فضلاً عن مجازر حديثة والإسحاقي والقائم. وهذا النمط يخدم وظيفة استراتيجية تتعدى الانتقام العشوائي؛ إنه يعزز الإذلال الجماعي، والترهيب، وإلقاء الرعب في نفوس الشعب العراقي، وليس هذا إلاّ مناورة استعمارية تقليدية.

في ١٩ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٥، نشرت «صوت الحرية»، وهي جمعية عراقية معنية بحقوق الإنسان، تقريراً عن اغتصاب ثلاث نساء من حي سعد بن أبي وقاص في تلعفر بعد أن تم تنفيذ غارة أمريكية. ارتكب الجنود الاغتصاب داخل بيت النساء بعد أن اعتُقل أقاربهن الذكور. وقالت مصادر طبية في البلدة أن إحدى النساء لقيت حتفها. وأمر أحد القادة العسكريين الأمريكيين بتوقيف الجنود، ولم يُسمع بعد ذلك شيء عن الأمر.

بعد أيام من بدء عملية «خطة فرض القانون»، كجزء من عملية زيادة القوات الأمريكية في العراق التي أعلنتها إدارة بوش في ١٠ كانون الثاني/يناير، ظهرت امرأتان عراقيتان شجاعتان على شاشة التلفزيون للتحدث عن تعرضهن للاغتصاب من قبل جنود عراقيين، وذلك للمرة الأولى في العالم العربي والإسلامي. كانت الأولى صابرين الجنابي البالغة من العمر عشرين سنة (الاسم المستعار الأولي لزينب الشمّري)، والثانية وجدة، وهي أم لأحد عشر ولداً من تلعفر، المدينة الشمالية. وبعد قيام «الجزيرة» بإذاعة خبر الحدثين البشعين،

(٣١) Elsa McLaren, «US Troops «Raped and Burned» Iraqi Girl, Court Hears,» *Times*, 7/8/ 2006, < http://www.timesonline.co.uk/tol/news/world/iraq/article602731.ece >.

سارعت وسائل الإعلام إلى وصف حوادث الاغتصاب بطريقة تتماشى مع الرواية الأنغلو ـ أمريكية عن سفك الدماء في العراق ـ أي إنها حوادث طائفية. حيث ذكرت إذاعة البي بي سي في تقريرها: «تقول المرأة السنّية المتزوجة والبالغة من العمر ٢٠ سنة إنها اقتيدت من بيتها في بغداد إلى أحد مراكز الشرطة، حيث اتُّهمت بمساعدة المتمردين ـ ثم اغتصبها ثلاثة رجال من الشرطة». وقد حرص التقرير على تذكير المستمعين بأن أغلبية شرطة بغداد هم من الطائفة الشيعية(٣٢).

وعلى الفور أصدر رئيس الوزراء نوري المالكي، غير المعروف باستجابته لمحنة النساء العراقيات، بياناً نعت فيه المرأة بانها كاذبة ومجرمة، وزعم أنها لم تتعرض لأي هجوم. وطرد مسؤولاً وصف عملية الاغتصاب بأنّها «جريمة رهيبة»، داعياً إلى إجراء تحقيق دولي، إلا أن المالكي قام بمكافأة رجال الشرطة الذين اتهمتهم زينب باغتصابها. وقال حسين علي كمال، نائب وزير الداخلية، إن مزاعم زينب غير صحيحة إذ «لا يمكن أن يحدث شيء كهذا لأن القوات العراقية تعمل مع القوات الأمريكية في جميع الأحيان».

كانت وجدة هي الضحية الثانية التي اغتصبها رجال شرطة عراقيون عندما دهموا بيتها في مدينة تلعفر الشمالية خلال عملية «خطة فرض القانون». وفي بيان رسمي، قال العميد نجم عبد الله إن الهجوم وقع خلال عملية بحث عن أسلحة ومتمردين. ووفقاً لعبد الله، أنكر ملازم وثلاثة مجندين التهمة لكنهم اعترفوا لاحقاً بعد أن واجهتهم وجدة.

في أواخر كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٦، خطف مسلّحون ثلاث طالبات من جامعة المستنصرية. ورغم أن الفدية المطلوبة قد دُفعت، فقد وجدت جثثهن في الطب العدلي في ٢٢ كانون الأول/ديسمبر وهي تحمل علامات اغتصاب وتعذيب. ونفت مصادر رسمية وقوع الحادث، إلا إن طلاباً من الجامعة أكدوا حصوله(٣٣).

إن حوادث اغتصاب عبير وزينب ووجدة قلة من الكثير من الحالات الموثّقة

---

(٣٢) British Broadcasting Corporation, «Rape Claim Splits Iraq Government,» BBC News, 20 February 2007, <http://news.bbc.co.uk/1/hi/world/middle_east/6378821.stm>.

(٣٣) Haifa Zangana, «We Have not been Liberated,» *Guardian*, 6/3/2007, <http://commentisfree.guardian.co.uk/haifa_zangana/2007/03/iraqi_womens_empowerment_under.html>.

لدى منظمات حقوق الإنسان العراقية وبعثة الأمم المتحدة لمساعدة العراق (UNAMI). ووفقاً لقول النائب العراقي محمد الداني في مقابلة جرت مؤخراً في تلفزيون «الشرقية»، فقد تم توثيق ١٠٥٣ حالة اغتصاب ارتكبها عناصر من قوات الاحتلال والمليشيات والشرطة في العراق منذ سنة ٢٠٠٣[٣٤].

ـ ٥ ـ

إن مداهمات البيوت ليلاً والاعتقالات العشوائية هما من السمات المميّزة للعراق الجديد. كما إن النساء والأطفال هم ضحايا أيضاً، مع أنهم ليسوا دائماً عرضة للاعتقال. وتنم المداهمات عن نمط عام لخصه تقرير للصليب الأحمر الدولي صدر في شباط/فبراير ٢٠٠٤:

> *تدخل سلطات الاعتقال البيوت بعد حلول الظلام عادة، فتحطم الأبواب، وتوقظ السكان بشكل فظ، وتصدر الأوامر بصوت عال، وتحشر أفراد العائلة في غرفة واحدة تحت حراسة عسكرية فيما تفتش سائر غرف البيت محطمة أبواباً أخرى وخزائن وممتلكات أخرى. تعتقل من تشتبه فيه، وتوثق أيديهم خلف ظهورهم بقيود من البلاستيك، وتغطي رؤوسهم، وتقودهم بعيداً. وهي في بعض الأحيان تعتقل جميع من في البيت من ذكور راشدين، بمن فيهم من الشيوخ أو المعوقين أو المرضى. وتتضمن المعاملة غالباً دفع الأشخاص وإهانتهم وتصويب البنادق عليهم وتسديد اللكمات والركلات إليهم وضربهم بأعقاب البنادق. وفي أحيان كثيرة يساق الأفراد المعتقلون من بيوتهم وهم في ملابس النوم أو الملابس الداخلية . . . وفي كثير من الحالات تصادَر الممتلكات الشخصية خلال الاعتقال، من دون أن يعطى أصحابها إيصالات . . . وفي كل الحوادث الموثقة تقريباً من جانب الصليب الأحمر الدولي، لم تقدم السلطات معلومات عن هويتها، وموقع قاعدتها ولم تبرّر سبب الاعتقال. كما إنه نادراً ما أُبلغ المعتقل أو عائلته عن المكان الذي سيؤخذ إليه أو مدة الاعتقال، الأمر الذي كان يؤدي إلى اختفاء المعتقل أسابيع أو حتى شهوراً إلى أن يتحقق الاتصال به أخيراً[٣٥].*

---

(٣٤) المصدر نفسه.

(٣٥) «Report of the International Committee of the Red Cross (ICRC) on the Treatment by the Coalition Forces of Prisoners of War and Other Protected Persons by the Geneva Conventions in Iraq during Arrest, Internment and Interrogation,» (February 2004), < http://cryptome.org/icrc-report.htm > .

بعد أشهر من احتلال العراق، كثرت الشكاوى عن انتهاكات حقوق الإنسان في السجون الخاضعة لإدارة سلطات الاحتلال. واقتضى الأمر عاماً كاملاً تقريباً ـ ونشر صور التعذيب الرهيبة في أبو غريب ـ قبل أن ينتبه العالم إلى أصوات المعتقلين وأصوات الذين يحاولون الدفاع عنهم(٣٦).

والآن، لا يزال عشرات الآلاف من العراقيين يعانون من قسوة المعتقلات من دون توجيه تهمة ما اليهم. . وتمنع قوات الاحتلال التي تقودها الولايات المتحدة والشرطة العراقية «المعتقلين من حق الطعن في عدم قانونية الاعتقال أمام أي محكمة. وقد أُبقي بعض المعتقلين رهن الاعتقال أكثر من سنتين من غير رفع الظلم عنهم أومن غير اللجوء إلى أي مصدر عون؛ وأُفرج عن آخرين من دون تفسير أو اعتذار أو تعويض بعد شهور من الاعتقال بعد معاملتهم كضحايا نظام استبدادي»(٣٧). وقد شرعت الصحافة الأمريكية بالتحقيق في القضايا القانونية ذات الصلة في أواخر سنة ٢٠٠٦، ونشرت عناوين رئيسية على غرار «نظام العدالة العراقية متآكل»(٣٨). أما المنطقة الكردية، التي يروّج لها كنموذج للديمقراطية يحتذى به في العراق، فحالها ليست أحسن كثيراً؛ إذ أصدرت منظمة «هيومان رايتس وُتْش» تقريراً فيه تفاصيل عن التعذيب وسوء المعاملة في سجون الأمن في المنطقة الكردية. ووجد التقرير نمطاً ثابتاً من المعاملة السيئة للمعتقلين تشمل الضرب والتعريض لأوضاع جسمانية مؤذية، ومزاعم تتعلق بممارسة التعذيب بالتيار الكهربائي. والسجون الأمنية التي تخضع للتحقيق تديرها قوات أمنية تعرف باسم أساييش ملحقة بالحزبين الكرديين الرئيسيين، وهي خارج سلطة الحكومة الإقليمية الكردية ووزارة داخليتها(٣٩).

---

(٣٦) سأل ولفوويتز الجنرال أنطونيو تاغوبا «هل تخبرنا ما حدث؟» وسأل شخص آخر، «هل هو إساءة معاملة أم تعذيب؟» هنا، ذكر تاغوبا، «وصفت معتقلاً عارياً مستلقياً على أرض رطبة ويداه مقيدتان، فيما قام أحد المحققين بإدخال أشياء في شرجه، وقال، «هذا ليس إساءة معاملة، إنه تعذيب». انظر: Seymour M. Hersh, «The General's Report: How Antonio Taguba, who Investigated the Abu Ghraib Scandal, Became one of its Casualties,» *New Yorker* (25 June 2007), <http://www.newyorker.com/reporting/2007/06/25/070625fa_fact_hersh>.

(٣٧) Amnesty International [AI], «Iraq: Beyond Abu Ghraib: Detention and Torture in Iraq,» 6 March 2006, <http://web.amnesty.org/library/index/engmde140012006>.

(٣٨) Michael Moss, «Country in Tatters has a Legal System to Match,» *International Herald Tribune*, 18/12/2006.

(٣٩) Jim Muir, «Iraqi Kurds «Tortured Prisoners»,» BBC News, 3 July 2007, <http://news.bbc.co.uk/2/hi/middle_east/6266328.stm>.

لقد تعرضت النساء العراقيات إلى حملة المداهمات الكاسحة والاعتقال في سجن أبو غريب والعديد من المعتقلات الأخرى. وهن بالإضافة إلى معاناتهن مما يعانيه النزلاء الذكور، يتحملن ثقل محنة أخرى وهي الصمت. أولا: إذ تنفي سلطات الاحتلال وجود نساء معتقلات نفياً قاطعاً؛ وثانياً، صمت عائلات النساء أنفسهن خشية وصمة العار المحيطة باعتقال امرأة واحتجازها. وبالنسبة إلى معظم العراقيين، لا تبرز صور أبو غريب ما يتعرض له النزلاء من تعذيب وسوء معاملة فحسب، وإنما تحمل في طياتها أيضاً الحقيقة المرعبة لما لم يجر تصويره أو نشره: تعذيب واغتصاب بناتهم وأخواتهم وأمهاتهم.

أفادت تقارير العديد من منظمات حقوق الإنسان عن وجود نساء معتقلات في سجون الاحتلال في مختلف أنحاء العراق «لأسباب أمنية»(٤٠). وما زال الغموض يغلف ماهية عدد الإناث المعتقلات في العراق، وأن قدر عدد المعتقلين منذ الغزو في آذار/مارس ٢٠٠٣ بما يراوح بين ثلاثين ألفاً ومئة ألف. وتقول منظمات إنسانية، ومنها الصليب الأحمر الدولي والهلال الأحمر ومنظمة العفو الدولية، إنها قامت بتوثيق المئات من الشكاوى المتعلقة بما ترتكبه قوات الائتلاف من تعذيب وسجن تعسفي(٤١).

من المناسبات النادرة التي تحدثت فيها آن كلويد، موفدة طوني بلير الشخصية لحقوق الإنسان إلى العراق، عن انتهاكات حقوق الإنسان تحت الاحتلال عندما علمت بأن امرأة عمرها سبعون سنة عاملها الجنود الأمريكيون كالحمار حيث راحوا يمتطونها في أحد السجون العراقية(٤٢). وفي داخل العراق، تتكتم سلطات الاحتلال على المعلومات المتعلقة بالمعتقلات تحاشياً لإثارة غضب الشعب العراقي ولإعطائه انطباعاً بأن قوات الاحتلال تحترم التقاليد المحلية، وخصوصاً ما يخص

---

(٤٠) من المنظمات المشاركة في توثيق احتجاز النساء العراقيات عدة مجموعات مستقلة معنية بحقوق المرأة وحقوق الإنسان وتعمل داخل العراق وخارجه، مثل «إرادة المرأة العراقية» و«رصد الاحتلال» و«الرابطة العراقية» و«منظمة صوت الحرية لحقوق الإنسان» و«اللجنة العراقية للإعلام والثقافة الوطنية» ووكالات دولية ومنظمات حقوق إنسان مناهضة للحرب مثل (منظمة العفو الدولية، والصليب الأحمر الدولي، وبعثة الأمم المتحدة لمساعدة العراق، ومحكمة بروكسل).

(٤١) Jonathon Gatehouse, «U.S. Torture Scandal in Iraq,» *Maclean* (17 May 2004), <http:// www.thecanadianencyclopedia.com/index.cfm?PgNm=TCE&Params=M1ARTM0012604>.

(٤٢) Andrew Buncombe and Justin Huggler, «The Torture Victim: Iraqi Tells How he Was Stripped, Beaten and Sexually Abused by US Military,» *Independent*, 6/5/2004.

منها وضع النساء الحساس[٤٣]. وباستثناء الكشف عن وجود المعتقلات المعروفات مثل الدكتورة هدى صالح عماش، عضو مجلس قيادة الثورة في النظام السابق، والدكتورة رحاب طه، الباحثة العلمية، أنكرت الحكومات العراقية المتعاقبة وجود معتقلات، خوفاً من ردة فعل عنيفة من المجتمع المحافظ تقليدياً[٤٤].

يتذكر علي القيسي ـ الرجل الذي يظهر في الصورة الشهيرة التي باتت رمزاً لمعتقل أبو غريب حيث يبدو وقد غُطي رأسه بكيس من خيش وأُوقف على صندوق، فيما بدت الأسلاك الكهربائية على يديه ـ ما كان يقاسيه عند سماعه صرخات إناث معتقلات وعويلهن: «كان رجال عراة يدخلون زنزاناتهن حاملين لهن الطعام»، ويضيف: «كنا نشعر بالعجز عند إصغائنا إلى صراخهن، لا نقوى على فعل شيء سوى الصلاة والتوجه بالدعاء إلى الله تعالى»[٤٥].

وأبلغ مصور تلفزيون «الجزيرة» صهيب باز صحيفة **الإندبندنت** أنه رأى بأم عينيه فتاة في الثانية عشرة في أثناء التعذيب: «كانت عارية، تستغيث بي وهي تتلقى الضربات». وروى أيضاً أن آمري السجون كانوا يلتقطون صوراً فوتوغرافية لهذه الأهوال»[٤٦].

إن إنكار سلطات الاحتلال يتضارب مع تصريحات أدلى بها منتظر السامرائي، الجنرال العراقي المسؤول سابقاً عن القوات الخاصة، حيث كشف عن

---

(٤٣) غالباً ما يساعد العملاء العراقيون في تعزيز هذا الانطباع. ففي ١٨ نيسان/ أبريل ٢٠٠٤، أصدر القائد في وزارة الداخلية أحمد يوسف تصريحاً نفى فيه ممارسة إساءات ضد المعتقلات. وقال يوسف، «إننا مسلمون. نحن نعرف تماماً كيف نعامل معتقلاتنا».

(٤٤) كانت البروفسورة عماش الأنثى الوحيدة في مجلس قيادة الثورة، والذي يضم ثمانية عشر عضواً. وقد نالت عماش، وهي أم لأربعة أولاد، شهادتها الجامعية من جامعة بغداد قبل أن تنتقل إلى الولايات المتحدة للتحضير لشهادة الدكتوراه في علم الأحياء الدقيقة في جامعة ميسوري. وقد حازت هذه الشهادة في سنة ١٩٨٣، وأجرت أبحاثاً واسعة على تأثير اليورانيوم المنضب على الصحة والبيئة العراقية. ورغم أن الولايات المتحدة نعتتها بـ «السيدة أنثراكس»، فقد أُفرج عنها من سجن المطار في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٥. وكانت رحاب رشيد طه، المتخصصة في علم الاحياء الدقيقة والملقبة من جانب مفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة بـ «الدكتورة جرثومة»، قد تلقت علومها في إنكلترا وحازت الدكتوراه من جامعة إيست أنغليا (East Anglia)، حيث درست أمراض النباتات. ولم تكن على لائحة المطلوبين الخمسة وخمسين، لكن الولايات المتحدة تابعت جهودها لاعتقالها. وقد أُفرج عنها في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٥.

(٤٥) Laura Mansfield, «The Hooded Man from Abu Ghraib: The Rest of the Story,» Free Republic, 27 December 2005, < http://www.freerepublic.com/focus/f-news/1547528/posts > .

(٤٦) British Broadcasting Corporation, «Iraq Abuse Allegations Multiply,» BBC News, 10 May 2004, < http://news.bbc.co.uk/1/hi/world/middle_east/3698879.stm > .

وجود تسعة مراكز اعتقال سرية. كما قال إن هناك أيضاً مركز اعتقال للنساء في بغداد حيث «تعذَّب النساء وتُغتصب»[٤٧].

ووفقاً لما كتبه الصحافي سيمور هيرش في **النيويوركر**، قال الجنرال أنطونيو تاغوبا إنه رأى «شريط فيديو لجندي أمريكي بلباسه الرسمي يغتصب معتقلة من الخلف». ولم يُعرض الشريط علانية في أي من جلسات المحكمة اللاحقة، ولا أتت الحكومة على ذكره بشكل علني؛ إذ كان من شأن مثل تلك الصور أن تؤجج الغضب الذي ثار بشأن سجن أبو غريب[٤٨].

وقد اعترف مسؤولون أمريكيون بأن النساء يُعتقلن بغية إقناع أقاربهن من الذكور بتقديم المعلومات. وقيل إن كثيراً من المعتقلات هن زوجات مسؤولين كبار في حزب البعث أو مقاتلين مشتبه فيهم أو أقاربهن، وإن المحققين هددوا بقتلهن. وذكرت خمس نساء معتقلات لمحاميهن أنهن تعرضن للضرب خلال احتجازهن. وقالت واحدة منهن إن جندياً أمريكياً اغتصبها وطعنها بسكين. وفي أيار/مايو ٢٠٠٤، قال العقيد المسؤول عن منشآت الاعتقال في أحد السجون إن النساء الخمس اللواتي أُبقين هناك وضعن في الحبس الانفرادي ثلاثاً وعشرين ساعة في اليوم، ولم يكن في حيازتهن سوى نسخ من القرآن. وادعى معتقل سابق في أبو غريب أن فتاة في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من العمر أُحضرت إلى السجن وجُردت من ملابسها وضُربت فيما كان أخوها وسجناء آخرون يسمعون صراخها من زنزاناتهم[٤٩].

إن وزيرة الدولة فاتن محمود هي واحدة من المسؤولين الحكوميين القلائل الذين أقروا بوجود نساء معتقلات، وحثت وزارتي الداخلية والدفاع وقوات الاحتلال الأمريكية على التزام القانون الدولي عند التعامل معهن. وكانت دعوتها في الواقع الاعتراف الرسمي الأول بأن عدد النساء المعتقلات في مختلف مراكز الاعتقال في تزايد وبأن ظروفهن تزداد سوءاً. وجاء إقرارها بأنّ «في السجن عدد كبير من النساء» مناقضاً لتقارير عراقية وأمريكية سابقة نفت وجود نساء

---

(٤٧) Agence France Presse [AFP], «Iraqi General Tells of Prison Torture Horror,» AFP, 12 December 2005.

(٤٨) Hersh, «The General's Report: How Antonio Taguba, who Investigated the Abu Ghraib Scandal, Became one of its Casualties».

(٤٩) United Nations Development Fund for Women [UNIFEM], 23 February 2005.

في مراكز الاعتقال الخاضعة لسيطرتهم. لكنها اضطرت بعد ساعات قليلة إلى سحب تصريحها[٥٠]. ويترك مثل هذا السلوك مهمة الكشف عن الحقيقة لمنظمات عراقية ودولية معنية بحقوق الإنسان، ولأصوات مستقلة قليلة ما زالت تسمع في البلد[٥١].

(٥٠) **التآخي**، ٦/ ١٢/ ٢٠٠٦.

(٥١) عبد الباسط تركي، أول وزير عراقي لحقوق الإنسان، هو الوزير العراقي الوحيد الذي استقال احتجاجاً على انتهاكات حقوق الإنسان تحت الاحتلال. وقد قال لصحيفة **الغارديان** في ٢٠ نيسان/ أبريل ٢٠٠٤ إنه حذر بريمر مراراً من إساءة معاملة السجناء في أبو غريب، لكن من دون جدوى، وأنه اتصل به هاتفياً أيضاً ليشكو له من معاملة المعتقلات. وقال تركي: «لقد منع عنهن العلاج الطبي. ولم يوفر لهن مرحاض مناسب. وأُعطين غطاء واحداً فقط رغم أن الفصل شتاء».

الفصل الرابع

المقاومـــــة

ـ ١ ـ

لدى قيامي وزوجي بزيارة بغداد بعض مضي تسعة أشهر على الاحتلال، وجدنا أنفسنا نتساءل: لماذا لا يقاتل معظم الناس الاحتلال كما قاتل أجدادنا خلال ثورة ١٩٢٠؟ وأدركنا أن الجواب هو، «نريد التقاط أنفاسنا أولاً». كان معظم البغداديين من الطبقة الوسطى الذين التقيناهم في كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٤ يرغبون في فسحة للتنفس، واستعادة بعض القوة البدنية، ومحاولة فهم الوضع بعقل منفتح. قالوا لنا إنهم ضد الاحتلال من حيث المبدأ، لكنهم كانوا منهكين وبحاجة إلى فترة استراحة بعد جيل من الحرب والعقوبات والموت، بصرف النظر عن مدى قصرها. فقد تركت ثلاث عشرة سنة ونيف من العقوبات الشعب في حالة متردية من الإنهاك الجسدي، وهذا أحد أسباب «النجاح السريع» الذي حققه الغزو. وكان البعض يأمل بقدر من الحقيقة في المزاعم التي ساقتها الولايات المتحدة لتبرير الغزو، وبقدر من الذكاء من المحتلين. ولو كان هناك مثل هذا القدر من الحقيقة وهذا القدر من الذكاء لاتخذت المقاومة شكلاً آخر ومساراً آخر.

في البداية، اتبع العراقيون طرقاً واسعة الحدود في تعاملهم مع الاحتلال، بعيداً عن الطرفين المتناقضين اللذين يتطلبان إمّا التعاون مباشرة مع الوضع القائم الجديد أومقاومته بالسلاح. واتبع معظم الناس مثال الفنيين التكنوقراط وموظفي الدولة للخدمات المدنية الذين اتخذوا القرار البراغماتي بمواصلة العمل كالمعتاد وتدبير أمورهم ضمن أي إطار رسمي يعطى للبلد وخدماته. كانوا يريدون ضمان استمرار عمل المدارس والعيادات والمحاكم والبلديات، حتى لو عني ذلك تقديم التنازلات. لكنهم لم يتعاونوا تعاوناً مطلقاً، حين بدت التغييرات المفروضة مصدر تهديد للسيادة أو الحقوق القانونية الأخرى. على سبيل المثال، رفض مسؤولون حكوميون المصادقة على بيع الأملاك أو إصدار الوثائق الثبوتية أو أي وثيقة ذات تأثير طويل الأمد. ويمكن تشبيه أفعالهم ضد الدولة بتكتيكي «التباطؤ» و«العمل

بالجهد الأدنى» اللذين تتَّبعهما النقابات العمالية، أي بما يبلغ مستوى الاحتجاج من دون إعلان الإضراب. بالإضافة إلى ذلك لجأت مجموعات أخرى، وخصوصاً خارج وظائف الخدمة العامة، إلى الاحتجاجات السلمية وتقديم المطالب عن طريق كتابة العرائض أو بواسطة المندوبين أو التظاهرات أو الانتخابات في المنظمات المهنية التي أعيد إحياؤها (بغض النظر عن مدى الضعف الذي وصلت إليه في عهد النظام السابق).

كما قام البعض بحماية الهاربين والمطلوبين من قوات الاحتلال. ودعم البعض الآخر مجموعات المقاومة بالمال أو بالحماية الأهلية. وكانت دوافع أشكال المقاومة المختلفة المباشرة وغير المباشرة مزيجاً من الخوف والروح الوطنية والروابط القبلية والواجب الأُسري وعدم اتخاذ أي موقف واضح انتظاراً لما سيحدث مستقبلاً. ومن ناحية أخرى، كان الاحتلال والنظام المتعاون معه يمنحان المكاسب الشخصية والمناصب الكبيرة لقاء العمل على إحداث التغييرات وتنفيذ القوانين الجديدة. وتفاوت التوازن بين العوامل الدافعة إلى المقاومة والدافعة إلى التعاون مع الاحتلال من مكان إلى آخر وعبر الفترات الزمنية المختلفة.

لقد وضعت السنة الرابعة للاحتلال حداً لمختلف أوجه المقاومة السلبية والسلمية، التي وسمت المقاومة في السنوات الثلاث الأولى. إذ لم تترك وحشية الاحتلال مجالاً لأي مبادرة مستقلة عن العملية السياسية في المنطقة الخضراء أو لتطوير المعارضة السلمية[1].

يجدر التذكير هنا بأن المقاومة المسلحة ضد الاحتلال حق يكفله القانون الدولي[2]. ويجدر أيضاً التشديد على أن الهدف الرئيسي للمقاومة العراقية هو قوات الاحتلال، خلافاً لمزاعم الاحتلال والإعلام الذي يروج لها؛ حيث استهدف ٧٥ بالمئة من الهجمات المسجلة قوات الاحتلال، ووجّه ١٧ بالمئة منها

(١) الدعم المقدم إلى قوات الائتلاف المرابطة في العراق هزيل، إذ يعبّر ٨٢ بالمئة عن انعدام الثقة بها، ويعتقد ٦٢ بالمئة أنها جعلت الوضع الأمني أسوأ حالاً. انظر: British Broadcasting Corporation, «Iraq Poll 2007,» BBC News, 19 March 2007, <http://news.bbc.co.uk/1/hi/world/middle_east/6451841.stm>.

(٢) يؤكد قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ٣٣/ ٢٤ بتاريخ كانون الأول/ ديسمبر «شرعية نضال الشعوب في سبيل الاستقلال ووحدة الأراضي والوحدة الوطنية والتحرر من الهيمنة الاستعمارية والاحتلال الأجنبي بجميع الوسائل المتاحة، ولاسيما الكفاح المسلح». انظر: <http://www.un.org/documents/ga/res/33/ares33r24.pdf>.

إلى القوات الحكومية (ووجّهت الـ ٨ بالمئة الباقية إلى أهداف مدنية غير محددة). ولأسباب لاتحتاج إلى التوضيح، ليس لدى المقاومة مكتباً صحافياً لتقديم النشرات بالحقائق أو البيانات الصحافية بعد كل هجوم على قوات الاحتلال، لكننا نعرف أن متوسّط عدد الهجمات قد تضاعف أكثر من مرتين في السنة الماضية، إلى ١٨٥ هجوماً في اليوم الواحد، أي ١٣٠٠ هجوم في الأسبوع الواحد، وأكثر من ٥٥٠٠ هجوم في الشهر الواحد(٣).

إننا نعرف من النضالات السابقة لجبهات التحرير الوطنية، كما في فييتنام والجزائر، ومن تجربتنا نحن إبان محاربة نظام البعث، أن النساء العراقيات يشاركن في القتال، مع أن مدى حجم مساهمتهن لا يزال غير موثَّق. وقد لا يكون «الخبراء» الأمريكيون بشؤون مكافحة التمرد في العراق مصدراً موثوقاً عن مقدار مشاركة النساء في المقاومة المسلحة، لكن متابعة تصريحاتهم وكتاباتهم قد تعطينا فكرة ما عن دور النساء ضمن «التمرد» كما يتصوره الاحتلال. وفيما يلي نصيحة «خبير» لقوات الاحتلال: «استخدموا النساء؛ فمعظم المقاتلين المتمردين هم من الرجال. لكن في المجتمعات التقليدية، تتمتع النساء بتأثير كبير في تشكيل شبكات التواصل الاجتماعية التي يستغلها المتمردون لتلقّي الدعم. واستيعاب النساء المحايدات أو المناصرات من خلال برامج اجتماعية واقتصادية مستهدفة يبني شبكة تنظيمات نسوية ذات مصلحة ذاتية ومتنورة ستضعف المتمردين في آخر المطاف. إنكم بحاجة إلى النساء لمكافحة التمرد، بمن فيهن نساء الرجال العاملين معكم، للقيام بذلك بصورة فعالة. فوزوا بالنساء فتملكوا وحدة العائلة. املكوا العائلة فتتقدمون خطوة كبيرة إلى الأمام في تعبئة السكان»(٤).

ـ ٢ ـ

كانت المقاومة السياسية السلمية شائعة في السنتين الأوليين للاحتلال، على الرغم من محدودية النشاط العام. وكان الناشطون على نحو خاص أعضاء «المؤتمر

---

(٣) Brookings Institution, «Iraq Index: Tracking Variables of Reconstruction and Security in Post-Saddam Iraq,» 30 July 2007, <http://www.brookings.edu/fp/saban/iraq/index20070730.pdf>.

(٤) David Kilcullen, «Twenty-Eight Articles: Fundamentals of Company-Level Counterinsurgency,» Iosphere (Summer 2006), pp. 29-35, <http://www.au.af.mil/info-ops/iosphere/iosphere_summer06_kilcullen.pdf>.

التأسيسي الوطني العراقي»، المماثل بتركيبته وأفكاره للمؤتمر الوطني الأفريقي ومنظمة التحرير الفلسطينية. وهو تحالف قوى موحدة حول مطلب رئيسي واحد: التحرر الوطني، ويتألف من أكثر من ٢٢ حزباً سياسياً ومنظمة مستقلة، بما فيها مجموعات نسائية ومنظمات مجتمع مدني مثل «اتحاد الحقوقيين العراقيين» و«رابطة الأساتذة الجامعيين»، التي تضمّ أيضاً الأستاذات الجامعيات.

أنشئ «المؤتمر التأسيسي» في أيار/ مايو ٢٠٠٤ ليمثل الأشخاص الذين عارضوا نظام صدام ورفضوا المشاركة في أي عملية ينفذها الاحتلال لإضفاء الشرعية على هيمنته على الشعب والأرض العراقيين وإطالة أمدها. ويدعو المؤتمر إلى الانسحاب الفوري لقوات الاحتلال وإلى الالتزام المطلق بوحدة العراق أرضاً وشعباً وسيادة، ورفض أية محاولات لتقسيمه على أساس عرقي أو مذهبي وكل ما من شأنه تعريض وحدته للخطر حاضراً أو مستقبلاً، وعدم شرعية القوانين الصادرة والتي ستصدر عن أية جهة كانت في ظل الاحتلال، وعدم جواز التصرف بموارد العراق الطبيعية والمادية والبشرية. كما يدعم حق مقاومة الاحتلال بأي وسيلة ضرورية. وهكذا، قدم «المؤتمر التأسيسي» في وقت مبكر، أي في السنة الأولى للاحتلال، مشروعاً عراقياً أصيلاً، يمثل أغلبية الشعب العراقي وتطلعاته بصورة متزايدة خارج «براغماتية» أحزاب المنطقة الخضراء السياسية الإثنية والطائفية.

وقد انتخب الشيخ جواد الخالصي أميناً عاماً «للمؤتمر التأسيسي»، وهو مشرف على المدرسة الخالصية ذات المنهج التجديدي العلمي الإصلاحي التي أسسها جده سنة ١٩١١، وتجمع الآن بين دراسات التكنولجيا والعلوم والقانون من جهة ودراسات الفقه من جهة أخرى. وكان جدّ الخالصي أحد آيات الله البارزين، وقد ساهم في معارضة المحتل إبان الاحتلال البريطاني في عشرينيات القرن الماضي. ومن أعضاء المؤتمر أيضاً مثنى الضاري، الناطق باسم هيئة علماء المسلمين في العراق. وأمين الهيئة العام هو الشيخ حارث الضاري، الذي اغتال جده الأكبر الشيخ ضاري المحمود، الكولونيل جيرالد لجمان، الضابط البريطاني المشهور بقسوته وعجرفته، في العشرينيات. والناطق باسم المؤتمر هو وميض عمر نظمي، أستاذ العلوم السياسية في جامعة بغداد ومن قدامى القوميين العرب العلمانيين، ومسؤول المكتب الاعلامي سعد ناجي جواد، الاستاذ في جامعة بغداد.

شدّد «المؤتمر التأسيسي» في اجتماعه الثاني في أيار/مايو ٢٠٠٥ على تأييد «استخدام كل الوسائل لإنهاء الاحتلال»، والتصريح بأن صدور «إعلان بشأن جدول زمني غير مشروط لانسحاب القوات الأجنبية من العراق هو الشرط الأدنى كي نشارك في كتابة الدستور وفي المشاركة في الانتخابات المقبلة وفي أي عملية سياسية أخرى». وقد استغل أعضاء «المؤتمر التأسيسي» الحيز العام المحدود جداً لتمثيل الساحة السياسية بكاملها والمجاهرة بمعارضتهم للاحتلال بأسلوب سلمي. كما إنهم أدوا دوراً فعالاً في الدعوة إلى المصالحة بين مختلف الفئات السياسية، وتوحيد الشعب كلما حاول الاحتلال وعملاؤه نثر بذور التفرقة الطائفية والإثنية بين أبنائه. وكانوا أول من أدان الهجمات الإرهابية على العراقيين الأبرياء وعلى الأملاك العامة ـ معلنين أنها غريبة تماماً عن تاريخ الشعب العراقي وعاداته ـ والعداوات المصطنعة التي تبث بذور التناحر والضغائن الإثنية والدينية والطائفية.

إنهم يحمّلون قوات الاحتلال ومجلس الحكم المؤقت والحكومة الانتقالية مسؤولية اتّباع سياسة فرّق تسُد، وتشجيع الانقسامات الطائفية، وفرضها على جميع المؤسسات التي أقامتها[٥]. ويدعو «المؤتمر التأسيسي» إلى تشكيل لجان محلية ووطنية مستقلة لمراقبة الجرائم والهجمات الطائفية، وتقصّي الأسباب الكامنة وراءها، وتقديم الإرشاد والعون. وقد تجاهلت الحكومة الانتقالية مطلبهم الأدنى.

بمواجهة شراسة الاحتلال وقسوته، ازدادت المخاطر التي تواجه المشاركين في المقاومة والمحيطين بهم، إذ سرعان ما لجأ المحتل والحكومة العميلة إلى ممارسة العقاب الجماعي رداً على النشاط المعادي للاحتلال. فتضاءلت فرصة تطوّر العمل السياسي، واضطرّ المقاومون حفاظاً على حياتهم إمّا إلى مغادرة العراق ومواصلة العمل في المنفى، أو اتباع نهج العمل السري، أو التخفيف، بقدر الإمكان، من الظهور في العلن.

في أيام الاحتلال الأولى، سارت النساء في تظاهرات مع الرجال أو في تظاهرات نسائية من حين إلى آخر، وكانت مطالبهن عادة إمّا الإفراج عن أقاربهن الذكور المعتقلين في شتى المعتقلات الأنغلو ـ أمريكية، أو الاحتجاج على صرفهن

(٥) Jawad Al-Khalisi, «The Gates of Hell are Open in Iraq,» *Guardian*, 12/4/2005.

من وظائفهن، أو المطالبة بتخصيص رواتب المساعدة الشهرية للأرامل. وسار الطلاب والمعلمون في تظاهرات سلمية للاحتجاج على قيام القوات الأمريكية بالإغارة على بعض الكليات والجامعات، وللمطالبة ـ في إحدى المرات ـ بالإفراج عن ثلاث نساء كن قد تعرضن للاعتقال حين تمت الإغارة على جامعة التكنولوجيا في بغداد(٦).

في الأشهر الأولى من سنة ٢٠٠٥، سار الآلاف في تظاهرات في بغداد للمطالبة بالإفراج عن المعتقلين، اعتقاداً منهم بأن أساليب الاحتجاج السلمية قد تكون ذات فائدة. بل إنّ الحدث الذي أشعل نيران القتال في الفلوجة وما تلا ذلك من تدمير للمدينة على أيدي القوات الأنغلو ـ أمريكية، كان إحدى التظاهرات السلمية. فقد احتشدت مجموعة من الأهالي قرب إحدى المدارس مطالبين الجنود الأمريكيين بمغادرة المدرسة لكي يتسنى للتلاميذ استئناف الدراسة فيها(٧)، فأطلق الجنود الأمريكيون الرصاص على المتظاهرين وقتلوا ١٣ مدنياً.

ومدينة الفلوجة موقع لمركز تجاري قديم، وكانت ذات يوم، في القرن الحادي عشر، عاصمة. وتحوي الكثير من الكليات الدينية والحديثة. وسكان الفلوجة قبليون على العموم ومحافظون من الناحية الدينية، ويتمسكون بشكل خاص بقواعد اللباس وحرمة البيوت. وعندما استخدم جنود الاحتلال المناظير الليلية للتلصّص على ما يدور داخل البيوت، كان إحساسهم بالغضب الشديد أمراً حتمياً. ولم يمض وقت طويل حتى وقعت أحداث مماثلة شملت البريطانيين في بلدة المجر الكبير الجنوبية، عندما استخدمت الكلاب، التي يعتبرها الكثير من المسلمين نجسة في تفتيش البيوت. فتبع المئات من الغاضبين جراء المداهمات والتفتيش المهين الجنود البريطانيين إلى ساحة السوق. وتظاهر المحتشدون فأطلق الجنود البريطانيون الرصاص عليهم، وقتلوا أربعة من المتظاهرين(٨).

إن إحياء شبكة العلاقات الاجتماعية القديمة هو استراتيجية العراقيين الرئيسية لمواجهة انهيار الدولة وتفاقم الأزمات الناجم عن ذلك. ومعظم العراقيين

---

(٦) انظر: Riverbend, «Baghdad Burning,» <http://riverbendblog.blogspot.com/2003_12_01_riverbendblog_archive.html>.

(٧) Phil Reeves, «Iraqi Rage Grows after Fallujah Massacre,» *Independent*, 4/5/2003.

(٨) British Broadcasting Corporation, «What Happened in Majar al-Kabir?,» BBC News, 25 June 2003, <http://news.bbc.co.uk/2/hi/middle_east/3020174.stm>.

يميزون بين البنى القائمة على الجماعة (Community) أو المجتمع الأهلي والمجتمع المدني، ويدركون أشكال التداخل الضروري بينها. فالعائلات الممتدة وعلاقات الجيران والعلاقات القائمة بين المجموعات في المناطق المدينية والعشائر والقبائل والمساجد كلها أمثلة واضحة بينة على بنى المجتمع الأهلي. من ناحية أخرى، تشكل مجالس الآباء والأمهات والمعلمين وغرف التجارة المحلية ونقابات المحامين والمهنيين الآخرين والمنظمات النسوية ومنظمات حقوق الإنسان أمثلة على بنى المجتمع المدني، المتميزة عن أجهزة الدولة. وفي غياب الدولة، تقوم بعض هذه المجموعات بتوفير خدمات أساسية مثل إدارة العيادات للنساء والأطفال في مختلف المناطق. وتؤسس كل هذه البنى شبكات فاعلة ضمن المجتمع الأهلي بعيداً عن التقسيم الطائفي والعرقي المصنّع سياسياً.

في سنوات الاحتلال الثلاث الأولى، لعبت المساجد دوراً حاسماً كمراكز اجتماعية وكأمكنة للتعلم والتنظيم ومساعدة الفقراء وإسداء النصائح والإرشاد في القضايا الاجتماعية. وقام عدد من المساجد بتزويد سكان الحي بالتيار الكهربائي، بعد ان اشترت مولّدات كهرباء كبيرة، أو إدارة صفوف لتعليم الأطفال غير القادرين على الوصول إلى مدارسهم. ولا تستخدم مكبرات الصوت في المساجد للتكبير للأذان فحسب، وإنما أيضاً لتحذير الناس من هجوم إحدى المليشيات أو من اقتراب عربات الهامفي الأمريكية أو لإذاعة نداءات الأطباء طلباً لمؤن أو لمتبرعين بالدم. وتقوم الطالبات والمعلمات والممرضات المتلفعات بالعباءات بدور رئيسي في جمع المؤن والتبرعات وتوزيعها. ويخضع الآن العديد من المساجد لحصار الجنود الأمريكيين والمليشيات.

تواصل العائلات في الأحياء عادة مساعدة إحداها الأخرى وحمايتها، على الرغم من جهود القوى التي تحاول زرع بذور الفتنة بينها. فحين تُجبر إحدى المليشيات عائلة سنية على مغادرة حيها، تتطوع عائلة شيعية لجمع الحصص الغذائية للعائلة السنية وتسليمها إليها، رغم ما ينطوي عليه ذلك من مخاطر[٩]. وعندما يتعرض أحد المساجد أو الكنائس للتدمير، يسارع أعضاء «المؤتمر التأسيسي» إلى مكان الحادث، لتقديم الحماية ومحاولة إصلاح ذات البين للتخفيف من مشاعر المرارة والغضب والانتقام.

وليس هذا مستغرباً أو جديداً في المجتمع العراقي، بل إنه تقليد قديم متبع

(٩) نبيل النواب، في: **النشرة الاخبارية الاجتماعية**، العدد ٩ (تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٦).

منذ زمن بعيد يتعلق بالتعاون والتصاهر بين السنّة والشيعة، والأكراد والعرب، والمسلمين والمسيحيين. وقد سألت صديقة كردية متزوجة من عربي عن رأيها في خطة تقسيم العراق إلى ثلاث دويلات منفصلة ـ وهي خطة رسمتها الولايات المتحدة وبريطانيا وإسرائيل، فقالت: «حسناً، عليهم أولاً أن يقسموا سريرنا إلى قسمين. وعليهم ثانياً أن يضعوا كل واحد منا في دولة... لكن الأدهى من ذلك كله، ماذا عن بغدادنا؟ كيف يمكن تقسيم مدينة تضمّ العرب المسلمين السنّة والشيعة والأكراد (ثلث سكان بغداد يتحدّرون من زيجات عربية ـ كردية) والتركمان والمسيحيين والصابئة»[١٠]؟

ـ ٣ ـ

إن النساء العراقيات يعلمن بأن قوات الاحتلال موجودة في البلد لحماية مصالحها، لا مصالح العراقيين. وهن في رفضهن المشاركة في مبادرات الاحتلال أو عملائه العراقيين، وهي مبادرات تقدم المزايا المادية والاجتماعية، إنما يمارسن مفهوم المقاومة السلبية. وقد تبنين الأسلوب نفسه ضد الاتحاد العام لنساء العراق، الاتحاد المكروه الذي تم تشكيله في فترة حكم البعث، وتمكن من إضعاف شرعية واحدة من أغنى وأقوى المؤسسات النسوية في الشرق الأوسط. وواصلت أغلبيتهن إتباع الاستراتيجية نفسها تحت الاحتلال.

لقد نمت بعض المنظمات النسوية بشكل عضوي ضمن حركات جديدة أو بشكل مستقل، خلافاً لمنظمات النسوة الاستعماريات «غير الحكومية». وكانت الأحزاب السياسية العراقية مستميتة في البداية لاستخدام النساء من أجل تعزيز مصداقيتها. ومع ذلك، رفضت معظم النساء العراقيات المشاركة ولم يرحبن بفرصة أن يكنَّ «نموذجاً» للنساء الأخريات في الشرق الأوسط.

وفي الوقت نفسه، اختار عدد قليل من المنظمات النسوية المستقلة المقاومة الفاعلة غير العنيفة، بعد أن حددت أولوياتها وتوقيت عملها. وشاركت في حركات الاحتجاج وتقديم المناشدات والاعتصام أمام السجون وفي مبادرات

(١٠) الصابئة أو المندائيون هم أتباع يوحنا المعمدان (المسمى يحيى بالمندية والعربية)، الذي يعترف به المسيحيون والمسلمون. وهم في الغالب يعيشون في العمارة في جنوب العراق وفي إقليم خوزستان الإيراني. وكان في العراق حوالى ٥٠٠٠٠ ـ ٦٠٠٠٠ من الصابئة، لكن عددهم انخفض منذ الاحتلال إلى بضعة آلاف.

المطالبة لوضع جدول زمني محدد لانسحاب القوات الأجنبية. كما إنهن قدمن المساعدة بالانضمام إلى منظمات حقوق الإنسان، وإلقاء المحاضرات في الجامعات، وحتى نظم الشعر. وقد ساهم في هذا السيل من النشاط السلمي طيف واسع من الأحزاب السياسية والمجموعات النسوية والأفراد المناوئين للاحتلال. وتعرّض للإسكات لأنه رفض تقييده بالمعايير «البراغماتية» أو «اللاسياسية» المراوغة التي أصبحت علامة مميزة لبعض الأحزاب السياسية العراقية المتعاونة مع الاحتلال.

ومن المنظمات النسوية القليلة التي أسست قبل الغزو ولا تتلاءم مع معايير «اللاسياسية» (Depoliticization) أو تفريغ النشاط النسوي من محتواه السياسي، للمنظمات غير الحكومية التي تموّلها الولايات المتحدة، لكنها تواصل نشاطها تحت الاحتلال، هيئة «إرادة المرأة العراقية». وقد أسستها كنادٍ ثقافي للنساء في سنة ٢٠٠٢، أي قبل الاحتلال بسنة واحدة، الكاتبة والصحافية والناشطة هناء إبراهيم. وهي ناشطة يسارية مستقلة منذ سبعينيات القرن العشرين، وأم لثلاثة أولاد، استطاعت أن تسلك درباً مستقلاً خلال حكم البعث، وأن تقيم شبكة اتصالات واسعة مع الأكاديميين والصحافيين والفنانين. وكانت هناء أيضاً محررة النشرة الإخبارية الأسبوعية **الجندر**، التي تناولت مختلف مشكلات المرأة في البيت ومكان العمل. وتقول هناء إنها تمكنت، على الرغم من جميع الصعوبات، من إقناع إحدى منظمات الأمم المتحدة بدعم النادي مادياً لفتح مركز ثقافي نسوي في بغداد.

بدأ النادي نشاطه بتنظيم معارض فنية وأمسيات شعرية، وسرعان ما اتضح أن الرجال كانوا تواقين أيضاً لحضور المناسبات الأدبية والثقافية.

إلا أن دخول الغزاة إلى العراق أجبر هناء على تأسيس منظمة جديدة تحت الاحتلال. تقول هناء:

> *حين وصل الغزاة إلى بغداد سنة ٢٠٠٣، كنت وأصدقائي نائمين في المركز الثقافي لحمايته. وتمكنا من إقناع بعض المسلحين بأن يتركونا وشأننا. كان علينا حماية ٣٩ لوحة لفنانات عراقيات، وكتب وأثاث، فضلاً عن حماية المكان نفسه. وفي أحد الأيام في أيار/ مايو، جاء رجل يرتدي بدلة رسمية، وسأدعوه السيد س، ومعه خمسة رجال بأسلحتهم ولباسهم العسكري. أبلغنا السيد س أنّهم يشعرون بالرأفة في ذلك اليوم، لذا سيعفون عنا إذا غادرنا*

المبنى بهدوء. حاولت إقناعهم بالمحاججة لمدة ساعتين، لكن من دون جدوى. زعموا أنهم أعضاء في الحزب الذي يقوده أحمد الجلبي، وأنهم أتوا ليحتلوا المركز. وفي النهاية، اضطررنا إلى الانصراف فاستخدموا المبنى مكتباً لحزبهم.

بعد ذلك بشهر، استعاد بول بريمر، «الرئيس الأمريكي للعراق»، المبنى من رجال الجلبي، لكن بدلاً من إعادته إلينا، أعطي لمنظمة تدعى «النساء من أجل نساء العالم» (Women for Women International) ومقرها في واشنطن، وتم فوراً تزويد المركز بأثاث فاخر وحواسيب حديثة، لكنه ظل مفتوحاً مدة شهرين فقط»[١١].

لم تذعن عضوات المنتدى لليأس، بل قمن بتأسيس منظمة جديدة تدعى «هيئة إرادة المرأة العراقية»، التي تجمع بين النشاطات المناهضة للاحتلال والمطالبة بحقوق المرأة الكاملة والمتساوية مع الرجل. وتدرك عضوات الهيئة بأن وعود الإدارة الأمريكية بالديمقراطية وحقوق الإنسان كاذبة. تقول هناء: «كم يجافي العقل أن تغزو القوات التي تقودها الولايات المتحدة العراق، وتهدم بنيته التحتية الهشّة، وتدمّر مدننا، وتنهب مبانينا العامة وتفكّك جميع مؤسسات الحكومة باسم الديمقراطية وحقوق الإنسان. ومما هو أكثر مجافاة للعقل أن يتم كل ذلك باسم حقوق المرأة»[١٢]!

انضمت «هيئة إرادة المرأة العراقية» إلى «المؤتمر التأسيسي الوطني» في حزيران/ يونيو ٢٠٠٤ للمساهمة ضمن إطار التحرر الوطني في الحملات الخاصة بالقضايا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي تؤثّر في رفاه النساء العراقيات ومستقبلهن. وتتناول المجلة التي تصدرها المنظمة باسم «عقول» الصعوبات التي تواجهها المرأة تحت الاحتلال. كما تقوم الهيئة بحملات مكثفة للتأثير في القضايا الدستورية وتعنى بقضايا العولمة والبيئة، وتشمل مشاريعها تنظيم حملات لمقاطعة السلع الإسرائيلية وإقامة المعارض وإحياء الأمسيات الشعرية.

على مستوى الحد الأدنى من نشاطات المجتمع الأهلي، ورغم جميع المخاطر، تحاول أعضاء «هيئة إرادة المرأة» حضور مجالس العزاء لمشاطرة عائلات الضحايا

---

(١١) مقتطفات من خطب ألقتها هناء إبراهيم، رئيسة «إرادة المرأة العراقية»، خلال زيارتها لبريطانيا في ٦ ـ ١١ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٥، لحضور مؤتمر السلام الذي نظمته «تحالف أوقفوا الحرب» في لندن.

(١٢) المصدر نفسه.

أحزانها، وخصوصاً العائلات التي من طوائف مغايرة، وذلك للتخفيف من حدة التوتر الطائفي في الأوقات التي تشرف فيها على الانفجار.

من الواضح أن منظمة «إرادة المرأة» لا تتفق مع فكرة «المنظمة النسوية اللاسياسية»، وهي الفكرة التي يُسعى وبجهد كبير إلى تحقيقها في فلسطين والعراق. بل إنّ منظمة «إرادة المرأة» أصبحت أكثر تسييساً في الواقع، خلافاً للموقف اللاسياسي الذي تعلنه المنظمات غير الحكومية التي تشكّلت بعد الاحتلال ظاهرياً. وتصف هناء موقف «إرادة المرأة» بأنه «معاد للاحتلال بشكل صريح»، وهو ما يتعارض كثيراً مع موقف «التحالف النسوي من أجل عراق ديمقراطي ـ وافدي» الذي يتعهد بتقديم الدعم غير المشروط إلى الاحتلال وإلى المشروع الأمريكي «لإعادة الإعمار».

ليس لمنظمة «إرادة المرأة» مصادر تمويل خارجي لكنها تعتمد على العمل التطوعي وبعض الدعم من الأصدقاء ومبيعات مجلتها ورسوم اشتراكاتها، علماً بأن هناك صحيفة يومية توزع المجلة كملحق شهري مجاني. ويقع «مقرها» في إحدى غرف منزل واحدة من العضوات. وفي هذا الصدد توضح هناء:

> *لقد أغلقنا مكتبنا ونحاول مواصلة العمل ونحن ننتقل من مكان إلى آخر. فالبقاء في مكان واحد أكثر من بضعة أيام أمر محفوف بالخطر الشديد. لقد استيقظنا أمس على مشهد أربعة شبان مشنوقين قبالة البيت. وفي هذا الصباح رأيت شاباً يعدو وهو يحمل الصمون [خبزاً عراقياً]. أوقفته سيارة في نهاية الشارع، وخرج من السيارة ثلاثة رجال وأطلقوا النار على رأسه. شاهدنا ما جرى برعب شديد. ونحن ننتظر. . . آملين بأن تهدأ العاصفة. سأرسل لك تقريرنا عن مجزرة حديثة والمعتقلين الأحداث*[١٣].

ثمة منظمة أخرى غير حكومية نشأت محلياً وتعنى بالمرأة والعائلة هي «جمعية المعرفة للمرأة العراقية»، وقد أسستها في حزيران/ يونيو ٢٠٠٣ رشاد زيدان، وهي صيدلانية وأم لأربعة أولاد. تؤكد أهداف الجمعية على دور المرأة في العائلة والمجتمع، وتهدف إلى التخفيف من معاناة النساء العراقيات من خلال تقديم موارد مالية ومهنية وطبية وتعليمية، بالإضافة إلى المشاركة في حملات حقوق الإنسان، وحقوق المرأة على وجه الخصوص.

---

(١٣) رسالة إلكترونية من هناء إبراهيم في ٢٨ آذار/ مارس ٢٠٠٦، الساعة ٤٢ : ٢ من بعد الظهر.

تضم هذه المنظمة ٧٠ موظفة وأكثر من ٣٠٠ متطوعة في كل أنحاء البلد. وهي تعتمد على التمويل الذاتي من اشتراكات عضواتها ومن الدخل المتواضع الناتج من مشاريعها، ولا تقبل سوى المساعدة والدعم غير المشروطين من جهات خيرية وإنسانية[١٤]. نشطت المنظمة إبان حصار الفلوجة سنة ٢٠٠٤، فساعدت في تزويد العائلات النازحة بالحاجات الأساسية مثل الخيام والمياه النظيفة والمراوح. واستجابة لطلب سكان الفلوجة، قامت بفتح فرع لها في هذه المدينة لمواصلة عملها.

تختلف هاتان المنظمتان المستقلتان في النوعية وأسلوب العمل. فمنظمة «إرادة المرأة» هي، إلى حد بعيد، مجموعة فكرية وثقافية ذات وجهة نظر سياسية واجتماعية واضحة، ومعنية بالحفاظ على وحدة العراق وهويته الوطنية مع إبراز قضية حقوق المرأة كحق إنساني. ولا تزال «إرادة المرأة» ناشطة ضمن «المؤتمر التأسيسي» من أجل حركة مناهضة للاحتلال على نحو لا يقبل المساومة وفي التأثير على الرأي العام في الوطن والخارج. بالمقابل، فإنّ جمعية «المعرفة للمرأة العراقية» هي منظمة خيرية تقدّم المساعدة العملية، وتُعنى بتأمين الدعم المادي للعائلات المنكوبة، سواء كانت مواد طبية أم أموالاً. كما تدير الدورات لمحو الأمية وتعليم تكنولوجيا المعلومات الأساسية للنساء والأيتام. ولكلتا المنظمتين صلات عميقة الجذور بالقيم التقليدية ووحدات المجتمع الأهلي، بما فيها المساجد والقبائل. وتلتقي المنظمتان أساساً في الموقف المعادي للاحتلال. منذ البداية، شاركت «إرادة المرأة» في التظاهرات المناهضة للاحتلال، بما فيها تظاهرات الصدريين (أتباع الزعيم الإسلامي مقتدى الصدر)، لكنها اضطرت إلى التحفظ حين ضغط الصدريون على العضوات كي يرتدين الحجاب، المسألة التي تعتبرها «إرادة المرأة» خياراً شخصياً للعضوات.

وبحسب بيانات الجيش الأمريكي، يتم القبض على بعض النساء لأنهن «إرهابيات»، أو لأنهن ينقلن الأسلحة والمتفجرات[١٥]. كما تُعتقل بعض النساء

---

(١٤) انظر: Knowledge for Iraq Women Society, <http://almaarefa.org>.

(١٥) في ٢٣ نيسان/ أبريل ٢٠٠٦، اعتقلت دورية أمريكية امرأة عراقية مع اثنين من «الإرهابيين». وقد وجهت إلى المرأة تهمة إخفاء متفجرات تحت عباءتها. وكان بيان القوات المتعددة الجنسيات بشأن هذه الحادثة متوفراً على الموقع التالي: <http://www.mnf-iraq.com/Releases/Apr/Arabic/060423d.htm>. (لكن الصفحة توقفت عن الصدور).

بتهمة جديدة لم يسمع بها سابقاً وهي أنهن «من المحتمل ان يصبحن انتحاريات». من التطورات المرعبة التي بتنا نشهدها في ظل الاحتلال نزوع بعض العراقيين إلى القيام بعمليات انتحارية. بينما من المعروف، تاريخياً، أنّ العراقيين يحبون الحياة إلى درجة أنهم لا يحتفون بأي شخصية تاريخية، ذكراً كان أم أنثى، إذا انتحر. ومن الجدير بالذكر أن من بين الانتحاريين قلةً من النساء.

كانت المرة الأولى التي سمع فيها العالم بالانتحاريات في العراق عندما شُن هجوم قُتل فيه ثلاثة من جنود الاحتلال عند نقطة تفتيش في شمال غربي بغداد في ٣ نيسان/أبريل ٢٠٠٣. وبث تلفزيون «الجزيرة» شريطي فيديو منفصلين خاصين بالمرأتين، حيث قالت إحداهما إنها تطلب الشهادة، وهددت الأخرى بالجهاد ضد الكفار الأمريكيين والبريطانيين والإسرائيليين(١٦).

لقد مرت المرأة بالكثير من التحولات في مواقفها مما يدور حولها تحت الاحتلال، وتعرضت وهي المعروفة بأنها الأكثر تقدماً بين نظيراتها في الدول العربية إلى خسارة كل شيء تعتز به وفقدان كل من تحبه من أفراد عائلتها وأقاربها. الأمر الذي يدفع بعض النساء إلى القيام بأعمال غريبة عليهن(١٧). وهن يأبين الاستسلام «للمحتوم»، فيتحولن من الاحتجاج السلبي إلى الاحتجاج الإيجابي، الذي يتطلب منهن المخاطرة بحياتهن. وهذا مثَل أم عبد الله التي تبلغ الحادية والأربعين من العمر، التي قالت، «قُتل زوجي قبل أربعة أشهر على أيدي قوات عراقية، وقُتل إلى جانبه صهري وولداه. لا يمكنني أن أتذكر عدد الرصاصات التي أصابت جسدي الطفلين. أريد أن أكون استشهادية باسم الله... سأكون واحدة من العراقيين الذين سيثأرون لكل المعاناة التي سببها الأمريكيون والمليشيات في السنوات الماضية، وسيرغمونهم على ترك أرض العراق المباركة. أعلم أني سأموت لكني سأموت لسبب وجيه»(١٨).

---

(١٦) British Broadcasting Corporation, «Iraq Says Women Killed Troops,» BBC News, 5 April 2003, <http://news.bbc.co.uk/1/hi/world/middle_east/2917107.stm>.

(١٧) في ٢٥ حزيران/يونيو ٢٠٠٧، تمكنت القوات الأمريكية - العراقية المشتركة المهاجمة لبعقوبة من إلقاء القبض على امرأة قناصة. انظر: شبكة أخبار العراق، <http://www.aliraqnews.com/modules/news/article.php?storyid=27637>.

(١٨) Integrated Regional Information Networks [IRIN], «Iraq: Killings Drive Women to Become Suicide Bombers,» IRIN, 8 March 2007, <http://www.irinnews.org/Report.aspx?ReportId=70582>.

ـ ٤ ـ

لقد أثر الاحتلال بشكل سيئ على كل جانب من جوانب الحياة العراقية، وقد أدرك العراقيون أن المستهدف، في الواقع، هو ثقافتهم، وتاريخهم، وذاكرتهم الجماعية، وقيمهم، وصيغ التعبير وأساليب حياتهم. لذا أصبحت المقاومة الثقافية عنصراً أساسياً في المقاومة الشعبية الشاملة ضد الاحتلال. وهي تنطوي بداهة على الكفاح من أجل مواصلة الإبداع والاحتفاء بالمخيلة على الرغم من كل الصعوبات والقيود. وتنطوي أيضاً على مقاومة القرارات السياسية ومصادر التمويل التي تفرض هيمنة سياسات الاحتلال وأولوياته الثقافية. بعبارة أخرى، إن المقاومة الثقافية هي أحدى أساليب مجابهة أو مواجهة هيمنة الاحتلال في أعمق مستوياتها: الطرق التي يواصل العراقيون المحتلون بواسطتها تأكيد هويتهم التاريخية والثقافية واللغوية والدينية.

اتخذت المقاومة الثقافية أشكالاً مختلفة خلال مراحل الاحتلال وحكوماته العميلة المتعاقبة. وهي تتراوح مابين المحافظة على البقاء ومتابعة إنتاج الأعمال الفنية كالمصنوعات اليدوية والموسيقى ورسم اللوحات إلى إنتاج الأفلام الوثائقية بتكنولوجيات أحدث وأبسط، ومن خطب الجمعة على منابر المساجد إلى استعمال وسائل الإعلام الإلكترونية لتجاوز تحكم سلطة الاحتلال في نشر المعلومات.

ففي أعقاب فضيحة سجن أبو غريب، نظم ٢٥ فناناً عراقياً معرضاً للتعبير عن غضبهم من خلال ما أنتجوه من منحوتات ولوحات وتركيبات فنية صورت أهوال أبو غريب ومراكز الاعتقال الخاضعة للإشراف الأمريكي والبريطاني، وهي الأهوال التي بات الكثير من العراقيين يرونها رمزاً لكيفية تحول حلم التحرر والديمقراطية إلى كابوس الاحتلال وعنفه. وقد صمم قاسم السبتي صورة بالحجم الطبيعي لامرأة مغطاة بكفن أبيض ملطخ بالدم، وأراد بذلك أن يرمز إلى المعتقلات اللواتي تعرضن للاغتصاب في أبو غريب. وقدم عبد الكريم خليل ثلاث منحوتات، تمثل إحداها الشخصية الكلاسيكية المغطاة الرأس، رمز أبو غريب، فيما ذراعاها ممدودتان بشكل يعيد إلى الأذهان صورة صلب المسيح.

أشار خليل في تعليقاته على المعرض إلى التغيير الذي طرأ على دور الفنان تحت الاحتلال، قائلا: «اعتاد بعض الفنانين أن يكون حيادياً، أما الآن فهناك

فنانون وشعراء وكتّاب توصلوا كلهم إلى قرار أن الأمريكيين هدّامون. لقد منحهم القرار فهماً جديداً لغاية الفن»[١٩].

إن معظم معارض بغداد مغلقة حالياً، وكثير من الفنانين فروا من العراق خلال السنوات الثلاث الأولى للاحتلال. وقد سألت زينة (ليس هذا اسمها الحقيقي)، وهي صحافية عاشت في بغداد وأعدّت فيلماً تحت عنوان «العراق: حكاية النساء» لحساب القناة الرابعة البريطانية، عن كيفية مقاومة النساء العراقيات للاحتلال. كان جوابها مقتضباً: «إن مجرد البقاء على قيد الحياة في العراق، الآن، هو مقاومة»[٢٠]. وقد عملت زينة وصديقتها انتصار العربيي، وهي صيدلانية في مستشفى اليرموك التعليمي في بغداد، لإنجاز فيلم وثائقي في القائم[٢١]، وهي بلدة نائية في غرب بغداد على ضفة نهر الفرات. وجازفتا بحياتهما في أثناء انتقالهما إلى مناطق لم يكن في وسع أي صحافي آخر الوصول إليها إلا إذا كانوا مصاحبين للجنود الأمريكيين. ودفعتا ثمناً باهظاً لقاء شجاعتهما؛ إذ اضطرتا إلى مغادرة العراق مع أولادهما، للمحافظة على حياتهما. كما أن انتصار فُجعت بفقدان أخيها الذي وجدت جثته في ثلاجة حفظ الموتى في المستشفى الذي كانت تعمل فيه[٢٢].

أرادت زينة إنجاز الفيلم لأن ما كانت تراه وتعيشه يومياً في العراق كان مغيباً عن العالم الخارجي. وكانت تتوق بصورة خاصة إلى توثيق أوضاع النساء، بصرف النظر عن ضيق الحدود التي اضطرت إلى العمل ضمنها: «ما أريد تقديمه حقاً هو صورة وواقع العائلات التي اعتُقلت، عن الجثث التي يُعثر عليها، عن التعذيب. لكن فرص العمل ضئيلة جداً، فإما أن تكون صحافياً تعمل مع الأمريكيين ـ تواكبهم ـ وإما أن تعرض حياتك للخطر لتغطية هذه القصص»[٢٣].

إن صانعي الأفلام الوثائقية، كزينة وانتصار، مستهدفون، مثلما هم الممثلون

---

(١٩) Nicholas Blanford, «Iraqi Artists Depict Anger over Abu Ghraib,» *Christian Science Monitor*, 15/6/2004.

(٢٠) رسالة إلكترونية من زينة إلى المؤلفة بتاريخ ١٢ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٦.

(٢١) عُرض فيلم «العراق: حكاية النساء» (Iraq: The Women's Story) على شاشة القناة الرابعة البريطانية في ٨ أيار/ مايو ٢٠٠٦. انظر: < http://www.channel4.com/news/dispatches/war_on_terror/ the_womens_story >.

(٢٢) مقابلة أجرتها المؤلفة مع انتصار في ٢٨ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٦.

(٢٣) Natasha Walter, «No One Knows What We Are Going Through,» *Guardian*, 8/5/2006.

الذين يشاركون في المسرحيات أو الأفلام أو المسلسلات التلفزيونية. ففي ٢٠ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٦، قُتل مُطشر السوداني، وهو ممثل مخضرم أدى أدوار البطولة في الكثير من المسلسلات التلفزيونية العائلية والمسرحيات العراقية على امتداد ثلاثة عقود. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٦، قُتل في بغداد وليد حسن، نجم مسلسل تلفزيوني ساخر استقطب الكثير من المشاهدين بفكاهته السوداء التي تناولت مآزق البلد تحت الاحتلال[٢٤]. وعلى ما يبدو، يُعتبر حس النكتة أداة أخرى من أدوات الإرهاب في «العراق الجديد».

في سنة ٢٠٠٣، قامت ميسون الباجه جي، وهي مخرجة أفلام وثائقية مقيمة في لندن ومن أصل عراقي، والمصور والمخرج قاسم عبيد، وبالتعاون مع عدد آخر من العراقيين، بتأسيس معهد مستقل للأفلام والتلفزيون في بغداد[٢٥]. وقدم هذا المعهد إلى الشباب المهتم بصناعة الأفلام دورات إعلامية مجانية مدتها شهراً واحداً أو شهرين، لكنه اضطر إلى الانتقال إلى عمّان بسبب تدهور الوضع الأمني. وقد شجع المعهد المتخرجين على إنتاج أفلام خاصة بهم. وكانت من بين هؤلاء هبة باسم، وهي شابة من مدينة كركوك الشمالية، كانت قد عادت إلى بغداد بعد الغزو لإكمال دراستها في معهد الفنون الجميلة. يسجّل فيلمها القصير «أيام بغداد» (٢٠٠٥) يوميات السنة التي أمضتها في بغداد وهي تحاول إيجاد مكان تقطن فيه وتبحث عن عمل وتدرس لتتخرّج من الكلية وتتعامل مع المشكلات العائلية، فضلاً عن كفاحها للتكيف مع وضعها كامرأة مستقلة.

وبينما تعرّض عدد كبير من الشخصيات الإعلامية المعروفة والمطربين والشعراء للترهيب والإسكات، فإنّ العمل الأدبي المقاوم المنشور إما بلا اسم أو بأسماء مستعارة يتمتع بالانتشار. فقد برع الشبان والشابات في ابتكار طرق جديدة لتحدي الاحتلال، وأخذت التسجيلات على أقراص مدمجة (سي دي) تحل محل الأصوات المفقودة. وذكر اتحاد الفنانين العراقيين أن نحو ٨٠ بالمئة من

---

(٢٤) كان حسن واحداً من الممثلين الخمسة في «كاريكاتور»، وهو برنامج ساخر مدته ٤٥ دقيقة يعرضه تلفزيون «الشرقية»، ولم يكن يتردد من السخرية من الشرطة المرتشية ومن مسؤولين حكوميين همهم الأساسي في الحياة ملء جيوبهم بطرق غير مشروعة وترك البلد طلباً لسلامتهم. انظر: Associated Press, «Fans Mourn Iraqi Comedian Gunned Down in Baghdad,» *International Herald Tribune*, 20/11/2006, <http://www.iht.com/articles/ap/2006/11/20/news/ME_GEN_Iraq _Killed_Comedian.php>.

(٢٥) قاسم عبيد مصور ومخرج ومنتج من أصل عراقي. تلقى علومه في العراق (معهد الفنون) وروسيا (معهد موسكو للأفلام، (VGIK)) ويعيش في لندن منذ سنة ١٩٨٢. انظر: Kasim Abid, «Arab Film Festival,» <http://www.arabfilmfestival.nl/directors/Kasim%20Abid.htm>.

المطربين الذين اشتهروا إبان عهد صدام قد فروا من البلد، وأن ما لا يقل عن ٧٥ مطرباً قُتلوا منذ غزو العراق في سنة ٢٠٠٣[٢٦]. وفي هذا الصدد، لاحظ «تقرير الشرق الأوسط» لكرايسيز جروب أنّ «أعداداً متزايدة من العراقيين الناقمين على القادة الأمريكيين والعراقيين معاً واليائسين من ظروفهم المعيشية المتردية، تجد العزاء في عالم المقاومة البطولية والتقية. وتنتشر الأقراص المدمجة التي تصور مآثر التمرّد في كل أنحاء البلد، والأغنيات الجديدة الممجدة للمقاتلين، كما انبعثت إلى الحياة قصائد نظمت منذ عقود إبان الاحتلال البريطاني في ما بعد الحرب العالمية الأولى. وقد أُعيد اكتشاف قصيدة عن الفلّوجة نظمها الشاعر معروف الرصافي سنة ١٩٤١... وبصورة أعم، توزّع أشرطة فيديو المتمردين على نطاق واسع في المساجد وتتوافر فعلاً في معظم محال بيع الأفلام في بغداد»[٢٧].

وكان الرصافي قد نظم قصيدته المعروفة «يوم الفلوجة» بعد أن احتل الجيش البريطاني المدينة، واعتدت قوات «الليفي» المتطوعة في الجيش البريطاني على سكانها، إذ قال[*]:

أيها الإنكليز لن نتناسى ... غيكم في مساكن الفلوجة
ذاك بغي لن يشفي الله الا ... بالمواضي جريحه وشجيجه
هو كرب تأبى الحمية أنا ... بسوى السيف نبتغي تفريجه
هو خطب أبكى العراقَيْنِ والشا ... مَ وركن البنية المحجوجه

لقد كان غياب الاتصال الثقافي، أو في الواقع أي اتصال إنساني عادي بين المحتلين والمجتمع العراقي دليلاً مبكراً لفشل الاحتلال. ويظهر مقدار هذا الفشل في عدم قدرة الجيش الأمريكي على تجنيد سوى عدد قليل من المترجمين العراقيين، وأن بعض هؤلاء تعرض للقتل أو للمطاردة، وهم بحاجة إلى الحماية المكلفة أو يُعتبرون هم أنفسهم خطراً أمنياً. وما فتىء الجيش الأمريكي يجد مشقة في توظيف عراقيين ملمين بالثقافة المحلية وبالمجتمع الأهلي ويستطيع الوثوق بهم.

---

(٢٦) Integrated Regional Information Networks [IRIN], «Iraq: Singing «the Devil's Music» Will Get You Killed,» IRIN, 23 November 2006, <http://www.irinnews.org/report.aspx?reportid=61962>.

(٢٧) International Crisis Group [ICG], «What Can the U.S. Do in Iraq,» Middle East Report, no. 34 (22 December 2004), <http://www.crisisgroup.org/home/index.cfm?l=1&id=3196>.

(*) نجدة فتحي صفوة، **معروف الرصافي**، سلسلة الأعمال المجهولة (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٨٨)، ص ٣٩ (المراجع).

إن غزو أي بلد هو في حد ذاته عمل بالغ التعقيد بالنسبة إلى أية جهة مهماً كانت قوتها. لكن ما تظهره الولايات المتحدة من افتقار تام بمعرفة وفهم أساسيات المجتمع العراقي أو الثقافة العربية ـ الإسلامية إنما هو جهل غير عادي. فادعاء الولايات المتحدة أنها تستطيع الفوز بالقلوب والعقول، وبناء ديمقراطية تجعل العراق نموذجاً لسائر أقطار العالم العربي، من دون الإلمام بلغة البلد وثقافته، فكرة لايقبلها العقل السليم مهماً كانت المقاييس.

ومما يدعو إلى الاستغراب أيضاً نوع الحل الذي يجري السعي إليه لما يسمى «مشكلة التواصل» في العراق. حيث قرر الجيش اللجوء إلى تكنولوجيات جديدة؛ يستعمل من خلالها أجهزة ترجمة صوتية تحمل باليد لتكون بديلاً عن المترجمين الميدانيين ولتحويل الأوامر الإنكليزية البسيطة إلى العربية وباللهجة العراقية[٢٨]. وقد عبّر وين ريتشاردز، رئيس فرع تطبيقات التكنولوجيا في قيادة القوات المشتركة الأمريكية، عن رأيه في المشكلة العويصة أو المعضلة بالقول: «في الماضي، لم يكن الجندي بحاجة ماسة إلى التكلم بلغة أجنبية كي يؤدي مهمته. غير أن جنودنا في العراق وأفغانستان، يتفاعلون بصورة متزايدة مع المدنيين، فيوجهون النصائح عند نقاط التفتيش أو الإرشادات خلال تفتيش البيوت». وقال ريتشاردز: «في أثناء أعمال التفتيش من بيت إلى بيت، لا بد للجنود من أن يتمتعوا بالقدرة على تهدئة أهل البيت وطمأنتهم... إننا نقاتل من أجل الفوز بالقلوب والعقول. لكن إذا لم يكن باستطاعتي أن أقول لها: «يا سيدتي أرجوك أن تهدئي... فلن تدخل الطمأنينة إلى قلبها»[٢٩].

إن الشعر، سواء كان بالعربية الفصحى أم باللهجة العراقية، أداة قوية من أدوات المقاومة الثقافية التي يستحيل، تقريباً، على الاحتلال مواجهتها. ويذكر من شعرائنا المحترمين للغاية الشاعرة مي مظفر، التي تحاول في سلسلة «لقطاتها الخاطفة» تسجيل لحظات تدمير مدينتها وقتل أهلها[٣٠]:

---

(٢٨) تقول الدكتورة ماري ميدا (Mari Maeda)، الباحثة في وكالة مشاريع الأبحاث الدفاعية المتقدمة (Defense Advanced Research Projects Agency (DARPA))، إن الحكومة أنفقت ١٥-٢٠ مليون دولار في السنة على مدى السنوات الخمس الماضية لتطوير تكنولوجيا المترجم المحمول، لأنه لم يكن هناك عدد كاف من المترجمين. انظر: Xeni Jardin, «Tech Solutions to Iraqi-U.S. Language Barrier,» National Public Radio (NPR), 13 November 2006, <http://www.npr.org/templates/story/story.php?storyId=6480428>.

(٢٩) Renae Merle, «First Ears, Then Hearts and Minds, Facing Shortage of Arabic Interpreters, Pentagon Seeks a Technological Solution,» *Washington Post*, 1/11/2006.

(٣٠) ولدت الشاعرة والناقدة الفنية مي مظفر في بغداد وتقيم حالياً في عمّان. وقد نشرت ثلاثة دواوين =

ـ ١ ـ

تحت ركام الخراب الذي كان مدينة
والحجارة التي كانت بيتاً
عند الأعمدة المحروقة التي كانت شجرا
والدم اليابس الذي كان بشرا
أبحث هناك. .
فتحت الخرائب والحجارة والتراب
سبائك ذهب لم يلتقطها الغزاة.

ـ ٢ ـ

لا يكفي أن تفتح عينيك
تتلفت حولك،
تتلمس خطوك
بل تذكر
أن في جنبيك قلباً قابلاً للانفجار.

ـ ٣ ـ

على غفلة من قطاع الطرق
وبنادق المارينز المكهربة
تتسلل ظلال العراقيين
لتبحث من بين الجثث المشوهة عن ولد فقيد
وتلم من فوق الأرض المحروقة
ما أبقته النار من بشر.

= شعرية، والكثير من المواد المترجمة من العربية إلى الإنكليزية، وعدة مجموعات من القصص القصيرة. أما قصيدة «لقطات خاطفة»، فتلقيتها منها في حزيران/ يونيو ٢٠٠٦. وقام بيتر فيليب بترجمتها من اللغة العربية. نشرت في: مي مظفر، **من تلك الأرض النائية** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٧).

تثبت المقاومة على شبكة الإنترنت فعاليتها المتزايدة في الوقت الذي يواصل الاحتلال وعملاؤه إسكات أصوات الكتّاب العراقيين المستقلين، وعدم تمكين الصحافيين الأجانب من العمل ما لم يكونوا مواكبين له أو جزءاً منه.

حيث أثبت بعض أصحاب المدوّنات الشخصية على شبكة الإنترنت (Bloggers) أنفسهم كمصادر قيّمة يمكن التحقق من صحتها للأخبار المرسلة من داخل العراق، وخصوصاً في الوقت الذي يجري فيه قتل حرية التعبير التي هُلّل لها كثيراً في وسائل الإعلام إما برصاصة أو حكم قضائي. ويقدم أصحاب المدونات الشخصية الآراء والتحليلات بينما يوثقون زمانياً ومكانياً تفاصيل واقعهم المرير. كما يتمتعون أحياناً بقيمة أدبية، إذ يعبرون عن المشاعر العميقة ويوضحون الأفكار الجديدة والتحريضية لتتاح بعد ذلك للناس الذين لا يتسنى لهم الاطلاع على مثل هذه المعلومات بخلاف ذلك.

تقدّم المدوّنات إلى العالم الخارجي، من خلال يومياتها وتوثيقها للأحداث وصمودها ونضالها اليومي، وبحكم طبيعتها الجامعة ما بين النقل الفوري وعفوية الأسلوب، العدسة اللازمة لرؤية ما هو وراء التقارير الصحافية التقليدية، لتبرز الوجوه والأسماء المطموسة غالباً من قبل الإعلام الرسمي، لتمكن العالم الخارجي من التعرف على تأثير الحرب والاحتلال في حياة كتاب المدونات وحياة الناس من حولهم.

تستعمل «ريفربند»، وهي شابة من بغداد اشتهرت مدونتها عالمياً، التقليد العربي القديم في سرد القصص لتروي كيف يتم تجريدنا من حقنا في بناء بلدنا:

> *أمس، قرأت كيف أن إعادة بناء العراق ستكلف ٩٠ مليار دولار. إذ ذكر بريمر أرقاماً خيالية عن تكلفة استبدال مبان وجسور ومحطات كهرباء . . إلخ. استمع إلى هذه الحكاية. يعمل أحد أبناء عمي في شركة هندسة مرموقة في بغداد ـ سندعو الشركة هـ. هذه الشركة معروفة جيداً بتصميم الجسور وبنائها في العراق بأسره. وابن عمي، مهندس إنشاءات، شديد الولع بالجسور . . . أخبره مديره، في نهاية شهر أيار/ مايو، أن شخصاً من سلطة الائتلاف المؤقتة طلب من الشركة تقدير تكاليف بناء بديل عن جسر ديالى الجديد في الطرف الجنوبي الشرقي من بغداد. جمع ابن عمي فريقه وذهب إلى المكان المقصود وقدر الأضرار، وخلص إلى أنها ليست كبيرة لكنها ستكون*

مكلفة. وأجرى مع فريقه الاختبارات والتحليلات . . . وتوصلوا إلى رقم طرحوه على نحو غير نهائي: ٣٠٠,٠٠٠ دولار. وشمل المبلغ نفقات المخططات والتصميمات الجديدة، والمواد الخام (وهي رخيصة جداً في العراق)، والعمال، والمقاولين، ومصاريف التنقل. . .إلخ. دعونا نتظاهر أن ابن عمي أحمق. وأنه لم يعمل في مجال الجسور منذ ١٧ سنة. وأنه لم يعمل في استبدال ٢٠ جسراً على الأقل من الجسور الـ ١٣٣ التي تضررت خلال حرب الخليج الأولى. لنتظاهر أنه مخطىء وأن تكلفة إعادة بناء هذا الجسر أربعة أضعاف الرقم الذي قدروه ـ لنتظاهر أنه سيكلف بالفعل ١,٢٠٠,٠٠٠ دولار. دعونا فقط نستخدم مخيلتنا.

بعد ذلك بأسبوع، أُعطي عقد جسر ديالى الجديد إلى شركة أمريكية. وقد قدرت هذه الشركة بالذات تكلفة إعادة بناء الجسر بنحو ـ تمالكوا أنفسكم ـ ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار! يجب أن تعرفوا شيئاً عن العراق: لدينا أكثر من ١٣٠,٠٠٠ مهندس. وأكثر من نصف هؤلاء المهندسين معماريون ومهندسون إنشائيون. وقد درس الآلاف منهم خارج العراق، في ألمانيا واليابان وأمريكا وبريطانيا وبلاد أخرى. وعمل آلاف آخرون مع بعض الشركات الأجنبية التي بنت العديد من الجسور والمباني والطرق السريعة في العراق. وبإمكاننا وصف أغلبيتهم بأنهم أكثر من ماهرين ـ وبعضهم من المهندسين اللامعين.

كان على المهندسين العراقيين إعادة بناء العراق بعد حرب الخليج الأولى سنة ١٩٩١، حين تشكل «ائتلاف الراغبين» من ما يزيد على الثلاثين بلداً شاركوا في قصف بغداد بلا تمييز. وكان عليهم التعامل مع إعادة بناء الجسور والمباني التي شيّدتها شركات أجنبية، والتغلّب على النقص في المواد الأولية التي نستوردها من الخارج، وأن يعملوا في ظل الحصار الجائر الذي صمم لإلحاق الضرر بما بقي سليماً من البنى التحتية بعد الحرب. . . كان عليهم في الواقع إعادة بناء العراق. وكان لا بد أن يكون كل ما يبنى متيناً لأننا مهددون دائما بالحرب.

لقد أُعيد بناء ما يزيد على ١٣٣ جسراً، واستُبدلت مئات العمارات والمعامل، وأُعيد بناء أبراج الاتصالات، وأُضيفت جسور جديدة، واستُبدلت شبكات توزيع الطاقة الكهربائية. . . كانت المرافق تؤدي وظائفها. لم يكن كل شيء على أتم وجه ـ لكننا كنا نواصل العمل ليكون كذلك. إذاً، بدلاً من أن نأتي بآلاف الشركات الأجنبية التي تطلب مليارات الدولارات، لماذا لا يستفاد من

المهندسين والكهربائيين والعمال العراقيين؟ فآلاف الأشخاص العاطلين عن العمل يودون أن يعملوا على إعادة بناء العراق. . . لكن لم تتح الفرصة لأحد[٣١].

* * *

إن إقامة وتطوير شبكة العلاقات العالمية مهمة في النضال العراقي في سبيل التحرر والعدالة الاجتماعية. وهو أيضاً جزء مهم من المقاومة السلمية. ويشمل ذلك إقامة الصلات مع الحركات الدولية التي يمثلها، في حالة بريطانيا، «تحالُف أوقفوا الحرب» (Stop the War Coalition)[٣٢]، و«أصوات في البرية» (Voices in the Wilderness (VITW))[٣٣]، و«راصد احتلال العراق» (Iraq Occupation Focus)[٣٤]، وتمثلها في بلدان أخرى حركات متعددة من بينها الحركات المعادية للعولمة. وغالباً ما تستند هذه الصلات إلى اتصالات شخصية بدأت من قبل عراقيين، في المنفى، كانوا ناشطين أثناء سنوات الحصار الثلاث عشرة، وتوطدت اثناء فترة التحضير لغزو العراق واحتلاله. وتؤدي حركات السلام في البلدان التي أرسلت جنوداً إلى العراق دوراً حيوياً في الضغط على حكوماتها كي تسحب جنودها من العراق المحتل. وهناك أيضاً العلاقة التاريخية مع مبادرات بدأت إبان الحرب الأمريكية على فيتنام. ومن هذه المبادرات «المحكمة الدولية بشأن العراق» (World Tribunal on Iraq (WTI))، وهي «مشروع عالمي لتحقيق العدالة. وهي تهدف إلى توثيق الخروقات والجرائم والانتهاكات الفادحة المرتكَبة في الفترة التي

---

(٣١) Riverbend, «Baghdad Burning: The Promise and the Threat,» 28 August 2003, <http:// riverbendblog.blogspot.com/2003_08_01_riverbendblog_archive.html>.

(٣٢) تشكل «تحالف أوقفوا الحرب» في ٢١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ في لقاء علني ضم أكثر من ألفي شخص في لندن. وهو يهدف إلى وضع حد لـ «الحرب على الإرهاب» التي أعلنتها الولايات المتحدة. وهو يعتقد بأن «أي حرب ستزيد ببساطة عدد القتلى الأبرياء، وتسبب معاناة غير محدودة واضطراباً اقتصادياً على النطاق العالمي، وتفاقم العنصرية، وتفضي إلى هجمات على الحريات المدنية». انظر: <http://www.stopwar.org.uk>.

(٣٣) تشكلت «أصوات في البرية» سنة ١٩٩٦ لمواجهة الحرب الاقتصادية التي شنتها الولايات المتحدة على الشعب العراقي دون عنف. وهي تواصل نشاطها، عاملة على إنهاء الاحتلال الأمريكي للعراق. انظر موقع المنظمة على الإنترنت: <http://vitw.org>.

(٣٤) تشكل «راصد احتلال العراق»، الناشط لإنهاء احتلال العراق، في ربيع ٢٠٠٤ على أيدي مجموعة من الناشطين في الحركة المناهضة للحرب، وكان الأمر الذي حفزهم على العمل ما تكشف من إساءات إلى حقوق الإنسان في العراق، وتزايد الأدلة على النهب الذي تمارسه شركات أمريكية، وضريبة الموت المروعة التي سببتها قوات الاحتلال العسكرية. انظر: Iraq Occupation Focus, «About Iraq Occupation Focus,» <http://www.iraqoccupationfocus.org.uk/about.htm>.

أفضت إلى العدوان على العراق، وفي أثناء الحرب وفي أثناء الاحتلال الذي تلاها، والتي لا تزال واسعة الانتشار حتى اليوم»[٣٥]. وثمة مبادرة أخرى هي «محكمة بروكسل» (BT)، وهي شبكة من الأفراد المعترضين على احتلال العراق بقيادة أمريكية وعلى منطق الحرب الدائمة التي تبنتها الولايات المتحدة في عهد بوش. وتعمل «المحكمة» على فضح جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية ولا شرعية الحروب الأمريكية في العالم العربي وعلى العالم العربي وفي أماكن أخرى، كما تدعم شرعية المقاومة ضد بربرية الإمبريالية والاستعمار بكافة الوسائل[٣٦]. وقد شنت «محكمة بروكسل» حملة دولية للتنبيه إلى القتل المنظم الذي يتعرض له الأكاديميون العراقيون؛ وهي شبكة السلام العالمية الوحيدة التي تضمّ في لجنتيها التنفيذية والاستشارية أعضاء عراقيون.

وكانت مجموعة من النساء العراقيات في طليعة الشهود الذين توجهوا إلى اسطنبول في ٢٣ ـ ٢٧ حزيران/ يونيو ٢٠٠٥ لحضور الجلسة الختامية للمحكمة الدولية بشأن العراق. وانضم هؤلاء إلى شخصيات دولية معنية بحقوق الإنسان، من محامين وأساتذة جامعات وكتّاب وصحافيين وخبراء جاؤوا من مختلف أصقاع العالم كي يوثّقوا، معاً، الظلم الجاري في العراق المحتل. وقد استمعت هيئة المحكّمين في المحكمة إلى شهادات تلك النساء مثل شهادة الصحافية هناء إبراهيم، أمينة سر منظمة «إرادة المرأة العراقية»، والمحامية أمل سوادي، والصحافيتان نرمين المفتي وايمان خماس، وسعاد العزاوي الأستاذة المتخصصة في مجال اليورانيوم المنضب، والناشطة رنا مصطفى.

يوجد في الشتات، أيضاً، عدد من المنظمات العراقية ـ مثل «ديمقراطيون عراقيون ضد الاحتلال» (Iraqi Democrats against Occupation (IDAO))[٣٧]، و«اللجنة العراقية للإعلام والثقافة الوطنية» (Iraqi Committee for National Media and Culture (ICNMC))، و«تضامن من أجل عراق مستقل وموحد»

(٣٥) موقع المحكمة الدولية الذي لم يعد قائماً: <http://www.worldtribunal.org>.

(٣٦) BRussells Tribunal, «Questioning the New Imperial World Order: The BRussells Tribunal,» <http://brusselstribunal.org>.

(٣٧) تشكلت منظمة «ديمقراطيون عراقيون ضد الاحتلال» على يد مجموعة من الناشطين التقدميين العراقيين وهي امتداد للجنة «الديمقراطيين العراقيين ضد الحرب والعقوبات» التي أسست عام ١٩٩١. وهي مستمرة في حملة التضامن مع الشعب العراقي في نضاله لإنهاء الاحتلال العسكري غير المشروع وبناء عراق حر وديمقراطي وموحد. انظر موقع المنظمة على الإنترنت: <http://www.idao.org>.

(Solidarity for an Independent and Unified Iraq)[٣٨] ـ الناشطة ضمن حركات السلام العالمية المناهضة للحرب، وتمثل الأصوات العراقية المستقلة اللازمة لصوغ استراتيجية للعمل معاً على أساس التفاهم والمساواة والاحترام. والجانب الآخر من عملها هو فضح التعتيم الإعلامي الأمريكي ـ البريطاني الذي يغلف ما يقترفه الاحتلال من فظائع ومجازر، ويضلل الجمهور في ما يتعلق بالانقسام الطائفي.

لقد تم خلق النزاع الطائفي من قبل الاحتلال؛ انه ليس نتيجة فشله، بل ويقوم الاحتلال، في الواقع، بتغذية التوترات الطائفية «النائمة» كي تنفجر في أي لحظة. ومن المؤكد أن فرض المحاصصة الطائفية على بلد علماني قد أحيا بعض المجموعات الطائفية التي توشك على الزوال.

إن ما يشاع ويكرر مراراً من قبل الاحتلال هو أن المشكلة الرئيسية في العراق هي أن العراقيين يقتلون بعضهم البعض بالمئات كل يوم. وإن السؤال الأساسي بالنسبة إلى الاحتلال هو ما إذا كان الوضع قد أصبح حرباً أهلية طائفية. لكن الأمر مختلف تماماً بالنسبة إلى العراقيين، إذ إن وجود قوات الاحتلال والجرائم التي يرتكبونها هما المشكلة الرئيسية، والسؤال هو كيف السبيل إلى وقف هذه الجرائم.

(٣٨) انظر موقع «تضامن من أجل عراق مستقل وموحد» على الإنترنت: <http://solidarityiraq.blogspot.com>.

خاتمـــــة

إن خروج قوات الاحتلال من العراق مسألة حتمية. ولم يعد السؤال، بالنسبة إلينا، متى ستخرج القوات وإنما كيف ستتعامل مع الفوضى والدمار اللذين أحدثتهما، وكيف ستقوم بتعويض الناس عمّا لحق بهم من خسائر فادحة، وكيف ستحاول بناء الجسور مع العراقيين والعرب والمسلمين لاستعادة الثقة بالديمقراطية.

لقد عشنا، في العراق، تاريخاً طويلاً من مقاومة الظلم والقمع أنتج قائمة تضم العديد من حركات المقاومة التي كافحت من أجل وضع حد لانتهاكات حقوق الإنسان، للتعذيب، والعنف ضد المرأة، وعقوبة الإعدام والإعدامات العلنية. لقد سحق الاحتلال تلك الروح. ونحن، الذين كنا نحلم بالعودة إلى الوطن لنساعد في إعادة بناء بلدنا، انضم إلينا في المنفى مليونان ونصف عراقي آخر. والآمال برؤية «العراق الجديد» تتلاشى مع تهدم كل بيت، ومع قصف كل مدرسة ومستشفى، ومع إكراه كل عائلة على ترك منزلها، ومع كل امرأة تترمّل. ويستبد بنا اليأس، ونحن نعرف جيداً، من المأساة الفلسطينية، كم يكون اليأس متفجراً حين يمتزج بالظلم، وكم يكون العنف عشوائياً في معرض الرد عليه.

ماذا يخبئ المستقبل لنا؟ لقد اجتمع ما يزيد على المئة من الكتّاب والفنانين والأكاديميين العراقيين في المنفى لمناقشة مستقبل العراق والشرق الأوسط. وفي رسالة سلمناها إلى الحكومة البريطانية قبل وقوع الغزو بأشهر قليلة، كتبنا: «لا يستطيع أحد سوى الشعب العراقي نفسه إحداث التغيير الحقيقي ولن يتم ذلك إلا في بيئة تكفل العدل والسلام لجميع شعوب الشرق الأوسط». ولا يزال هذا القول صحيحاً، على الرغم من تدهور الأوضاع بصورة أبعد من الخيال. إن مافشل

المحتل في فهمه هو أن العراقيين الذين يقاومون الاحتلال ليسوا إرهابيين. نحن شعب مستعد للمخاطرة بأرواحه دفاعاً عن بيوتنا وأُسرنا وطرق حياتنا وتاريخنا وثقافتنا وهويتنا ومواردنا. إننا لا نكره الأمريكيين، غير أننا نشمئز من جشع حكومتهم ووحشيتها، ونحن مستعدون للدفاع عن أنفسنا ضدها. إننا نؤمن ببساطة بأن العراق للعراقيين.

غالباً ما يُطرح عليّ السؤال التالي: «هل ستعودين يوماً إلى العراق؟» أشعر دائماً بالصدمة عندما أسمع السؤال لأنني أحس في قرارة نفسي بأني لم أغادره قط.

تموز/ يوليو ٢٠٠٧

المراجـــع

١ ـ العربية

كتـب

باقر، طه. **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: الوجيز في تأريخ حضارة وادي الرافدين**. ط ٢. بغداد: وزارة الثقافة والإعلام، دائرة الشؤون الثقافية، ١٩٨٥. ٢ ج.

البراك، فاضل. **المدارس اليهودية والإيرانية في العراق: دراسة مقارنة**. ط ٢. بغداد: الدار العربية، ١٩٨٥.

بطي، سامي رفائيل. **صحافة العراق**. بغداد: الأديب، ١٩٨٥.

ج ١: **نتاج رفائيل بطي**.

خيري، سعاد. **المرأة العراقية كفاح وعطاء**. ستوكهولم: [د. ن.]، ١٩٩٨.

ذاكرة للمستقبل: موسوعة الكاتبة العربية [١٨٧٣-١٩٩٩]. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة؛ مؤسسة نور لدراسات وأبحاث المرأة العربية، ٢٠٠٤. ٤ مج.

مج ١: **لبنان وسوريا**.

مج ٢: **مصر والسودان**.

مج ٣: **العراق وفلسطين والأردن والمغرب العربي**.

مج ٤: **الجزيرة والخليج واليمن والكاتبات باللغات الأجنبية**.

زكي، سانحة أمين. **ذكريات طبيبة عراقية**. لندن: دار الحكمة، ٢٠٠٥.

زيدان، ليلى. **المرأة تحل مشاكلها**. بغداد: رابطة الدفاع عن حقوق المرأة، ١٩٥٩.

صفوة، نجدة فتحي. **معروف الرصافي**. بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٨٨. (سلسلة الأعمال المجهولة)

مظفر، مي. **من تلك الأرض النائية**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٧.

المفرجي، أحمد فياض. **المرأة في الشعر العراقي الحديث**. بغداد: مطبعة الجامعة، ١٩٥٨.

نظمي، وميض. **الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٤. (سلسلة أطروحات الدكتوراه؛ ٥)

ـــــ . ـــــ . ط ٢. بغداد: المكتبة العالمية، ١٩٨٥.

الوردي، علي. **لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث**. بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٩٧٧. ٦ ج.

دوريـات

«اجتثاث البعث يطهّر الجامعات العراقية من منشورات النظام البعثي.» **الشرق الأوسط**: ٤/ ١/ ٢٠٠٦.

التآخي: ٦/ ١٢/ ٢٠٠٦.

«مؤلفات الرفيق فهد، في يوم النساء العالمي ٨ آذار.» **القاعدة** (بغداد): ٩-١١/ ٨/ ١٩٤٤.

النشرة الاخبارية الاجتماعية: العدد ٩، تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٦.

نـدوة

الحوار القومي ـ الديني: أوراق عمل ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت: المركز، ١٩٨٩.

تقاريـر ووثائـق

حمدي، اسماعيل. «الإفراج عن رئيس تحرير صحيفة «هاولاتي» الكردية بكفالة مالية.» وكالة الأنباء العراقية، ٤/ ٢/ ٢٠٠٨، < http://www.raq4allnews.dk/ index.php?sec = news&act = view_news&id = 28831 >.

النوّاب، نبيل. «تقرير عن المهمة الاستشارية إلى الاتحاد العام لنساء العراق: مقترح برنامج تطوير قطاع المرأة.» لجنة الأمم المتحدة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا (الإسكوا)، ٢٠٠٠.

٢ ـ الأجنبية

Books

Aburish, Said K. *Saddam Hussein: The Politics of Revenge*. New York; London: Bloomsbury, 2000.

Amnesty International [AI]. *Amnesty International Report*, 2006. London: AI Publications, 2007.

An Anthology of Modern Arabic Verse. Selected with an introduction by M. M. Badawi. [London]: Oxford University Press, 1970.

Bartholomew, Amy (ed.). *Empire's Law: The American Imperial Project and the «War to Remake the World»*. London; Ann Arbor, MI: Pluto; Toronto: Between the Lines, 2006.

Batatu, Hanna. *The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq: A Study of Iraq's Old Landed and Commercial Classes and of its Communists, Ba'thists, and Free Officers*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1978. (Princeton Studies on the Near East)

Bremer, L. Paul and Malcolm McConnell. *My Year in Iraq: The Struggle to Build a Future of Hope*. New York: Simon and Schuster, 2006.

Gilbert, Martin (comp). *Winston S. Churchill*. London: Heinemann, 1976.

Ismael, Jacqueline S. and William W. Haddad (eds.). *Barriers to Reconciliation: Case Studies on Iraq and the Palestine-Israel Conflict*. Lanham, MD: University Press of America, 2006.

Jawad, Sa'ad. *Iraq and the Kurdish Question, 1958-1970*. London: Ithaca, 1981.

Metz, Helen Chapin (ed.). *Iraq: A Country Study*. Washington, DC: Federal Research Division, 1988. (Area Handbook Series, DA pam; 550-31)

Penrose, Edith and E. F. Penrose. *Iraq: International Relations and National Development*. London: E. Benn; Boulder, CO: Westview Press, 1978. (Nations of the Modern World)

Saadi A. Simawe (ed.). *Iraqi Poetry Today*. London: Modern Poetry in Translation, 2003. (New Series; no. 19)

Periodicals

Amarah, Lami'a Abbas. «If the Fortune Teller Had Told Me.» Translated by Sara Marsden. *Ur*: vol. 2, no. 3, 1982.

Anderson, Jon Lee. «A Man of the Shadows: Can Iyad Allawi Hold Iraq Together?.» *New Yorker*: 24 January 2005.

Associated Press. «Fans Mourn Iraqi Comedian Gunned Down in Baghdad.» *International Herald Tribune*: 20/11/2006.

____. «Iraq-Day: Deadly Incidents Reported Tuesday.» *International Herald Tribune*, 14/11/2006.

Beaumont, Peter. «Hidden Victims of a Brutal Conflict: Iraq's Women.» *Observer*: 8/10/2006.

Blanford, Nicholas. «Iraqi Artists Depict Anger over Abu Ghraib.» *Christian Science Monitor*: 15/6/2004.

Buncombe, Andrew and Justin Huggler. «The Torture Victim: Iraqi Tells How he Was Stripped, Beaten and Sexually Abused by US Military.» *Independent*: 6/5/2004.

«Bush Discusses Plans For Iraq.» *Middle East Economic Survey* (MEES): 10 February 2003.

«Fallujah Death Toll for Week More than 600.» *USA Today*: 11/4/2004.

Feldman, Noah. «The Way We Live Now: Foundering?.» *New York Times Magazine*: 31 July 2004.

Fisk, Robert. «Iraq, 1917.» *Independent*: 17/6/2004.

Gatehouse, Jonathon. «U.S. Torture Scandal in Iraq.» *Maclean*: 17 May 2004.

El-Gawhary, Karim. «The Right to Reintegrate.» *Al-Ahram Weekly*: 29 July 2004.

Henninger, Daniel. «Wonder Land: Spirit of America: Here's a Way You Can Help the Cause in Iraq.» *Opinion Journal*: 16 April 2004.

Hersh, Seymour M. «The General's Report: How Antonio Taguba, who Investigated the Abu Ghraib Scandal, Became one of its Casualties.» *New Yorker*: 25 June 2007.

Hirsh, Michael and John Barry. «The Salvador Option: The Pentagon May Put Special-Forces-led Assassination or Kidnapping Teams in Iraq.» *Newsweek*: 14 January 2005.

Hodge, Roger D. «Weekly Review.» *Harper's Magazine*: 27 January 2004.

Hussein, Akeel and Colin Freeman. «Two Dead Soldiers, Eight More to Go, Vow Avengers of Iraqi Girl's Rape.» *Telegraph*: 7/10/2006.

Al-Khalisi, Jawad. «The Gates of Hell are Open in Iraq.» *Guardian*: 12/4/2005.

Knickmeyer, Ellen. «In Haditha, Memories of a Massacre.» *Washington Post*: 27/5/2006.

Lawrence, T. E. «A Report on Mesopotamia.» *Sunday Times*: 22/8/1920.

Macleod, Hugh. «Despair of Baghdad Turns into a Life of Shame in Damascus.» *Guardian*: 24/10/2006.

McCarthy, Rory. «US Soldiers Started to Shoot Us One by One.» *Guardian*: 21/5/2004.

McLaren, Elsa. «US Troops «Raped and Burned» Iraqi Girl, Court Hears.» *Times*: 7/8/2006.

Merle, Renae. «First Ears, Then Hearts and Minds, Facing Shortage of Arabic Interpreters, Pentagon Seeks a Technological Solution.» *Washington Post*: 1/11/2006.

Moss, Michael. «Country in Tatters has a Legal System to Match.» *International Herald Tribune*: 18/12/2006.

Popal, G. R. «Impact of Sanctions on the Population of Iraq.» *Eastern Mediterranean Health Journal*: vol. 6, no. 4, July 2000.

Popham, Peter. «US Forces «Used Chemical Weapons» during Assault on City of Fallujah.» *Independent*: 8/11/2005.

Reeves, Phil. «Iraqi Rage Grows after Fallujah Massacre.» *Independent*: 4/5/2003.

Riverbend. «Baghdad Burning.» < http://riverbendblog.blogspot.com/2003_12_01_riverbendblog_archive.html > .

____. «Baghdad Burning: The Promise and the Threat.» 28 August 2003, < http://riverbendblog.blogspot.com/2003_08_01_riverbendblog_archive.html > .

Said, Edward. «The Arab Condition.» *Al-Ahram Weekly*: 22 May 2003.

Schou, Nick. «Going to Bed with a $300,000 Price on your Head.» *OCWeekly*: 24 February 2005.

Sengupta, Kim. «Security Staff Who Make up a Private Army in Iraq.» *Independent*: 30/5/2007.

Siegal, Mark. «Former UN Official Says Sanctions against Iraq amount to «Genocide».» *Chronicle Online*: 30/9/1999.

«Soldier Gets 90 Years in Iraqi Rape Case: Spc. James Barker Pleads Guilty to Rape of Girl, Killing of her and her Family.» Associated Press, 17 November 2006, < http://www.msnbc.msn.com/id/15733192 > .

Vasagar, Jeevan and Brian Whitaker. «Exiles Cited by PM are Backed by Iran.» *Guardian*: 19/2/2003.

Walter, Natasha. «No One Knows What We Are Going Through.» *Guardian*: 8/5/2006.

Weiner, Tim. «U.S. Spied on Iraq under U.N. Cover, Officials Now Say.» *New York Times*: 7/1/1999.

Wolff, Michael. «The Students of Mustansiriya University: How Sanctions Destroy Iraqi Education.» *CounterPunch*: 22 February 2003.

Zangana, Haifa. «We Have not been Liberated.» *Guardian*: 6/3/2007.

Reports and Documents

Abid, Kasim. «Arab Film Festival.» < http://www.arabfilmfestival.nl/directors/Kasim%20Abid.htm > .

Agence France Presse [AFP]. «Iraqi General Tells of Prison Torture Horror.» AFP, 12 December 2005.

Alwan, Ammar. «Palestinian Refugees in Iraq Stuck in «Catch 22».» Reuters, 16 March 2007, < http://www.alertnet.org/thenews/newsdesk/PAR646035.htm > .

Amnesty International [AI]. «Iraq: Beyond Abu Ghraib: Detention and Torture in Iraq.» 6 March 2006, < http://web.amnesty.org/library/index/engmde140012006 > .

____. «Iraq: Decades of Suffering, Now Women Deserve Better.» 22 February 2005, < http://web.amnesty.org/library/Index/ENGMDE140012005 > .

Al-Arji, Faiza. «A Family in Baghdad.» 17 April 2005, < http://afamilyinbaghdad.-blogspot.com/2005_04_17_afamilyinbaghdad_archive.html#11137617290 9912353 > .

Asser, Martin. «What Happened at Haditha?.» BBC News, 21 December 2006, < http://news.bbc.co.uk/1/hi/world/middle_east/5033648.stm > .

Al-Azzawi, Souad N. «Depleted Uranium Radioactive Contamination in Iraq: An Overview.» Global Research, 31 August 2006, < http://www.globalresearch.-ca/index.php?context = viewArticle&code = AL-20060831&articleId = 3116 > .

«Background on Women's Status in Iraq Prior to the Fall of the Saddam Hussein Government.» Human Rights Watch Briefing Paper (November 2003), < http://www.hrw.org/backgrounder/wrd/iraq-women.htm > .

Battle, Joyce (ed). «Shaking Hands with Saddam Hussein: The U.S. Tilts toward Iraq, 1980-1984.» National Security Archive Electronic Briefing Book; no. 82 (25 February 2003), < http://www.gwu.edu/~nsarchiv/NSAEBB/NSA EBB82 > .

Boone, Peter, Haris Gazdar and Athar Hussain. «Sanctions against Iraq: Costs of Failure.» Center for Economic and Social Rights, November 1997.

British Broadcasting Corporation. «Iraq Abuse Allegations Multiply.» BBC News, 10 May 2004, < http://news.bbc.co.uk/1/hi/world/middle_east/3698879. stm > .

____. «Iraq Poll 2007.» BBC News, 19 March 2007, < http://news.bbc.co.uk/1/hi/ world/middle_east/ 6451841.stm > .

____. «Iraq Says Women Killed Troops.» BBC News, 5 April 2003, < http://news.-bbc.co.uk/1/hi/world/middle_east/2917107.stm > .

____. «New «Iraq Massacre» Tape Emerges.» BBC News, 2 June 2006, < http:// news.bbc.co.uk/1/hi/world/middle_east/5039420.stm > .

____. «Rape Claim Splits Iraq Government.» BBC News, 20 February 2007, < http://news.bbc.co.uk/1/hi/world/middle_east/6378821.stm > .

____. «What Happened in Majar al-Kabir?.» BBC News, 25 June 2003, < http:// news.bbc.co.uk/2/hi/middle_east/3020174.stm > .

Brookings Institution. «Iraq Index: Tracking Variables of Reconstruction and Security in Post-Saddam Iraq.» 30 July 2007, < http://www.brookings.edu/fp/ saban/iraq/index20070730.pdf > .

Brooks, Lindsey. «Iraqi Women Speak Out about Life under Saddam's Dictatorship, October 4, 2002.» Washington File, 9 October 2002, < http://www.usembassy.it/file2002_10/alia/a2100906.htm > .

BRussells Tribunal. «Questioning the New Imperial World Order: The BRussells Tribunal.» < http://brusselstribunal.org > .

Ciabattari, Jane. «Survivor of Attacks Speaks for Iraqi Women.» Women's eNews, 10 December 2002, < http://www.womensenews.org/article.cfm/dyn/aid/1140/context/archive > .

«Foundation for the Defense of Democracies.» Source Watch, < http://www.sourcewatch.org/index.php?title = Foundation_for_the_Defense_of_Democracies > .

Foundation for the Defense of Democracies [FDD]. «About the Foundation.» < http://www.defenddemocracy.org/about_fdd/about_fdd_list.htm?attrib_id = 7615 > .

____. «Promoting Democracy Activists.» < http://www.defenddemocracy.org/programs/programs_show.htm?doc_id = 308432&attrib_id = 10014 > .

____. «Success Stories.» < http://www.defenddemocracy.org/about_FDD/about_FDD_show.htm?doc_id = 257042&attri_id = 7615 > .

____. «Women for a Free Iraq Campaign.» < http://www.defenddemocracy.org/programs/programs_show.htm?doc_id = 192125&attrib_id = 10014 > .

Hamza, Karim. «Evaluating the Status of Iraqi Women in Light of the Beijing Platform for Action.» United Nations Development Fund for Women (UNIFEM) 2004, < http://www.iknowpolitics.org/en/node/35 > .

Hanish, Shakir. «The July 14th 1958 Revolution in Iraq.» < http://www.iraqcp.org/0030711shE .htm > .

Hassan, Ghali. «Colonial Violence against Women in Iraq.» Countercurrents, 31 May 2004, < http://www.countercurrents.org/iraq-hassan310504.htm >

Independent Women's Forum, «Iraqi Women Fighting to Save Rights in Draft Constitution.» 3 August 2005, < http://www.iwf.org/iwfmedia/show/18990.html > .

____. «A Quest for Political, Economic and Social Participation in a Democratic Iraq.» 16 August 2004, < http://www.iwf.org/iraq/iraq_detail.asp?ArticleID = 625 > .

Integrated Regional Information Networks [IRIN]: «Iraq: Killings Drive Women to Become Suicide Bombers.» IRIN, 8 March 2007, < http://www.irinnews.org/Report.aspx?ReportId = 70582 > .

____. «Iraq: Singing «the Devil's Music» Will Get You Killed.» IRIN, 23 November 2006, < http://www.irinnews.org/report.aspx?reportid = 61962 > .

____. «Iraqi Widow Numbers Rise in Wake of Violence.» Democracy Rising, 28 April 2006, < http://democracyrising.us/content/view/477/164 > .

International Committee of the Red Cross, «Civilians without Protection: The Everworsening Humanitarian Crisis in Iraq.» 11 April 2007, < http://www.reliefweb.int/rw/RWFiles2007.nsf/FilesByRWDocUnidFilename/486FDBB72255800CC12572BA0029A8F4-Full_Report.pdf/$File/Full_Report.pdf > .

International Crisis Group [ICG]. «What Can the U.S. Do in Iraq.» Middle East Report, no. 34, 22 December 2004, < http://www.crisisgroup.org/home/index.cfm?l = 1&id = 3196 > .

«Iraq Foundation.» Source Watch, < http://www.sourcewatch.org/index.php?title = Iraq_Foundation > .

Iraq Occupation Focus. «About Iraq Occupation Focus.» < http://www.iraqoccupationfocus.org.uk/about.htm > .

«Iraqi Media Professionals Killed in Iraq under US Occupation.» < http://www.brusselstribunal.org/Journalists.htm > .

Jamail, Dahr. «Stories from Fallujah.» Dahr Jamail's Weblog, 8 February 2005, < http://dahrjamailiraq.com/weblog/archives/dispatches/000196.php > .

Jardin, Xeni. «Tech Solutions to Iraqi-U.S. Language Barrier.» National Public Radio (NPR), 13 November 2006, < http://www.npr.org/templates/story/story.php?storyId = 6480428 > .

Kilcullen, David. «Twenty-Eight Articles: Fundamentals of Company-Level Counterinsurgency.» Iosphere: Summer 2006. < http://www.au.af.mil/info-ops/iosphere/iosphere_summer06_kilcullen.pdf > .

«Kurdish Youth have Lost Trust in KRG.» Kurdish Aspect, 15 January 2007, < http://www.kurdishaspect.com/doc0115KA.html > .

«The Letters: [21 August 1921].» Gertrude Bell Archive, < http://www.gerty.ncl.ac.uk/letters/l1447.htm > .

Lobe, Jim. «Politics-US: Foe of «Radical Feminism» to Train Iraqi Women.» Inter Press Service, 5 October 2004.

Mansfield, Laura. «The Hooded Man from Abu Ghraib: The Rest of the Story.» Free Republic, 27 December 2005, < http://www.freerepublic.com/focus/f-news/1547528/posts > .

Muir, Jim. «Iraqi Kurds «Tortured Prisoners.» BBC News, 3 July 2007, < http://news.bbc.co.uk/2/hi/middle_east/6266328.stm > .

«Persian Gulf War: Set up of Iraq.» Iraq Resource Information Site, < http://www.geocities.com/iraqinfo/gulfwar/setup.html > .

Powell, Colin L. «Remarks to the National Foreign Policy Conference for Leaders of NGOs.» Washington, DC, 26 October 2001.

«Professors' Associations Decry Violence against Academic Colleagues in Iraq.» Middle East Studies Association (MESA), 5 July 2006, < http://mesa.wns.ccit.arizona.edu/about/statements.htm#IraqJuly2006 > .

«Report of the International Committee of the Red Cross (ICRC) on the Treatment by the Coalition Forces of Prisoners of War and Other Protected Persons by the Geneva Conventions in Iraq during Arrest, Internment and Interrogation.» (February 2004), < http://cryptome.org/icrc-report.htm > .

Reporters without Borders. «Journalists Fall Victim to Ethnic and Sectarian Violence, US Troops Carry out More Unlawful Arrests.» 31 October 2006, < http://www.rsf.org/article.php3?id_article = 19497 > .

____. «Tikrit-based Reporter Released Provisionally, Banned from Leaving Country.» 18 October 2006, < http://www.rsf.org/article.php3?id_article = 19340 > .

Salih, Mohammed. «Bloody Years for Journalists in Iraq.» Antiwar.com (from Inter Press Service), 3 January 2007, < http://www.antiwar.com/ips/salih.php?articleid = 10257 > .

Spirit of America. «Join Us and Make Freedom Win.» < http://www.spiritofamerica.net/site > .

Stoddard, Abby. «With Us or against Us?: NGO Neutrality on the Line.» Global Policy Forum , December 2003, < http://www.globalpolicy.org/ngos/fund/2003/1200against.htm > .

United Nations Assistance Mission for Iraq [UNAMI]. «Human Rights Report, 1 November - 31 December 2006.» < http://www.uniraq.org/FileLib/misc/HR%20Report%20Nov%20Dec%202006%20EN.pdf > .

«UNICEF: Sanctions Hurt Iraq Schools.» Associated Press, 10/12/1998

United Nations Children's Fund [UNICEF]. «Security Council Presentation.» 22 May 2003, < http://www.unicef.org/media/media_9109.html > .

U. S. Department of State. «Human Rights and Women in Iraq: Voices of Iraqi Women.» Foreign Press Center Briefing, Washington, DC, 6 March 2003, < http://www.state.gov/g/rls/rm/2003/18477.htm > .

____. «Iraqi Women under Saddam's Regime: A Population Silenced.» Office of International Women's Issues, Washington, DC, 20 March 2003, < http://www.state.gov/g/wi/rls/18877.htm > .

____. «U.S. Commitment to Women in Iraq.» Office of the Senior Coordinator for International Women's Issues, Washington, DC, 22 June 2005, < http://www.state.gov/g/wi/rls/48464.htm > .

«U.S. Probes Shooting at Fallujah Mosque: Video Shows Marine Killing Wounded Iraqi.» MSNBC, 16 November 2004, < http://www.msnbc.msn.com/id/6496898 > .

«U.S. Soldier Gets 100 Years in Prison for Rape, Murder of Iraqi Girl.» Yahoo! News, 23 February 2007, < http://news.yahoo.com/s/afp/20070223/ts_alt_afp/usiraqjusticetrial_070223145608 > (site discontinued).

«War Profiteering.» < http://www.sourcewatch.org/index.php?title = War_profiteering > .

White House Office of the Press Secretary. «President, Mrs. Bush Mark Progress in Global Women's Human Rights: Remarks by the First Lady and the President on Efforts to Globally Promote Women's Human Rights.» Press Release, 12 March 2004, < http://www.whitehouse.gov/ news/releases/2004/03/20040312-5.html > .

«Winston Churchill's Secret Poison Gas Memo.» < http://www.globalresearch.ca/articles/CHU407A.html > .

Women's Alliance for a Democratic Iraq. «Background History.» < http://www.wafdi.org/background > .

____. «US-Iraqi Business Sorority Program.» < http://www.wafdi.org/projects > .

Thesis

al-Khayyat, Sana Ayoub Sabri. «The Position of Iraqi Women within the Family: With Particular Reference to Married Women.» (Ph. D. Dissertation, University of Keele, 1985).

Websites

< http://www.defenddemocracy.org/about_FDD/about_FDD_show.htm?doc_id = 257042http://www.harpers.org/ProclamationBaghdad.html > .

< http://www.iraqiwomenleague.org/women-conf-2006.html > .

< http://www.georgiabizupdate.com/pdf/white-house-women-0408.pdf > (site discontinued).

< http://www.washingtontimes.com/national/20050203-125019-2769r.htm > (site discontinued).

< http://www.rememberfallujah.org > .

< http://debatebothsides.com/archive/index.php/t-25593.html > .

< http://www.freep.com/apps/pbcs.dll/article?AID = /20061113/NEWS07/611130351/1009/NEWS07 > (site discontinued).

< http://news.yahoo.com/s/afp/20061028/wl_mideast_afp/iraqunrestwomen_061028112402 > (site discontinued).

< http://www.un.org/documents/ga/res/33/ares33r24.pdf > .

< http://almaarefa.org > .

< http://www.mnf-iraq.com/Releases/Apr/Arabic/060423d.htm > .

< http://www.aliraqnews.com/modules/news/article.php?storyid = 27637 > .

< http://www.channel4.com/news/dispatches/war_on_terror/the_womens_story > .

< http://www.stopwar.org.uk > .

< http://vitw.org > .

< http://www.worldtribunal.org > .

< http://www.idao.org > .

< http://solidarityiraq.blogspot.com > .